منهج علماء الحديث والسنة

في

أصول الدين

(علم الكلام)

تأليف

الدكتور مصطفى حلمي

أستاذ مساعد بدار العلوم جامعة القاهرة

دار الدعوة

للطبع والنشر والتوزيع

٦ شارع منشا - محرم بك (الإسكندرية)

بسم الله الرحمن الرحيم

الفهـرس

الموضـوع | الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع | الصفحة

الموضــوع	الصفحة

الموضــوع	الصفحة

الباب السابع :

القضايا الكلامية فى العصر الحاضر :

البــاب الثــامن :

دراسة فى الفكر الاسلامى المعاصر محمد اقبال :

مقـــــدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعـــــد ...

فقد آثرنا اختيار دراستنا عن علم الكلام ـــ او أصول الدين ـــ لتوضيح آراء علماء الحديث والسنة وبيان منهجهم ، ذلك لأن الدراســـات الكلاميــة التقليدية اولت عنايتها للفرق المنشقة من اهل القرون الاولى ـــ كالخوارج والشيعة والقدرية والجهميـــة ـــ كمـــا تعمقت وتوسعت فى عرض المذهبين الكبيرين : الاعتزالى والاشعرى ، ولم تلتفت للنتاج العقلى للمحدثين والفقهاء بالقدر الكافى الذى يسمح بابراز مواقفهم من أصول الدين ومنهجهم فى النقاش والرد على مخالفيهم ، مع العلم بأنهم كانوا يستندون الى ادلة عقلية وبراهين منطقية قائمة على تفسير الايات القرآنية والاحاديث النبوية ، والاسترشاد ايضا بفهم الاوائل الذين كانوا اكثرعلما ودراية بأسرار اللغة العربية وأسباب النزول ودقائق العقائد المتصلة بأصول الدين .

وفى ضوء هذه الحقيقة ، نرى ان طريقة اهل الحديث والسنة تحتـــاج الى نظرة انصاف وتقدير حيث شاعت الفـــكرة التى تصفهم بأنهم (نصيين) وليسوا (عقليين) ، فضلا من أوصاف أخرى تشاع عنهم خطـــأ كوصفهم بالجمود وما الى ذلك من صفات شوهت صورهم فى أذهان الخاصة والعامة .

وكثـــيرا ما تروج ـــ مع الاسف ـــ افكار وتســـود آراء مع مجافاتها للحقيقة ومجانبتها للصحة وذلك بسبب ترديدها المتواصل . ويســـاعد على ذلك عوامل ثقافية وتاريخية ومذهبية وسياسـية ، كلها ادت الى ترقى الفكرة الشائعة الى مرتبة تكاد تصل الى اليقين فى دوائر البحث العلمى ، ســـواء على مستوى الجامعـــات والكليـــات المتخصصـــة ، او المهتمين بالدراسات الاسلامية من العلماء والباحثين والمؤرخين وغيرهم ، الا فيما ندر .

وقد آن الاوان لاعطـــاء علماء الحـــديث والسنة حقهم ، لا اقول من التقدير فحسب ، بل من التبيين والايضاح .

ازاء كل هذه العوامل ، راينا أن المسئولية العلمية تقتضى منا القـــاء الضـــوء على منهج هؤلاء ، وبيان الطـــابع العقلى بحيث يجعلهم فى صفوف (نظار) المسلمين الاصليين ، وانه وفقا لاتباع مناهج المتكلمين اصحاب النظر العقلى ، يمكنا وضع علماء السنة والحديث الذين خاضـــوا فى قضـــايا علم الكلام فى الصفوف الاولى .

وكان مثار اهتمامنا بهذا الاتجاه ، هو وقوفنا على سمات بارزة تربط بين هؤلاء العلماء الذين لا ينتمون الى الدوائر الكلامية بمدارسها المعروفة ، ذلك أن من يتتبع الحركات الفكرية المناوئة للفرق المنشقة منذ ظهورها ، يعثر ـــ كما فعلنا ـــ على ملامح عناصر ثابتة لتيار اسلامى أصيل يعبر عن غالبيـــة عقائد المسلمين ، ظلوا يعارضون منذ البداية كافة الانشقاقات التى خالفت الاصول الاسلامية .

وكان من سمات منهجنـــا تتبـــع الآثار الاولى حيث نلحظ المعارضـــة الشديدة لأية بادرة للخروج من الصف الاول المتماسك الذى تركه رســـول الله صلى الله عليه وسلم على المحجة البيضـاء ، وكنا يجابه بعلاج حاســـم ، وربما يعد من المفيد الاستشهاد على بعض هذه الملامح المشهورة تاريخيا : كما حدث فى حرب الردة اذ حاول بعض المسلمين الامتنـــاع عن دفع الزكاة فكان موقف ابى بكر الصديق رضى الله عنه المعروف ، الذى استند فيه الى قاعدة ايمانية نظر منها الى شمول الدائرة الاسلامية التى لا تفرق بين الصلاة والزكاة ، فتحرك بدافع هذا الفهم الواضح ، ورأى أن أى انفـــراط يعنى تخلخل الاساس واهتزازه وضياع المعالم للاسلام . وفى ايام عمر بن الخطاب رضى الله عنه نرى واقعة زجره لصبيغ عنـــدما سأل عن الآيات المتشـابهات فنهاه عن الخوض فيما لا طائل وراءه ، وثبت بعد ذلك صدق الهام عمر .

وفى خلافة عثمان رضى الله عنه ، عندما ظهرت الفتن بايدى محركيها ، كان الخليفة الثالث يناقض بالحجج والادلة آراء دعاة الفتنـــة ويدحضها ، ولكنهم كانوا قد ركبوا رؤوسهم وبيتوا أمرا بليـــل ، فعبروا بجربتهم انهم لم يكونوا طلاب حق وعدل ، بل دعاة تفرقة وادوات فتن كبدت للاســـلام من

وراء الستار . كذلك وقف على بن أبى طالب وابن عباس رضى الله عنهما وعمر بن عبد العزيز وغيرهم كما تروى لنا المصادر التاريخية لمناقشة الخوارج بالادلة والحجج العقلية المستمدة من الكتاب والسنة .

وظل هذا الاتجاه سائرا فى طريقه لمواجهة ما ظهر من الفرق ، ففى مواجهة الخوارج والشيعة والقدرية والجهمية وقف عشرات العلماء لمقارعة الحجة وتقديم الادلة والبراهين على انحرافاتهم ، ونعنى بهم امثال الحسن البصرى وسعيد بن المسيب والائمة الاربعة ابى حنيفة ومالك والشافعى واحمد ووقائع وقوف كل من الشافعى والدارمى لمعارضة بشر المريسى معروفة مشهورة بكتب التاريخ والملل والنحل . كذلك تحدى الامام احمد بن حنبل لكل من المأمون والمعتصم والواثق فى مسالة (خلق القرآن) ، الى جانب اتباعه الذين ظلوا محافظين على منهجه لمواجهة المنهج الاشعرى . بل اننا نرى موقف الاشعرى نفسه امام المذهب — فى كتابه (الابانة) ، و (مقالات الاسلاميين) — معبرا عن الاتجاه السلفى العام فى اصول الدين ، حيث وجد فيه المنهج الصحيح الذى يستطيع به مواجهة منهج الكلام الاعتزالى الذى بلغ ذروته فى عصر المأمون (٢١٥هـ) ثم المعتصم ثم الواثق (٢٢٧ هـ — ٢٣٢هـ)

واثناء فترة حالكة فى تاريخ الحضارة الاسلامية ظهر شيخ الاسلام ابن تيمية (٦٦١ — ٧٢٨هـ) ليستجمع مؤلفات علماء السنة والحديث قبله ، ويظهرها فى قالب (كلامى) يدحض به كافة الآراء حوله بعد ان تضخمت واستفحل امرها ، فكانت مواقفه الكلامية الحاسمة ازاء كل الفرق والمذاهب جعلت منه علامة بارزة على منهج علماء الحديث والسنة يستضاء به فى ظلمات الغربة واليأس ، وسنرى فى هذا الكتاب كيف وفق شيخ الاسلام الى استنتاج طرق الاستدلالات العقلية من القرآن الكريم ، مثل (الميزان القرآنى) و (الآيات) و (اللزوم) و (قياس الاولى) و (ادلة الكمال) .

هذا ما رأينا بحثه ودراسته .

اما تكرار الحديث عن علم الكلام بمباحثه المعروفة فى دوائر الفرق والمعتزلة والاشاعرة مع انحياز لمذاهبهم ومواقفهم الكلامية ، فلن يخدم

الحقيقة التي نسعى لمعرفتها فى مجال البحث العلمى ، لأن تجاهل غالبية علماء المسلمين فى القرون الاولى — مع جلالة قدرهم ومكانتهم الدينية والعلمية ، ومن تبع نفس منهجهم — أو عرض آراءهم من وجهة نظر خصومهم بغير انصاف ، كل هذا يتنافى مع ما نتوخاه من معرفة الحقيقة — لاسيما ان علماء الكلام عنوا بأصول الدين ، لا بفروعه ، ولكن المناهج السائدة عكست الآية ، ذلك أن اغلب الدارسين (اكتفوا بكتب علماء الكلام المتاخرين المشوبة بكثير من الانظار الغريبة الدخيلة وآراء عهد انحدار الحضارة الاسلامية ، مع أن المنهج العلمى التاريخى الصحيح يقتضى أن نرجع الى الاصول الاولى قبل كل شيء)(١) .

وقد التزمنا باتباع هذا المنهج المعبر عن أصول حضارتنا أيام ذروتها ، فكانت خطتنا البدء بالنظر فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم وصحابته والتابعين ، ثم التدرج لبحث ظهور الفرق وأسبابه ، مع انتقاء بعض المناقشات التى دارت بين علماء الحديث والمعتزلة ، كعبد العزيز المكى وبشر المريسى ، والامام احمد والقاضى ابن دؤاد .

وتابعنا هذه الخطة بعرضنا لمذهب الاشاعرة ونقده من وجهة نظر الحديث والسنة — لاسيما رأى ابن تيمية .

كذلك خصصنا بابا للحديث عن موقف ابن تيمية من القضايا الكلامية .
وفى النهاية رأينا ضرورة عرض نبذة عن الفكر الاسلامى المعاصر .

ولم يغب عن ذهننا أن موضوع الكتاب له وجهان :

الاول — تاريخى ربما قد خمد بسببه الانفعال الذى كان مشتعلا بين طيات السطور فى الكتب الكلامية . ولكن بقيت المسائل موضوعا نابضا بالحياة الى وقتنا الحاضر ، لانه ما من مسلم يقرأ القرآن ويطالع كتب الحديث الا تدور فى ذهنه أوجه التفسير والتأويل ، والتأمل فى قضايا أصول الدين كالكلام عن الله تعالى ذاتا وصفاتا وأمور الغيب الاخرى كقيام الساعة

---

(١) مقدمة كتاب (عقائد السلف) تحقيق وتقديم أستاذنا الدكتور على سامى النشار — رحمه الله تعالى و د . عمار الطالبى — منشأة المعارف بالاسكندرية ١٩٧٠م .

والحساب والعقاب والجنة والنار وأفعال العباد والايمان بالقضاء والقدر وغيرها . وترى أن خير عون — بعد توفيق الله تعالى — هو الاستضاءة بالفهم والتدبر بفهم علماء السنة وتدبرهم والاستناد الى حججهم الشرعية العقلية ، فانها شرعية لانها مستمدة من الشرع ، وعقلية لانها تتفق مع أدلة العقل الصحيحة .

الثانى — الجانب المعاصر فى الفكر الاسلامى المتجه الى مقاومة الغزو الفكرى للحضارة الغربية ، فلم نستكمل الدراسة بالقاء النظر الى الفكر الاسلامى المعاصر فان الدراسة بذلك تصبح مبتورة ، ولا تفيد القارىء الذى يريد فهم ما يدور حوله ، تعينه فى تمييز الصواب والخطأ . لذلك رأينا اعطاء فكرة عن ملامح المشكلات (الكلامية) فى عصرنا الحاضر مع اختلافها مما أثير فى القرون الماضية .

ونقرر عن ثقة واقتناع ، بأن طريقة القرآن الكريم التى أجلاها وأظهرها علماء السنة هى الطريقة الثابتة الصحيحة على أمد الدهر ، ولا تهز ثقتنا بهذا الاصل ما نراه حولنا من تطورات علمية و (تكنولوجية) بهرت العقول والقلوب ، ذلك لان المعلومات العلمية مهما ازدادت وتشعبت وتفرعت ، فانها لا تناقض ولا تعارض سنن الله تعالى فى الكون والآفاق ، فبقدر ما يهب الله عباده العلماء من القدرات والوسائل المتطورة لاكتشاف أبعاد أكبر فى الافاق أو ابعاد اعمق فى النفس البشرية ، بقدر ما تتأكد لهم ثبات السنن الالهية .

وقد مهد الطريق لهذا المنهج كثير من العلماء المتخصصين ذوى الكفايات الممتازة فى مجالات تخصصهم ، فان أصبنا الغرض فذلك توفيق من الله تعالى، وان اخطأنا فمن أنفسنا والشيطان .

والخير أردنا وما توفيقى الا بالله العلى القدير .

مصطفى حلمى

الاسكندرية فى ٣ ذى الحجة سنة ١٤٠٢هـ

٢٠ سبتمبر سنة ١٩٨٢م

الباب الأول

الفصل الأول

عصر الصحابة رضى الله عنهم

- أصول الدين فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم والصحابة .
- رد الرسول صلى الله عليه وسلم على وفد نجران .
- القرآن كلام الله تعالى .
- الايمان بالقدر وفهمه على الوجه الصحيح .
- الملائكة .
- مكانة الصحابة فى الامة .
- منهج الصحابة فى النظر والتدبر .
- الادلة النقلية والعقلية على فضل الصحابة .

عصر الصحابة رضي الله عنهم

ظلت اغلب دراسات المحدثين فى الاسـلاميات التى تحوم حـول علم الكلام فى نشأته وتطوره تعتمـد على كتب المتكلمين انفسـهم من المعتـزلة والاشاعرة فى الغالب ، فلا تكاد تعثر على دراسـة عن المسـلمين الاوائل ومناهجهم الشرعية العقلية فى الاستدلال على اصول الدين .

ونلحظ ان اغلب البحوث المعاصرة تعتمد على آراء المستشرقين الذين يهتمون عادة بالفرق المنشقة عن اهل السنة والجماعة ، والاهتمام بايجـاد الصلات بين معتقـدات الفرق والمصـادر الخارجية من عقـائد وديانات وفلسفات يونانية وفارسية ونحوها .

وكثيرا ما تتضخم ابحاثهم بالمسائل الخلافية والعناية بالفرق الغالية ، وتصور التاريخ الاسـلامى من خـلال الخلافات والانشـقاقات ، فتختفى الحقيقة تحت اكوام من الجدل والخلاف بحيث يصعب على القارىء التمييز بين الحق والباطل .

ومثل هذا المنهج ــ فضلا عن النتائج المغرضة التى يـراد الوصول اليها ، فانه يتجاهل حقيقة بارزة لا يمكن اخفاءها ، الا وهى ان آراء الفرق المنشقة قد حوصرت منذ ظهورها بواسطة علماء الحديث والسنة ، ورفضتها الغالبية من اهل السنة والجماعة التى ظلت مستمسكة بالعقيـدة الصحيحة المتلقاة بالقبول والفهم منذ عصر النبى صلى الله عليه وسلم وصحابته .

لهذا ، رأينا ــ مستعينين بالله سبحانه وتعالى ــ اجلاء المنهج المتبع بواسطة علماء الحديث والسنة ، وكانت أولى خطواتنا البدء بعصر الصحابة لاستقراء الاتجاهات الدالة على الوان من النظر العقلى قبل ان يظهر اهل الكلام وقبل ان ينشق الصف الاسلامى الى فرق ومذاهب متطاحنة ، لنحاول أن نقف على تفسيرات اصحاب الصدر الاول للآيات القـرآنية والاحاديث النبـوية المتصلة بمـا يسـماه المتكلمـون بـ (اصـول الدين) والتى لم توضـع فى الصيغ الكلاميـة او الانساق الفلسفية خلال العصور المبكرة التى نتحدث عنها ، ولكن الذى حدث هو انه كلما ثنقت مسألة ، أو

حدث انشقاق طارىء مستحدث ، قام لها من يتصدى بالتفسير والتوضيح ، او النهى والزجر اذا كان من قبيل البدع المنهى عنها .

ثم ظهر على مر الاعصار المتكلمون فى الفرق المختلفة فصاغوا كل هذا الكلام وشرحوه فى ابواب وفصول نقلته الينا مصادرهم ، وجاء الباحثون لمحاولة استقصاء هذه المسائل فى صيغها التقليدية بعينها ، فلم يعثروا لها على اثر ، فظنوا أن الصحابة لم يعرفوها ، ولم يتطرقوا اليها ، بينما الحق أنهم عرفوها وفهموا دقائقها ، كما ينبغى أن تفهم وتعرف .

ولا شك أن الادلة تدعم اتجاهنا فى اتخاذ عصر الصحابة نقطة البدء فى البحث ، لان دراسة التاريخ الاسلامى ترشدنا الى معرفة أسبقية الاوائل فى العلم والعمل ، فى العقيدة والسلوك . وستتخذ هذا المنهج فى البحث لمحاولة شجب النتائج التى توصل اليها امثال جولد تسهير وغيره من المستشرقين الذين يطبقون على الاسلام — فى العقائد والعبادات — آثار فكرة التطور ، فيتصورون انه بدأ بسيطا ثم تطور على يد المسلمين !! فكانت أكبر زلاتهم .

ولما كانوا غير مسلمين محنا بالدليل القطعى الثابت فى قوله تعالى (اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا) . فان استقراء الاحداث بأناة وصبر وجهد — مع توافر الصدق وحسن الطوية — ليثبت ان (الاسلام فى حياة الرسول — اكتمل فى عقائده وعباداته وأخلاقه وأحكامه ونصوصه وقواعده وان الرسول صلوات الله عليه انتقل الى الرفيق الاعلى وترك الاسلام على هذا النحو وان المسلمين من القرن الاول الى يوم الناس هذا ، يعتبرون أى تزيد على هذا الدين بدعة تحارب ، ويرفضون من أى مخلوق ، ومن أى جماعة ، أن يضعوا فى هذا الدين جديدا ..) (١) .

وسنحاول على قدر الاستطاعة ، وبقدر ما تسمح به هذه الدراسة ،

---

(١) محمد الغزالى ص ٧٨ دفاع من العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين .

الالتفات الى عصر الصحابة والتابعين للبحث عن مواقفهم ازاء المسائل التى اثارها المتكلمون فى العصور التالية :

اصول الدين فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم والصحابة :

تتعدد المواقف التى توضح اتجاه الصحابة فى تلقى الايات القرآنية والنظر اليها ، فاذا بدأنا فى دراسة تلك المواقف بمنهج استقرائى ، استطعنا الوقوف على استنباطهم للنصوص الشرعية من الكتاب والسنة ، فتتضح لنا كيف بدأ التنازع ، واسباب حدوث الانشقاقات عن القواعد الاسلامية بعدهم . وكيف جوبهت الفرق المنشقة عن صف الجماعة ، كالخوارج والشيعة والمرجئة والقدرية وغيرها ، وظل علماء السلف من اهل الحديث والسنة يحملون على اعناقهم هذه المهمة فينتقدون مزاعم المنشقين ، موضحين اسباب انحرافاتهم ، مبينين القواعد الاسلامية الصحيحة المتلقاة عن الاوائل .

وتجتمع عناصر بحثنا فى ما رأيناه من قواعد عامة تجمع مواقف الصحابة منها انهم تكلموا فى اصول الدين جميعا ، كما انهم يتفقون فى المنهج فيفسرون القرآن بالقرآن مستندين الى طرق الاستدلالات العقلية التى اشار اليها وحض على استخدامها .

ونستطيع ان نستدل من الاحداث التارخية على ان الرسول صلى الله عليه وسلم شرح لهم الاصول الاسلامية كلها او ما يسميه المتكلمون بـ (اصول الدين) ، والامثلة كثيرة نقتطف بعضا منها فيما يلى :

بدء الخلق :

روى مسلم فى صحيحه فى باب الايمان عن ابى هريرة رضى الله عنه ان الرسول صلى الله عليه وسلم قال (لا يزال الناس يسالونكم عن العلم حتى يقولوا هذا الله خلقنا فمن خلق الله ؟ قال ابو هريرة جاءنى ناس من الاعراب فقالوا : يا ابا هريرة هذا الله خلقنا فمن خلق الله ؟ فاخذ حصى بكفه فرماهم به ثم قال : قوموا صدق خليلى صلى الله عليه وسلم وهناك عدة روايات لمسلم بهذا المعنى ، جاء فى احداها قول الرسول صلوات الله عليه (فمن

وجد من ذلك شيئا فليقل آمنت بالله) وقوله (فمن بلغ ذلك فليستعذ بالله) ، فارجع الرسول صلى الله عليه وسلم هذا السؤال الى وسوسة الشيطان .

وروى البخارى فى صحيحه فى كتاب (بدء الخلق) من عمران بن حصين قال (دخلت على النبى صلى الله عليه وسلم وعقلت ناقتى بالباب ، فأتاه ناس من بنى تميم فقال : اقبلوا البشرى يا بنى تميم قالوا : قد بشرتنا فأعطنا مرتين ثم دخل ناس من أهل اليمن فقال : اقبلوا البشرى ياأهل اليمن اذ لم يقبلها بنو تميم قالوا قد قبلنا يا رسول الله .. قالوا جئناك نسألك عن هذا الامر .. قال (كان الله ولم يكن شيء غيره وكان عرشه على الماء ، وكتب فى الذكر كل شيء وخلق السموات والارض ..) .

وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : اقرب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه ؟ فأنزل الله تعالى هذه الاية (واذا سألك عبادى عنى فانى قريب) (١) .

رد الرسول صلى الله عليه وسلم على وفد نجران :

تروى لنا كتب التاريخ قصة المباهلة المشهورة بين الرسول صلى الله عليه وسلم ووفد نجران ، نختار منها المناقشة الدائرية بينه وبينهم ، وكان عمادها الجدل بالتى هى أحسن .

وقد أورد الطبرى فى تفسيره ان النصارى أتوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فخاصموه فى عيسى ابن مريم ، وقالوا له من أبوه ؟

وقالوا على الله الكذب والبهتان لااله الا هو لم يتخذ صاحبة ولا ولدا . فقال لهم النبى صلى الله عليه وسلم : (ألستم تعلمون انه لا يكون ولد الا وهو يشبه أباه) ؟ قالوا نعم .

---

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢ يقول ابن تيمية: وقصتهم مشهورة متواترة نقلها أهل السير ، وأهل التفسير ، وأهل الحديث وأهل الفقه وأصل حديثهم معروف .

قال : الستم تعلمون ان ربنا حى لا يموت وأن عيسى يأتى عليه الفناء ؟

قالوا : بلى .

قال : الستم تعلمون أن ربنا قيم على كل شىء يكلؤه ويحفظه ويرزقه.

قالوا : بلى .

قال : فهل يملك عيسى من ذلك شيئا ؟ قالوا : لا

قال : الستم تعلمون أن الله لا يخفى عليه شىء فى الارض ولا فى السماء ؟

قالوا : بلى .

قال : فهل يعلم عيسى من ذلك شيئا الا ما علم ؟

قالوا : لا .

قال : فان ربنا صور عيسى فى الرحم كيف شاء .

قال : الستم تعلمون أن ربنا لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ولا يحدث الحدث ؟

قالوا : بلى .

قال : الستم تعلمون أن عيسى حملته امه كما تحمل المرأة ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها ، ثم غذى كما يتغذى الصبى ثم كان يطعم ويشرب الشراب ويحدث الحدث ؟

قالوا : بلى .

قال : فكيف يكون هذا كما زعمتم ؟

قال : فعرفوا ثم ابوا الا جحودا فانزل الله تعالى (الم ، الله لا اله الا هو الحى القيوم) آل عمران .

القرآن كلام الله تعالى :

قبل اثارة محنة خلق القرآن قد لا تعثر فى المصادر التاريخية على روايات تشرح موقف الصحابة بنفس الطريقة التى تقابلنا بكتب الفرق اثناء

مناقشة بعضها البعض ، كالمعتزلة والاشاعرة ، أو المعتـزلة والسلف ، ولكن مع هذا ، نستطيع لمح آراء متناثرة تفيدنا فى التوصل الى معرفة موقف الصحابة بما ورد على السنة أئمتهم كعلي وابن مسعود وابن عباس رضى الله عنهم ، واقوالهم حجـة .

ومن المعروف تاريخيا أن أول من قال بأن القرآن مخلـوق الجعد بن درهم فى سنى نيف وعشرين ومائة بعد الهجرة ثم الجهم بن صفوان .

ولكن الثابت عن هؤلاء الصحابة رضـوان الله عليهم انهم قالـوا ان القرآن كلام الله ، صحيح لم يرد لفظ غير مخـلوق ، لان المشكلة ظهـرت بعدهم واستخدم المتكلمون هذه الالفاظ ولكن إستقراء النصوص الواردة عنهم تفيد ذلك ، فقـد اعترض الخوارج كما هو معـروف عن على بن ابى طالب لانه حكم الحكمين وقالوا له (حكمت رجلين ؟ قال : ما حكمت مخلوقا انما حكمت القرآن) وفى اجابته انه ما حكم الا القرآن نفى لهذا الخلق عنه .

وايضا قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه من حلف بالقرآن فعليه بكل آية يمين ، ومن كفر بحرف منه فقد كفر به اجمع (١) .

وأما قول ابن عباس رضى الله عنهما ، فقد كان مرة فى جنازة ، فلمـا وضع الميت فى لحده قام رجل فقال : اللهم رب القرآن اغفر له ، فوثب اليه ابن عباس فقال : القرآن منه وفى رواية أخرى (القـرآن كلام الله وليس بمربوب منه خرج واليه يعود) .

الايمان بالقدر وفهمه على الوجه الصحيح :

وفى الايمان بالقدر الذى تنازع فيـه المسلمون فيما بعد رأينـا كيف كان ابو بكر رضى الله عنه حين يقول : اقول برأيي فان كان صوابا فمـن اللـه وان كـان خطـأ فمنى ومـن الشـيطان ، فهـذا القـول يـدل على تأييده لحقيقة المسئولية الاخلاقية ونفى الجبر ؛ كما عزر عمر بن الخطاب رضى الله عنه من أدعى أن سرقته كانت بقضاء اللـه ، فلما سأله فقال :

---

(١) ابن تيمية الفتاوى الكبرى ، تحقيق حسنين محمد مخلوف جه ص٦٥

قضى الله على ، فأمر بقطع يده وضرب اسواطا ، فلما استفسروا من عمر عن سبب هذا التعزيز فأجاب : القطع للسرقة ، والجلد لما كذب على الله .

ولما قال محاصرو عثمان رضى الله عنه حين رموه : الله يرميك . قال : كذبتم لو رمانى ما أخطانى !! .

وهناك توضيح ايضا على لســان على بن ابى طالب رضى الله عنـــه شارحا الفرق بين قضاء الله تعالى وأمره ، فقـد سأله شيخ عند انصرافه من صفين (أكان المسير بقضاء الله وقدره ؟ فأجابه على رضوان الله عليه (والذى خلق الحبة وبرأ النسمة ، ما هبطنا واديا ولا علونا قلعة الا بقضاء وقدر ، ففهم الشيخ خطأ ان عليا يفسر ما حدث بالجبر لذلـك اسرع على فافهمه معنى الايمان بالقدر على حقيقتـه ، وانه لا يتنافى مع حـرية ارادة الانسان ومسئوليته عن افعاله ، فقال له :

(لعلك تظن قضاء واجبا وقـدرا حتما ، لو كان كذلك لبطل الثـواب والعقاب وسقط الوعد والوعيد ، ولما كانت تأتى من الله لائمـة للمذنب ولا محمدة لمحسن ، ولا كـان المحسن بثواب الاحســان أولى من المسوء ، ولا المسوء بعقوبة الذنب أولى من المحسن .. ثم أردف قائلا (ان الله تعالى أمر تخييرا ، ونهى تحذيرا ، ولم يكلف مجبرا ، ولا بعث الانبياء عبثا (١) .

ويسوق لنا التاريخ أيضا ما فهمه عمر بن الخطاب وابنه رضى اللـــه عنهما وتمييزهما الدقيق بين العلم الالهى المسبق المحيط بكل شىء وبين افعال الانسان التى يؤديها بحريته وارادته .

وللقارىء هذا المثل الذى يضربه عمر بن الخطاب رضى الله عنـــه فى شرح الصلة بين العلم الالهى والفعل الانسانى قال (مثل علم الله فيكم كمثل السماء التى اظلتكم ، والارض التى اقلتكم ، فكما لا تستطيعون الخروج من السماء والارض ، كذلك لا تستطيعون الخروج من علم الله ، كما لا تحملكم السماء والارض على الذنوب ، كذلك لا يحملكم علم الله ما تم) .

---

(١) القاضى عبد الجبار فرق وطبقات المعتزلة ص ٢٤ ط دار المطبوعات الجامعية بالاسكندرية تحقيق د النشار وعصام الدين محمد على .

وبسؤال عبد الله بن عمر رضى الله عنهما عن جسالة بعض الناس الذين يزنون ويشربون الخمر ويسرقون ويقتلون النفس زاعمين ان ذلك كان فى علم الله تعالى ، فغضب ثم قال (سبحان الله العظيم ، قد كان ذلك فى علمه انهم يفعلونها ، ولم يحملهم علم الله على فعلها) (١) .

والاجابة توضح نفسها ولا تحتاج الى مزيد ، فان علم الله تعالى المحيط بكل شىء — لانه سبحانه بكل شىء عليم — صفة من صفات الكمال ، والعلم الالهى بما حدث ويحدث وسيحدث لا يحمل العباد على افعالهم .

الملائكة :

قال جماعة من المفسرين : كان لعمر ارض باعلى المدينة فكان ياتيها ، وكان طريقه على موضع مدارسة اليهود ، وكان كلما مر دخل عليهم فسمع منهم وانه دخل عليهم ذات يوم فقالوا : يا عمر ما من اصحاب محمد — صلى الله عليه وسلم — احد احب الينا منك ، انهم يمرون بنا فيؤذوننا وتمر بنا فلا تؤذينا ، وانا لنطمع فيك ، فقال لهم عمر اى يمين فيكم اعظم ؟ قالوا الرحمن قال فبالرحمن الذى انزل التوارة على موسى بطور سيناء اتجدون محمدا عندكم نبيا ؟ فسكتوا قال : تكلموا ما شأنكم والله ما سألتكم وانا شاك فى شىء من دينى ، فنظر بعضهم لبعض ، فقام رجل منهم فقال اخبروا الرجل او لاخبرنه ، قالوا نعم انا نجده مكتوبا عندنا ، ولكن صاحبه من الملائكة الذى يأتيه بالوحى هو جبريل،وجبريل عدونا وهو صاحب كل عذاب وقتل وخسف ، ولو انه كان وليه ميكائيل لامنا به فان ميكائيل صاحب كل رحمة وكل غيث قال لهم فانشدكم بالرحمن الذى انزل التوارة على موسى بطور سيناء اين ميكائيل واين جبريل من الله ؟ قالوا جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره ، قال عمر : فاشهد ان الذى هو عدو للذى عن يمينه هو عدو لذى عن يساره والذى هو عدو للذى عن يساره هو عدو للذى عن يمينه .أن من كان عدوا لهما فانه عدو لله .

ثم رجع عمر ليخبر النبى صلى الله عليه وسلم فوجد جبريل قد سبقه

---

(١) نفس المصدر ص ٢٦ .

بالوحي فدعاه النبي صلى الله عليه وسلم فقرأ عليه (قل من كان عدوا لجبريل فانه نزله على قلبك باذن الله مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين) ٩٧ (من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فان الله عدو للكافرين) ٩٨ فقال عمر : والذى بعثك بالحق لقد جئت وما أريد الا اخبرك (١) .

مكانة الصحابة — رضى الله عنهم — فى الامة :

تخبرنا كتب التاريخ وصحائفه على اكتمال الفهم والمعرفة لاصول الدين جميعا لدى الصحابة رضى الله عنهم وكان ذلك بفضل طاعتهم للايات القرآنية التى حثتهم على التدبر فى غير موضع ، مثل قوله تعالى (كتاب انزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته) وعلى العكس وصف الكفار والمنافقين بالاعراض عن تدبره فى مثل قوله تعالى عز وجل (افلا يتدبرون القرآن أم على قلوب اقفالها) ، قالى تعالى (افلا يتدبرون القرآن ؟ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) ، ومعنى ذلكان معانيه مما يمكن للكفار والمنافقون فهمها ومعرفتها فهى اذن ممكنة للمؤمنين ايضا ، ويدل على أن معانيه كانت معروفة بينة لهم .

وايضا فان الله عز وجل بين انه انزل القرآن عربيا لكى يعقلوه (انا انزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون) . والعقل لا يكون الا مع العلم بمعانيه ، وذم من لا يفقهه (فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا) فلو كان المؤمنون لا يفقهونه لاصطفوا فى صف واحد مع المنافقين والكفار الذين ضرب لهم مثلا بقوله تعالى (ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع الا دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لا يعقلون) فكيف اذن يمكن وضع السابقين الاولين من المهاجرين والانصار بمنزلة الكفار الذين ذمهم الله فى أكثر من موضع لانهم اعرضوا عن تدبر القرآن واتبعوا اهواءهم ، فقال تعالى فى وصفهم (ومنهم من يستمع اليك حتى اذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتو العلم ، ماذا قال آنفا ؟ اولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا اهواءهم ؟

---

(١) الحافظ ابن عبد البر (٤٦٣ هـ) جامع بيان العلم وفضله ج ٢ ص ١٢٣ و ١٢٤ .

ويضيف شيخ الاسلام ابن تيميـــة الى كل هذه الادلة ، ما ثبت عن كل واحد من اصحاب ابن مسعود وابن عباس انه نقـــل عنهما من التفســـير مالا يحصيه الا الله فقد قـــال ابن مسعود (لو اعلم احدا اعلم بكتـاب الله منى تبلغه الابل لاتيتـــه) .

وجاء التابعون فتعلموا التفسير من الصحابة ، قال مجاهد ، عرضت المصحف على ابن عباس من أوله الى آخره ، اقف عند كل آية واسأله عنها (ولهذا قال ســـفيان الثورى — اذا جـــاءك التفسير عن مجـــاهد فحسبك بـــه) (١) .

فالاصل ان الرسـول صلى الله عليه وسلم قد بلغ الرسالة كما أمر ولم يكتم منها شيئا تنفيذا لقوله تعالى (وانزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل نزل اليهم) وقال تعالى (يا ايها الرسول بلغ ما انزل اليـــك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس) . وقد أخبر الله بأنه قد اكمل الدين ، وقال الرسول صلوات الله عليه (ما تركت من شيء يقـــربكم الى الجنة الا وقد حدثتكم به ، وما من شيء يبعدكم عن النار الا وقد حدثتكم بـــه) .

وبناء على هذا الاصل ، فانه تبين لنا اوضح كافة الاصول الاسلامية مما اخبر به عن الله تعالى من أسماء الله صفاته ، مما جاء فى القرآن وشرح وبين لأصحابه هذه الاصول كلها كأحسن ما يكون البيان . قال ابو ذر (لقد توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وما طائر يقلب جناحيه فى السماء الا ذكر لنا منه علما) .

وكان الصحابة حريصين على الفهم والاستيعـــاب الدقيق الكامل لكل ما يتعلمونه من القرآن والحديث ، فان عثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما كانوا اذا تعلمـــوا من النبى صلى الله عليه وســـلم عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل (قالوا : فتعلمنا القـــرآن والعلم والعمل جميعا) وقام عبد الله بن عمر بحفظ سورة البقرة فى ثمـــان

---

(١) ابن تيمية فتاوى جـ ٥ ص ١٥٧ و ١٥٩ ط الرياض .

سنين لاستغراقه فى المعرفة والفهم (١) .

وكانت ام الدرداء تصف زوجها بأن افضل عمله التفكر (٢) وعلى العكس من هذه الحقيقة ، فان الادعاء بأن الصحابة كانوا مشغولين بالجهاد — كما يذكر بعض المتكلمين فاته يحمل فى طيساته ذم الصحابة بل يجعلون مذهب السلف أن الرسول صلى الله عليه وسلم بلغ قرآنا لا يفهم معناه ، بل تكلم بأحاديث الصفات وهو لا يفهم معناها ، وأن جبريل كذلك وان الصحابة والتابعين كذلك وهذا الموقف — كما يذكر ابن تيمية — ضلال عظيم (٣) .

وشرح ذلك يحتاج الى مزيد من الايضاح ، نذكره فيما يلى :

منهج الصحابة فى النظر والتدبر :

لقد خاطب الاسلام العقل كما راينا ودعا الانسان الى النظر فى آثار مخلوقات الله تعالى ، وقد مضى عصر الصحابة فى الصدر الاول على هذا المنهج القرآنى الواضح وكان قدوتهم الرسول صلى الله عليه وحده فى النظر والسلوك ، حيث عاشوا معه وشاهدوا التنزيل وسالوا واستفسروا عما يعن لهم من قضايا تحتاج الى شرح وايضاح .

وهكذا استمدوا من كتاب الله تعالى معرفة وحدانية الله تعالى ، واثبات صفاته ، وعرفوا الانبياء والرسل عليهم السلام وقصصهم مع اقوامهم ، ووقفوا منه على اصل خلق آدم عليه السلام وعداوة ابليس له ولبنيه ، وعرفوا مكانة الملائكة وادوارهم من بين مخلوقات الله تعالى ، واستمدوا معلوماتهم عن اليوم الاخر وحساب الله تعالى وجنته وناره والقدر خيره وشره الى غير ذلك من القضايا التى تشكل اركانا رئيسية واصولا فى الايمان . وكلها جمعها القرآن الكريم — كما يرى الزركشى فى اقسام ثلاثة توحيد وتذكير واحكام . (فالتوحيد تدخل فيه معرفة المخلوقات ومعرفة الخالق باسمائه وصفاته وافعاله . والتذكير ومنه الوعد والوعيد والجنة

---

(١) ابن تيمية : فتاوى ج ٥ ص ١٥٥ و ١٥٦ الرياض .
(٢) نقض المنطق ص ٨٧ .
(٣) شرح حديث النزول ص ٦٥ .

والنـار وتصفية الظاهر والبـاطن ، والاحكام ومنها التكاليف كلها وتبيين المنافع والمضار والامر والنهى والندب . فالاول : (والهكم اله واحد) فيسه التوحيد كله فى الذات والصفات والافعال ، والثانى : (وذكر فان الذكـرى تنفع المؤمنين) ، والثالث : (وان احكم بينهم بما انزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم ان يفتنوك عن بعض ما انزل الله اليك — الاية) (١) .

وقد خط لهم القرآن الكريم الاسـتدلال بمخلوقات الله تعـالى على وحدانيته سبحانه وعلمه وحكمته ، فانها جميعا تبرهن على ان لهـا صانعا حكيما خبيرا تام القدرة بالغ الحكمة، كما دعاهم الى آثار الصنعة فى انفسهم ايضا (وفى انفسكم افلا تبصرون) ؟ ! اشارة الى ما فيها من آثـار الصنعة ولطيف الحكمة الدالين على وجود الصانع الحكيم (٢) .

ونهاهم الرسول صلى الله عليه وسلم عن التفكـر فى الخالق جـل شأنه ، فجاء فى الاثر (تفكروا فى الخلق ولا تتفكروا فى الخالق) ، وتعليـل النهى انه سبحانه ليس كمثله شىء (فالتفكر الذى مبناه على القياس ممتنع فى حقه ، وانما هو معلوم بالفطرة ، فيذكره العبد) (٣) .

كذلك جاء الرسول صلى الله عليه وسلم بسنته كمصدر ثان للاسلام ولذلك اصبح المنهج الصحيح يقتضى معرفة سنته وتنفيذها ، فمن كان أعلم بسنته واتبع لها كان الصواب معه ، وهذه الاوصاف تنطبق على الصحابة رضى الله عنهم ثم الاجيال التالية من أهل الحديث والسنة (وهؤلاء هم الذين لا ينتصرون الا لقوله ولا يضاقون الا اليه ، وهم أعلم الناس بسنته وأتبـع لها ، لكن التفرق والاختلاف كثير فى المتأخرين)(٤) .

وبهذه الطريقة وضعوا الاسس السليمة للمنهج الصحيح فى معـرفة اصول الدين وفروعه ، فمن أراد اذن معرفة شىء من الدين والكلام فيسه ، نظر فيما قاله الله والرسول صلى الله عليه وسلم ، فمنه يتعلم وبه يتكـلم وفيه ينظر ويتفكر وبه يستدل ، فهذا اصل منهج اهل الحديث والسنة .

---

(١) الزركشى : البرهان فى علوم القرآن جـ ١ ص ١٧ ط الحلبى ١٩٥٧م
(٢) السيوطى : صون المنطق جـ ١ ص ١٤٣ .
(٣) ابن تيمية : نقض المنطق ص ٣٥ .
(٤) ابن تيمية : منهاج السنة جـ ٣ ص ٤٦ .

اما المخالفون لهذا المنهج ، فلم يراعوا قاعدته ويلتزموا بخطواته ، اذ انهم بدلا من البدء بالنظر فيما قاله الله ورسوله صلى الله عليه وسلم،بدأوا بما رأوه بعقولهم كما فعل المتكلمون ، أو بما ذاقوه بوجدانهم — كما فعل الصوفية — فاذا وجدوا السنة توافقه والا لم يبسالوا بذلك ، فاذا وجدوها تخالفه ، أعرضوا عنها تفويضا او حرفوها تأويلا (١) .

وهذه الصورة المخالفة للمنهج الاسلامى الصحيح كثـيرا ما نراها فى عصرنا ايضا ، فبسبب ضغوط ثقافة الغرب وحضارته ، وعلى أثر انتصاره العسكرى والسياسى وتفوقه العلمى ونفوذه الثقاف ، وتأثيره الساحر على العقول والنفوس ، فى مقابل ضآلة المعرفة بالاسلام باصوله وفروعه ، نجم منه ان اصبح الكثيرون يتبنون الافكار والفلسفات الغربية ويعطونها شكلا اسلاميا ، ظانين بذلك انهم يدافعون عنه ويقدمونه الى الاجيال الشـابة فى ثوب عصرى !!(٢) .

الادلة النقلية والعقلية على فضل الصحابة رضى الله عنهم

تشهد الادلة النقلية والعقلية بمامثلة فضلهم ، وبيان ذلك كالاتى :

اولا — الادلة النقليـة :

منها ما قاله تعالى فى وصفهم : (والسابقون الاولون من المهـاجرين والانصار والذين اتبعوهم باحسـان) سورة التوبة ١٠٠ ، فكانوا هم الافضل ثم يتناول الوصف من اتبعهم الى يوم القيامة .

وايضا ثبت فى الصحيحين من غير وجه ان النبى صلى الله عليه وسلم قال (خير القرون القرن الذى بعثت فيهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم) .

كما ظهر من دراسة السنة النبوية مكانة الصحابة الخاصة بعد رسول

---

(١) ابن تيمية الفرقان بين الحق والباطل ص ٤٧ .

(٢) كالقول مثلا بديمقراطية النظام الاسلامى او اشتراكيته وتحرر نظمه وقابليته للتطور وغيرها من المصطلحات اللصيقة بفلسفة الغـرب وحضـارته وتاريخه ، ولها مدلولاتهـا ومعانيها المختلفة تمـاما عن مقابلها فى الاسلام بعقيدته وشريعته وتاريخه وحضارته .

الله صلى الله عليه وسلم ، لا سيما الخلفاء الراشدين وباقى العشرة المبشرين بالجنة .

الحديث : (عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين . عضوا عليها بالنواجذ . واياكم ومحدثات الامور ، فان كل بدعة ضلالة) (١) .

والايات والاحاديث كثيرة فى وصف افضالهم ومكانتهم الممتازة ، مثل قوله تعالى .

(كنتم خير امة اخرجت للناس) .

وقوله تعالى : (لا يستوى منكم من انفق من قبل الفتح وقاتل اولئك اعظم درجة من الذين انفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى) الفتح ١٠ .

والحديث (أوصيكم بأصحابى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم يفشو الكذب حتى يحلف الرجل ولا يستحلف ويشهد الشاهد ولا يستشهد) (٢) .

كما وصفهم الرسول صلى الله عليه وسلم فى حديث آخر بأنهم خير القرون ، وبأن غيرهم لو انفق مثل احد ذهبا ، ما بلغ مد احدهم ولا نصيفه .

وقد عانوا وكابدوا كثيرا بعد الاهتداء للاسلام من اهلهم وعشيرتهم وقبائلهم ولكنهم وأقرب اقربائهم لم يبالوا ، بل صبروا وثبتوا لانهم تذوقوا حلاوة الايمان فى القلوب وايقنوا صدق الرسول صلى الله عليه وسلم واقتنعوا بعقيدتهم ولم تتأثر نفوسهم وقلوبهم بأية اضطهادات او مشاق يقابلونها بسبب عقيدتهم ، ثم انطلقوا ينشرونها ويدافعون عنها ويبذلون فى ذلك الانفس والنفائس .

يقول ابن الوزير اليمانى :

لولا ثقل موازينهم فى الشرف والدين ما اتبعوا رسول الله صلى الله

---

(١) جزء من حديث ص ٤٣ رواه الامام احمد وابو داود والترمذى وقال حديث حسن .

(٢) الحديث رواه احمد والترمذى .

بأدلة الدين الجديد فلم يعبأوا أمام وضـــوح الادلة ورسوخها فى عقـــولهم ومالوا عـــن الف دين الاباء والاتراب والقـــرباء الى أمـــر شـــاق عـــلى القلوب ، ثقيل على النفوس ، لا سيما وهم فى ذلك الزمان أهل الانفة) (١).

والصحابة رضى الله عنهم هم أيضا الواسطة بين الرسول صلى الله عليه وسلم وبين الامة ، ولذلك امتدحهم عليه السلام وجعلهم الافضل على مدى الاجيال ، ففى حديث صحيح قال رسول الله صلى اللـــه عليه وسلم (لا تسبوا أصحابى فلو أن أحدكم انفق مثل أحد ذهبا ما بلـــغ مد أحدهم ولا نصيفـــه)(٢) .

قال ابن عبد البر (وما أظن أهل دين من الاديان الا وعلماؤهم معنيون بمعرفة أصحاب أنبيائهم ، لانهم الواسطة بين النبى وبين أمته) (٣)

والادلة كثيرة تدل على فطنتهم وذكائهم ، وانهم كانوا أصحـــاب دراية وفكر ونظر ، ولم يكونوا من السذج بحيث يخدعون أو يؤمنون كايمان العامة يروى لنا ابن كثير فى تفسيره عن أحد صالحى المهاجرين (هو جندب بن كعب الازدى) قد رأى عند الوليد بن عقبة ساحرا يلعب بين يديه ، فكان يضرب رأس الرجل ثم يصيح به فيرد اليه رأسه ، فقال الناس سبحان الله يحيى الموتى فلما كان الغد جاء مشتملا على ســـيفه ، وذهب يلعب لعبـــة ذلك ، فاخترط الرجل سيفه فضرب عنق الساحر وقال ان كان صادقا فليحى نفسه وتلا قوله تعالى (أفتأتون السحر وانتم تبصرون) ؟ ولا شك انه كان يعرف الحديث (حد الساحر ضربة بالسيف) (رواه الترمذى) (٤)

ولا نظن أننا نغالى اذا قلنـــا انهم عاشـــوا على أعتاب عالم الغيب وتمثلوه وكأنه عالم مشـــاهد حاضر أمامهم يرونه ويعيشـــون فيه ، فكانوا

---

(١) ابن الوزير اليمانى : الذب عن سنة أبى القاسم ج ١ ص ٥٥ .
(٢) رواه البخارى بسنده عن ابى سعيد الخدرى رضى الله عنه .
والمد : ربع الصاع ، وانما قدره لانه أقل ما كانوا يتصدقون به فى العادة .
(٣) ابن عبد البر : الاستيعاب — ق ١ ص ١٩ .
(٤) ابن كثير : التفسير ج ١ ص ١٣٩ ط دار الشعب .

يتنافسون فى طلب الشهادة للانتقال من الحياة الفانية الى الحياة الباقيـــة تحقيقا للسعادة الابدية عند ربهم عز وجل ، وها هو حارثة ـــ رضى اللـــه عنه ـــ يسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم (كيف أصبحت يا حارثة ؟ قال اصبحت مؤمنا بالله حقا ، قال انظر ما تقول ؟ فان لكل قول حقيقة ، قال يا رسول الله ، عزفت نفسى عن الدنيا فاسهرت ليلى واظمأت نهارى ، وكأنى بعرش ربى عز وجل بارزا ، وكأنى أنظر الى أهل الجنة يتزاورون فيهمـــا ، وكأنى أنظر الى أهل النار يتعاوون فيها ، قال الزم ، عبد نور الله الايمان فى قلبه(١) .

فأما درجة السابقين كأبى بكر وعمر فتلك لايبلغها احد وقد ثبت فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليـــه وسلم انه قال (**قد كان فى الامم قبلكم محدثون ، فان يكن فى امتى فعمر**) وفى حديث آخر (**ان الله ضرب الحق على لسان عمـــر وقلبه**) وقال على (**كنا نتحـــدث ان السكينة تنطق على لسان عمـــر**) وفى الترمذى وغيره (**لو لم ابعث فيكم لبعث فيكم عمر ، ولو كان بعدى نبى ينتظر لكان عمر**) .

ومع هذا فالصديق اكمل منه ، فان الصديق كمل فى تصديقه للنبى صلى الله عليه وسلم فلا يتلق الا عن النبى والنبى معصوم . والمحدث ـــ كعمر ـــ يأخذ احيانا عن قلبه ما يلهمه ويحدث به ، لكن قلبه ليس معصوما . فعليه ان يعرض ما القى عليه على ما جاء به الرسول صلى الله عليـــه وسلم فان وافقه قبله ، وان خالفه رده . ولهذا قد رجع عمر عن اشياء ، وكان الصحابة يناظرونه ويحتجون عليه ، فاذا بينت له الحجة من الكتـــاب والسنة رجع اليها وترك ما رآه والصديق انما يتلقى عن الرسول صلى الله عليه وســـلم لا عن قلبه . فهو أكمل من المحدث . وليس بعد ابى بكر صديق افضل منه ، ولا بعد عمر محدث افضل منه). (٢) .

---

(١) ابن الاثير/أسد الغابة فى معـــرفة الصحابة ج٢ ص٤٢٥ ـــ ٤٢٦ ط الشعب .

(٢) ابن تيمية : الرد على المنطقيين ص٥١٣ ـــ ٥١٤ .

بعد هذا التوضيح لا نرى مزيدا لمستزيد لتقرير كمال المنهج الذى اتبعه الصحابة فى معرفة الدين اصولا وفروعا(١) .

ثانيا ــ الدليل العقلى :

فضــلا عن النصوص المستفيضة من الصحــابة رضى الله عنهم فى التفسير ، والتى تدل على فهمهم للقرآن الكريم وتدبرهم ، واحاطتهم بالادلة التى تدعمهــا كالآيات وضرب الامثلة واســتخدام الاقيسة العقليــة ، فان استخدامنا للدليل العقلى يبرهن ايضا على ان حواريين الرسل وصحابتهم هم اكثر الناس فهما لرسالتهم من غيرهم باصولها الكبرى وفروعها ودقائقهــا ايضا ، وان المتأخرين هم اكثر الناس بعــدا عن الرسالات وفهمها باستثناء القلة الحريصة على اتباع السابقين عليهم بمنهج النقل الدقيق كما فعل أهل الحديث والسنة .

وهذا هو التفسـير المنطقى المعقــول الذى يشــهد به تاريخ الدعوات الدينية ، فهى (تقوم ابان نشأتها على معتنقين اتجهوا نحوها بقلوبهم وتفانوا فيها بأرواحهم .. وكم روى التاريخ من اخبار الرسـول صلوات الله عليه ان اشارته كانت تقــابل بالتنفيذ من الجميـــع ، فاذا ما فترت الدعوة وضعفت العقيدة وخمدت حرارة الايمان الاولى ، أخذ الناس يبحثون فى معتقــداتهم ويعللون ويناقشـون ويعارضـون(٢) .

ولم نذهب بعيدا فى التعليل والتفسير بينما كان عبد الله بن عباس رضى الله عنهما سباقا الى تعليل اختلاف المسلمين متنبئا بما سيحدث فى العصور التالية لعصر الصحابة مفسرا اياه بنقص درايتهم بالقرآن وافتقادهم لفهمــه على الوجه الصحيح . فقد خلا عمر رضى الله عنه ذات يوم فجعل يحــدث نفسه : كيف تختلف هذه الامة ونبيها واحد ؟ فأرسل الى ابن عبــاس رضى الله عنهما فقال : كيف تختلف هذه الامة ونبيها واحد وقبلتها واحدة وكتابها واحد فقال ابن عباس : يا أمير المؤمنين ، انما علينا القرآن فقرأناه وعلمنــا

---

(١) لم يكن تقسيم الدين الى اصول وفروع معروفا فى عصر الصحــابة والتابعين ولكن هذا التفريق ظهر من جهة المعتزلة .

(٢) د . ابراهيم مدكور : فى الاخلاق والاجتماع ص ٢٦ ط الهيئة العامة للنشر .

فيما انزل وانه سيكون بعدنا اقوام يقرأون القـرآن ولا يدرون فيما نزل ، فيكون لهم فيه رأى فاذا كان كذلك اختلفوا فيكون لكل قوم فيه رأى .. فاذا اختلفوا اقتتلوا(١) .

وكانت طرق استدلال الصحابة مستمدة من النظر فى المخلوقات والتأمل فى عجائب صنع الله تعالى وما يطرأ عليهـا من تغيرات على مدار الازمنة ، فايقنوا انها لابد انهـا مخلوقة من رب حكيم ، احسن كل شيء خلقه واتقن صنع كل شيء . عن الحسن البصرى قال (كانوا — يعنى الصحـابة — يقولون الحمد لله رب الرفيق الذى لو جعل هذا الخلق خلقا دائما لا ينصرف لقال الشاك فى الله ، لو كان لهذا الخلق رب لحادثه ، وان الله قد حادثه بما ترون من الآيات : انه جاء بضوء طبق ما بين الخافقين ، وجعل فيها معاشا وسراجا وهاجا ، ثم اذا شـاء ذهب بذلك الخلق وجاء بظلمه طبقت ما بين الخافقين وجعل فيها سكنا ونجوما وقمرا منيرا ، واذا شاء بنى بناء جعل فيه من المطر والبرق والرعد ماشاء، واذاشاء صرف ذلك، واذاشاء جاءببرديقرقف (من الرقفة اى الرعدة) الناس،واذا شاء ذهب بذلك وجاء بحر يأخذ بأنفاس الناس ، ليعلم الناس ان لهذا الخلق ربا يحادثه بما يرون من الآيات ، كذلك اذا شاء ذهب بالدنيا وجاء بالآخرة) .

وترى الصحابة — طبقا لهذا الاستدلال — قد سلكوا الطريق الفطرى المطابق لطريق البرهان العقلى فى اثبا ت وجود الله سبحانه وتعالى ، وانه خالق كل شيء وهو سبحانه المحدث الفـاعل بمشيئته وقدرته ، ولم يفعلوا كما فعل بعض فلاسفة اليونان عندما فسروا صدور الكون بأنه معلول يقارن عنه (فان ذلك يمتنع محادثته اى احداث الحوادث فيه)(٢) .

من هذا يتبين ايضا ان ادلة الشرع ادلة عقلية ، فقد فطر الله تعـالى عباده على معرفة الحق وقد بعث الرسل — كما يقـول ابن تيمية — بتكميل الفطرة . قال تعالى (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى انفسهم حتى يتبين لهم انه

---

(١) الشـاطبى — الاعتصام جـ٢ ص١٠٧ ط دار الشـعب .

(٢) ابن تيمية — جامع الرسـائل — المجموعة الاولى ص١٣٩ .
تحقيق . محمد رشـاد سـالم ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م ط المدنى بالقاهرة .

الحق) فصلت . وتفسيرها أنه سبحانه أخبر أنه سيريهم الآيات (الأفقيـة والنفسية المبينة ، لأن القرآن الذى أخبر به عباده حق ، فتتطـابق الدلالة البرهانية العيانية ويتصادق موجب الشرع المنقول والنظر المعقول)(١) .

والتفسير العقلى أيضا يبرهن على تجاوبهم الكامل مع العقيـدة التى تغلغلت الى نفوسهم فان الدارس لاحوالهم وسلوكهم خلال ستوات الازمات والجهاد الشاق على النفس وعلى الهوى وفى مواجهة الاهل والاصحـاب والعادات المألوفة والعقائد الوثنية الباطلة التى نشأ البعض عليها بالمقارنة بين تصرفاتهم وعقائدهم قبل وبعد الاســلام وفى ضـوء دراسـة أعمالهم وسلوكهم مع رسـول الله صلى الله عليـه وسلم وخشيتهم لربهم وفهمهم لدقائق العقيدة بعد أن تلقوها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعـد كل هذا يمكن وصفهم بأنهم الاعلم والاحكم من كل من جاء بعدهم .

ونكتفى بواقعة واحدة للمقارنة ، تلك هى موقعة تبوك حيث بلغت بهم الشدة مبلغها .

يقول ابن كثير (ومن هنا تتبين فضيلة أصحاب محمد صلى الله عليـه وسلم رضى الله عنهم على سائر أصحاب الانبيـاء فى صبرهم وعدم تعنتهم كما كانوا معه فى أسفاره وغزواته منهـا عام تبوك فى ذلك القيظ والحـر الشديد والجهد لم يسألوا خرق عادة ولا ايجاد أمر مع أن ذلك كان سـهلا على الرسول صلى الله عليه وسلم لما أجهدهم الجوع سألوه فى تكثير طعامهم فجمعوا ما معهم فجاء قدر مبرك الشـاة فدعا فيـه وأمرهم فملأوا كل وعاء معهم . وكذا لما احتاجوا الى الماء سأل الله تعالى فجاءت سحابة فأمطرتهم ، فشربوا وسقوا الابل وملأوا أسقيتهم ثم نظروا فاذا هى لم تجـاوز العسكر فهذا هو الاكمل فى الاتباع المشى مع قدر الله مع متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم(٢) .

---

(١) منهاج السنة جـ١ ص٨٢ .
(٢) ابن كثير ـ التفسير جـ١ ص١٣٩ ط الشعب .

وهل نتصور أن اهل العصور التالية كانوا اكثر فهما للدين واصوله من الصحابة ؟ او انهم افقه واروع منهم ان ذلك يعد قلبا للاوضاع وتبديلا لموازين القياس الصحيح ، اذ سجل لنا التاريخ فضائل اعمال الجيل الاول بمثاليتهم فى الفهم والتطبيق فلم يشغلهم الجهاد عن التدبر والفهم العميق للاسلام بعقيدته وعباراته واحكامه ، وكثرة الروايات عن الجهاد والاعمال الصالحة تنطوى فى ذاتها على عمق الادراك والوعى بالرسالة والتحرك بها فانصرفوا عن الجدال واهتموا بالاعمال ، ولكن الاوضاع انقلبت بعدهم ، فظهر الجدل فى الدين على حساب العمل ، أو كان بداية لتفرقة وحدة المسلمين وتفتيت جماعتهم وظهور علامات الوهن بين صفوفهم .

لذلك اعتبر علماء الحديث ظهور الجدل الكلامى لونا من الردة ، وعللوه بقلة الفقه فى الدين وذهاب العلماء **لقول الدارمي** « وكانوا مقموعين ايام الصحابة والتابعين ، مقهورين بسلطان الدولة وحجج العلماء ، ولكنهم عندما بعد الزمن ، وجدوا الفرصة لنشر مذاهبهم عندما وجدوا من الرعاع جهلا ومن العلماء قلة »(١)

لقد بحث المتكلمون ونقبوا فى تاريخ الصحابة وايامهم فلم يجدوا آثارا تدل على خوض الصحابة فيها ، فاستنتجوا انهم لم يعرفوها .

وهذا منهج خاطيء فى البحث والتصور لقول السفاريتى :

ولما كان عصر الصحابة والتابعين لهم باحسان خاليا من البدع الكلامية والشبه الخيالية والخصوم المعزلية ، لم تكن ادلة علم أصول الدين مدونة هذا التدوين . (مختصر السفاريتى ٥)

كما تمادى المتكلمون بالطعن فى الصحابة فزعموا انهم كانوا مشغولين بالجهاد عن تناول أمهات أصول الدين !!

---

(١) عقائد السلف .

ولا يمكن تفسير الانتصارات المذهلة للصحابة الا فى ضوء استجابتهم لعقيدة الاسلام وفهمها حق الفهم وتطبيقها عمليا فاجتذبوا غيرهم من الشعوب ذات الحضارات العريقة فكان الصحابة فى وضع الطلائع والصفوة الممتازة .

ولما كانت حضارة الاسلام منتصرة وسائدة — لا انتصارا عسكريا فحسب ، فان ذلك يعبر عن المقدمات — ولكن تغلغلا الى اعماق الشعوب عقائديا ونفسيا لأن حملة العقيدة الجديدة كانوا هم الافضل والاجدر بالاتباع والانقياد .

وظهرت حروب الردة لتكشف معادن الرجال مبرهنة على ان قوة الايمان فى صف ابى بكر والصحابة وقد وقفت سدا مانعا لمواجهة اية ثغرة فى العقيدة ، وكانت محكا لاثر الايمان فى النفوس والفهم الصحيح لعقائد الاسلام ، فقد كشفت الردة عن (حقيقة التصور الالهى فى اذهان المسلمين وسلوكهم حين تحول الى اعمال وحرب حتى لا يتمكن المرتدون من تشويه العقيدة ، او انتقاص المنهج ، او ادخال شيء من الجاهلية فى الاسلام) (١)

ان هذا الفهم الممتزج بالايمان هو الدافع الحقيقى لجهاد الصحابة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم والتسابق للاستشهاد ، ومع الصديق رضى الله عنه بعده .

الا يحق لعلماء اهل السنة والجماعة سلوك طريقتهم واعتبارهم الجيل المثالى فى العقيدة والسلوك ؟

ولن يدهشنا اذا عندما نرى احد علمائهم — وهو الدارمى — يقول :

فلم يظهر جهم واصحابه — وهم اول من قالوا بالجبر ونفوا الصفات الالهية — فى زمن اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكبار التابعين فيروى عنهم فيها اثر منصوص ، مسمى ولو كانوا بين اظهرهم مظهرين آراءهم لقتلوا ، كما قتل على رضى الله عنه الزنادقة — وهم اتباع عبد الله

---

(١) محمد حسن بريغش : ظاهرة الردة فى المجتمع الاسلامى الاول ط مؤسسة الرسالة — بيروت

بن سبأ اليهودى الذى قالوه بتأليه على — والتى ظهرت فى عصره ، ولقتلوا كما قتل أهل الردة(١) .

ويوضح لنا الدارمى بهذا الراى كيف دارت عجلة التاريخ لتطبيق سننه فى رقى الامم وتدهورها ، اذ عبرت الفلول المهزومة فى الحضارات المغلوبة عن نفسها بنشر فلسفاتها ونظراتها للالوهية والكون والانسان ، او باثارة المشكلات العقائدية التى كانت تعانى منها ابان ازماتها .

ومما اذهل عقول مؤرخى التاريخ وفلاسفته ان المسلمين قاموا بغزو بلاد ذات حضارات عريقة ، فكان من المنتظر قياسا على الغزوات المماثلة من قبل كغزوات الاسكندر الاكبر مثلا — حيث لم تتجاوز اعماله مجال التعمير الحضرى بمظهرها المادى فقط — كان من المنتظر بقاء الافكار الفلسفية والدينية للسكان الاصليين كما هى ، ولكن ما حدث نتيجة انتصار المسلمين لم يتوقع لانه اكتسح ما لاقاه فى طريقه كالسيل الجارف (فتغير كل شيء بين يوم وليلة . ولم يقتصر فى هذه المرة على الواجهة السياسية والاقتصادية فى المدن الكبرى فقط ، وانما تغلغل فى الاعماق النفسية لهذه الشعوب جميعا : فاللغات والافكار والقانون والآمال والعادات وتصور العالم وعقيدة الالوهية ، كل ذلك قد طرا عليه تغيير جذرى سريع(٢) .

والشواهد اكثر من ان يستدل بها فى هذا الموضع والا اضطررنا الى عرض حياة عشرات بل مئات الصحابة رضوان الله عليهم ومنهم من فسر القرآن الكريم ومنهم من تفقه ومنهم من أختص بالافتاء والاجتهاد . والامثلة كثيرة على مثل هذه التخصصات . ولو مضينا فى دراسة انشطتهم العلمية لخرجنا بصورة كاملة من حقيقة عقائدهم اذ توصلوا اليها فى كافة اوجه اصول الدين من عقيدة التوحيد الى الصفات الالهية الى مسالة القضاء والقدر الالهى ، الى الانسان وحقيقته وغايته واخلاقه ، الى المجتمع ومكوناته والحياة الانسانية بكافة جوانبها حتى قال الامام احمد بن حنبل (لقد حدثت اجناس الاعمال فى عصر الصحابة) ويقصد بذلك انهم ارسو قواعد الحياة

---

(١) عقائد السلف ص٣٤٩ .

(٢) د . دراز : مدخل الى القرآن الكريم ص٥٤ .
ط دار القلم — الكويت ١٣٩١ هـ — ١٩٧١ .

وقال الامام أحمد (انه ما من مسالة الا وقد تكلم فيها الصحابة أو في نظيرها فانه لما فتحت البلاد وانتشر الاسلام حدثت جميع أجناس الاعمال فتكلموا فيها بالكتاب والسنة ، وانما تكلم بعضهم في مسائل قليلة)(١) .

ويقصد بذلك انهم أرسوا قواعد الحياة الاسلامية الحقيقية كلها . هذه الحياة الكاملة التى تتناول العقيدة والعبادات والاخلاق في دائرة واحدة يعبرون عنها بحياتهم اليومية المادية والمعارك العسكرية والمعاملات التجارية والعلاقات الاجتماعية في الاخوة والصحبة والزواج والعتاق والمسرات والاحزان وهذه لمزية ينفرد بها الصحابة دون من جاء بعدهم ، لانه ما أن انقضى عصرهم حتى ظهرت بواكير التحول التدريجي البطيء عن هذه الحياة النموذجية الى حياة أقل درجة منها ، ثم ظهرت الفتن والقلاقل شأن سنة الحياة في النزول عن القمة بعد بلوغها الذروة .

ومن هنا اصبحت تقاس أطوارنا تاريخيا بالنظر الى اقترابها أو ابتعادها عن المجتمع الاسلامي في الخلافة الراشدة وما حققته الحضارة الاسلامية في هذا الطور العظيم ، فاذا تكلمنا عن الشورى والبيعة والعدالة ، واذا تكلمنا عن المساواة في الحقوق والواجبات بين الناس ، واذا تكلمنا عن الفتوحات ورايات الاسلام الخفاقة المنتشرة في الارض حينذاك ، فلن نجد مصدرا غنيا كاملا بكل ما تحقق في هذه الميادين الا في وقت الخلافة الراشدة والقرون الاولى المفضلة .

ولهذا فان التاريخ يسجل الصلة العكسية بين ظهور الحضارة الاسلامية واتساع نفوذها وأثر اشعاعها وفتوحاتها وبين ظهور الفرق وانقسام صفوف المسلمين بين نحل ومذاهب تتطاحن وتتناحر .

واذا عبرنا بلغة فلسفة التاريخ لفهم تاريخ المسلمين ، عثرنا على الرباط الوثيق بين تنفيذ قواعد الشرع وفهم الاسلام من واقع مصدريه وبين النصر والظهور للمسلمين وبلوغ حضارتهم الى الذروة ، ففي العصور الاولى عندما كان الصحابة والتابعون يسيرون على طريق الشرع بفهم ووعي ، انتصروا في الغزوات وقهروا الاعداء وحققوا مجتمعا انسانيا مثاليا لم تر

---

(١) ابن تيمية — معارج الوصول الى ان أصول الدين وفروعه قد بينها الرسول ص٤٣ ط المكتبة العلمية بالمدينة المنورة .

البشرية مثله ، ثم أصاب الوهن المجتمعات الاسلامية وظهر الضعف فى اوصالها على اثر ضعف العقيدة فى النفوس وظهور البدع .

ولا تخطىء عين الباحث المنقب فى كتب التاريخ ملاحظة ما حققه المسلمون فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم بقيادته ثم الصحابة والتابعون .

واذا شئنا تفصيلا موجزا ، راينا أن عصر بنى أمية امتلأ بالفتوحات والانتصارات ولكن يعاب على أمرائهم تأخير الصلاة .

وكان أوائل خلفاء بنى العباس افضل ممن سبقهم من بنى أمية لشعار الصلاة فى أوقاتها .

وفى عصر المأمون (٢١٥ هـ) ترجمت الكتب اليونانية وكان ذلك على حساب العقيدة ، فعندما تدخلت المفاهيم الفلسفية اليونانية انحرفت العقيدة ، وزادها انحرافا غلو التشيع ثم التصوف بمذاهبه المتطرفة كالحلول ووحدة الوجود ، واختلط علم الكلام لدى المعتزلة بمصطلحات الفلسفة اليونانية .

ورويدا رويدا ضعفت الذاتية الاسلامية الاصلية — المتضمنة للعقيدة والاعمال — لدى الكثيرين ، وحلت محلها افكار فلسفية اجنبية ، أو مذاهب كلامية متطرفة ، فضعفت من اثر العقيدة فى النفوس ، وحولت المسلمين الى غير اهداف الاجيال الاولى ، ونزعت من القلوب الخوف والرجاء والمحبة لله تعالى باسمائه وصفاته الحسنى التى كان الاوائل يندفعون بها فى ميادين الحياة والجهاد وتعمير الارض والسعى فيها ، تحولت الى مناقشات وجدال ، فخمدت الجذوة المشتعلة وتحولت أحيانا الى ما يشبه الرماد ، فظهر الضعف وتغلب الاعداء .

الفصـــــل الثـــــانى

احداث الردة والفتن

ـــ الافتراق عن مذهب الصحابة رضى الله عنهم .

ـــ موقف التابعين ازاء المخالفين .

ـــ ظهور الجدل فى أصول الدين .

ـــ مذهب أهل السنة والجماعة .

يبين لنا مما تقدم أن المسلمين فى الصدر الاول من الصحابة وأوائل عصر التابعين تقيدوا بالمنهج الاسلامى الصحيح .

فان أفضل الخلق بعد الانبياء هم الصحابة ، فلا ينتصر لشخص انتصارا مطلقا عاما الا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا لطائفة انتصارا مطلقا الا للصحابة رضى الله عنهم أجمعين(١) .

وان ارتد ناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فليسوا من الفرقة الناجية .

أولا — خصوم أبى بكر رضى الله عنه كمسيلمة الكذاب .

ثانيا — السبئية أتباع عبد الله بن سبأ .

ثالثا — المختار بن أبى عبيد .

وشرح حديث الفرق الناجية يقتضى انه كل من خرج عن الجماعة فينطبق عليه وصف الرسول صلى الله عليه وسلم ، قال ابن تيمية — وكذلك يدل الحديث على مفارقة الاثنتين والسبعين فى أصول العقائد ، بل ليس فى ظاهر الحديث الا مباينة الثلاث والسبعين كل طائفة للاخرى ، وحينئذ فمعلوم أن جهة الافتراق جهة ذم لا جهة مدح ، فان الله تعالى أمر بالجماعة والائتلاف وذم التفريق والخلاف ، فقال تعالى (واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا) .

وقال تعالى (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم) .

قلت ابن عباس وغيره : (تبيض وجوه أهل السنة وتسود وجوه أهل البدعة والفرقة) .

وقال تعالى (ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء)(٢)
وقال (وما اختلف فيه الا الذين أوتوه بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم) .

---

(١) ابن تيمية : منهاج السنة ج٣ ص٦٦ .
(٢) ابن تيمية : منهاج السنة ج٢ ص١٠٤ .

وقال (وما تفرق الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءتهم البينة) .
واذا كان كذلك فاعظم الطوائف مفارقة للجماعة وافتراقا فى نفسها أولى الطوائف بالذم وأقلها افتراقا ومفارقة للجماعة اقربها الى الحق(٣) .

والحديث نفسه ليس فى الصحيحين بل قد طعن فيه بعض أهل الحديث كابن حزم وغيره ، ولكن قد رواه أهل السنن كأبى داود والترمذى وابن ماجه ورواه أهل الاسانيد كالامام أحمد .

وبتقدير ثبوته فهو من أخبار الاحاد ، **فكيف يجوز أن تحتجوا فى أصل من أصول الدين واضلال جميع المسلمين الا فرقة واحدة بأخبار الآحاد ؟**

وعلى اية حال فان الحديث يصف حال الجماعة ، فقد رواه فى حديث آخر : (هم الجماعة)

وفى رواية (من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابى) .

السنة : ما كان صلى الله عليه وسلم هو وأصحابه عليها فى عهده مما أمرهم به أو أقرهم عليه أو فعله .

أما الجماعة : فهم المجتمعون الذين ما فرقوا دينهم وكانوا شيعا ، وهم اقل اختلافا فى أصول دينهم من سائر الطوائف(٤) . وأهل الجماعة اقل اختلافا فى أصول دينهم من سائر الطوائف .

فان الحق مع الرسول صلى الله عليه وسلم ، فمن كان أعلم بسنته واتبع لها كان الصواب معه وهؤلاء هم الذين لاينتصرون الا لقوله ولايضافون الا اليه ، وهم أعلم الناس بسنته واتبع لها وأكثر سلف الامة كذلك ، لكن التفرق والاختلاف كثير فى المتأخرين(٥) .

---

(٣) ابن تيمية : منهاج السنة ج٢ ص١٠٤ .
(٤) ابن تيمية : منهاج السنة ج٢ ص١٠٢ ، ج٣ ص٦٢ .
(٥) منهاج السنة ج٣ ص٤٠ ، ج٣ ص ٤٦ .

وقد سار اهل الحديث والسنة والجماعة بمنهج اتباعهم الكتاب والسنة
ابتة عن نبيهم صلى الله تعالى عليه وسلم فى الاصول والفروع وما كان
به اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بخلاف المنشقين عن هذا
هج — كما سيتضح لنا تباعا — فانهم خالفوا هذه القاعدة الاصولية ،
ـعتزلة والشيعة والخوارج ومن وافقهم ، فانهم لا يتبعون الاحاديث التى
اها الثقات عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم التى يعلم اهل الحديث
حتهـا والادلة على ذلك ان المعتزلة يقـولون هذه اخبار آحاد ، ويطعن
ـيعة فى الصحابة ونقلهم وهذا طعن ضمنى فى الرسـالة . والخـوارج
برون عن موقف قائلهم (اعدل يا محمد فانك لم تعدل) ولهـذا قال النبى
لى الله عليه وسلم (ويلك ان لم اعدل من يعدل لقد خبت وخسرت ان لم
ـدل)(٦) .

وقد ظهرت الفرق والآراء الكلامية المبتدعة تباعا ، وجابههـا علمـاء
ـسنة والجماعة للرد عليها واعادتها الى الصف الاسلامى بعقيدته فى الصدر
ول .

وكلما تفتقت الاحداث عن انحراف ما ، اسرع الجهابذة من علماء اهل
ـسنة والجماعة لتصويبه واظهار وجه الحق ، اذ ظهرت افكار الخـوارج
ـسبب قصورهم فى فهم آيات من القرآن الكريم ، وبدأ التشيع عندما قتـل
حسين سيد الشهداء .. الى آخر الاحداث التى سجلتها كتب التـاريخ ،
خذت الآراء تكثر وتتشعب ، والفرق تتشكل وتتحزب حول معتقداتها .

ثم انتقلت اصـداء هذه الخـلافات والمناقشـات الى كتب علم الكلام
أخذ مكانها بين الآلاف من صفحاتها عرضـا وتفنيدا ونقاشـا . وهكذا ظهـر
ـجدل فى اصول الدين .

ـفتراق عن مذهب الصحابة فى اصول الدين :

أن مذهب الصحابة رضى الله عنهم — كما يذكر الشاطبى — وعليـه

---

(٦) ابن تيمية : منهاج السنة جـ٢ ص ١٠٣ .

دابوا فلم ينكر احد منهم ، بل اقروا واذعنوا لكلام الله وكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يصادموه ولا عارضوه باشكال ، بل آمنوا به واقروه(٧) .

وتعليل ذلك عنده : —

١ — ان الرسول صلى الله عليه وسلم نهاهم عن التنقيب فيما لا طائل وراءه بمثل قوله (ذرونى ما تركتكم فانما هلك الذين من قبلكم بسؤالهم واختلافهم على انبيائهم فاذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه ، واذا أمرتكم بشيء فخذوا منه ما استطعتم) ولهذا قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه (ان اصحاب الراى اعداء السنن أعيتهم أن يحفظوها وتفلتت منهم أن يعوها ، واستحيوا حين سئلوا أن يقولوا لا نعلم فعارضوا السنن برأيهم فاياكم واياهم) .

والآثار كثيرة تشير الى ذم ايثار نظر العقل على آثار النبى صلى الله عليه وسلم،ثم جاء جهم بن صفوان وغيره فخالفوا السنن وعارضوها بعقولهم فاستعملوا قياسهم وآراءهم فى رد الحديث .

٢ — ان جميع ما قالوه مستمدة من معنى قول الله تعالى (فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة) ثم قال (والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا) ، فانها صريحة فى هذا الراى الذى قررناه — فان كل ما لم يجر على المعتاد فى الفهم متشابه) .

٣ — اتخذوا من الشرع حجة قاطعة وحاكما أعلى ، وظهرت هذه الحقيقة فى عدة مواقف عقب انتقال الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومنها يوم السقيفة اذ قال بعض الانصار (منا أمير ومنكم أمير) فأتى الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن الائمة من قريش اذعنوا لطاعة الله ورسوله ولم يعبأوا براى من راى غير ذلك لعلمهم بأن الحق هو المقدم على آراء الرجال .

وفى حرب أبى بكر لمانعى الزكاة ، قال له عمر رضى الله عنهما . كيف

---

(٧) الشاطبى : الاعتصام ج٢ ص١٩١ ٢ — نفس المصدر ج٢ ص٢٠٧

نقاتل وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرت أن اقاتل الناس حتى يقـول لااله الا الله فاذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم الا بحقهـا وحسابهم على الله ، فرد ابو بكر بقوله (الا بحقها) فقال الزكاة حق المال ، مع أن الذين اشاروا عليه بترك قتالهم انما اشاروا عليه بأمر مصلحى ظاهر تعضده ، مسائل شرعية ، ولكن لم يقو عنده آراء الرجال ان تعارض الدليل الظاهر الخ ......

ونفهم من استقراء اقوالهم وسلوكهم فى جميع اصول الدين أنهم كانوا يتقيدون بهذا المنهج اى تقديم الشرع على العقل ، لا عن قصور فى الفهم ، ولكن لمعرفتهم بمكانة الشرع وضرورة تقديمه على الاستنباطات العقلية .

واليكم مواقفهم من هذه الاصول : —

(أ) ففيما يتصل بمسائل الغيب كالكلام عن الميزان والصراط وعذاب القبر والميزان واوصاف اهل الجنة وأوصاف اهل النار .

فلم ينكر احد منهم ما جاء من ذلك بل اقروا واذعنوا لكلام الله وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم ولم يصادموه ولا عارضوه باشكال ، ولو كان شىء من ذلك لنقل الينا كما نقل الينا سائر سيرهم وما جرى بينهم من القضايا والمناظرات فى الاحكام الشرعية ، فلما لم ينقل الينا شىء من ذلك دل على انهم آمنوا به واقروه ، كما جاء من غير بحث عن الكيفيات لامور الغيب .

ويذكر لنا الشاطبى فى كتابه « الاعتصام » طريقة الصحابة ازاء هذه المسائل موضحا على سبيل التفصيل الاتجاه الصحيح فى تلقى الاخبار المنقولة من صاحب الشرع :

— ففهموا وصف الصراط بانه كحد السيف لأن العادة قد تخرق حتى يمكن المشى والاستقرار .

— وفى مسالة الميزان فاثبتوا ان كيفيته تليق بالدار الاخرة ، لان الاعمال ليست كالاجسام التى توزن فى دارنا . ولم يأت فى النقل ما يعين انه كميزاننا من كل وجه .

— مسألة عذاب القبر ، فان رد الروح الى الميت وتعذيبه بغير ان يراه البشر او يسمعونه أمر ثابت بالحديث .

والعقل يسلم بما نراه ، فالميت يعالج سكرات الموت ويخبر بالام لا مزيد عليها ولا نرى عليه من ذلك اثر ، وكذلك أهل الامراض المؤلمة .

مستند الى الآيات والاحاديث الدالة على ذلك .

— ويلحق بها مسألة سؤال الملكين للميت واقعاده فى قبره ، فانه انما يشكل اذا حكمنا المعتاد فى حياتنا الدنيا ، ولكنه من قبيل خرق العوائد التى لا تحيط بمعرفتها العقول . كانطاق الجوارح شـــاهدة على صاحبهـــا يوم القيامة ، وقراءة الصحف لمن لم يقرأ قط .

— رؤية الله عز وجل فى الاخرة جائزة ، اذ لا دليل فى العقل يدل على انه لا رؤية الا على الوجه المعتاد عندنا .

— كلام البارى تعالى انما نفاه من نفاه وقوفا مع الكلام الملازم للصوت والحرف ، وهو فى حق الله عز وجل محال ، فكلامه تعالى خارج عن مشابهة المعتاد لائق بالرب اذ لا يجزم العقل بأن الكلام اذا كان على غير الوجه المعتاد محال . فالموقف الصحيح اذن الوقوف مع ظاهر الاخبار مجردا .

— وكذلك باقى الصفات ، انما نفاها من نفاها للزوم التركيب عنده فى ذات البارى تعالى وهذا قطـــع من العقـــل الذى ثبت قصـــور ادراكه فى المخلوقات فكيف باثبات صفات ، فالصواب فى حقـــه أن يثبت من الصفات ما أثبته لنفسه ، والاقرار مع ذلك بالواحد نية له على الاطلاق والعموم .

— تحكيم العقل على الله تعالى بحيث يقول يجب عليه بعثة الرســـول ويجب عليه الصلاح والاصـــلاح ويجب عليه اللطف الى آخر ما ينطـــق به أصحاب المذاهب العقلية والمنحرفة ، ونتج هذا لأن المعتـــاد ، انما حســـن فى المخلوق من حيث هو عبد مقصور محصور ممنوع ، والله تعالى ما يمنعه شيء ولا يعارض أحكامه حكم ، فالواجب الوقوف مع قوله تعالى (قل فلله الحجة البالغة) وقوله (يفعل ما يشاء) (٨) .

موقف التابعين ازاء المخالفين :

كان موقف علماء التابعين امتدادا للصحابة رضى الله عنهم ، ومن هنا

---

(٨) سورة آية .

نراهم يجابهون الآراء الشاذة التى اعلنها امثـال غيـلان الدمشقى وجهم بن صفوان .

وقد حفلت كتب التاريخ بالمناقشات الدائرة بين بعض التابعين وزعمـاء الخوارج واصحاب الآراء التى شذ بها اصحابها من معتقدات الصدر الاول .

وسنقتطف نبذة يسيرة من هذه المناقشات لمعرفة المنهج الذى اتبعـه علماء التابعين فى جدالهم مع المخالفين ، ومنهـا مناقشة دارت بين عمـر بن عبد العزيز الذى لقب بالخليفة الخامس بسبب تقواه وعدله واسـتنانه بسنن الراشدين قبله — وبين غيلان الدمشقى الذى كان اول من اعلن نفى القدر وتنسب اليه فرقة (القدرية) اى نفاة القدر .

يذكر لنا الملطى المحاورة الدائرة بينهما فيقول :

« لما دخل غيلان الى عمر بن عبد العزيز سأله عن أمر الناس فأخبره صلاحا ، فحمد الله واثنى عليه ثم قال : ويحك ياغيلان ما هذا الذى بلغنى عنك ؟ قال : يا امير المؤمنين اتكلم فتسمع ؟ قال : تكلم ، فقرأ (هل اتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا ، انا خلقنا الانسان من نطفـة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا ، انا هديناه السبيل اما شـاكرا واما كفورا(٩) .

ويبدو من اجابة غيلان انه استند الى آيات من سـورة الانسان — او الدهر — فاقتطع آيات من السورة لكى يؤيد فكرته المسبقة عن نفى القدر .

لذلك سنجد فى اجابة عمر بن عبد العزيز رحمه الله يضع القضية فى وضعها الصحيح ، فيذكر غيلان بالاصل والمبدأ ، وهو ان الانسان مخلوق خلقه الله تعالى ، وهو خالقه وخالق اعماله ، ولا ينفى ذلك جعل الانسان مسئولا عما يفعله ومريدا له ومسئولا عنه .

لهذا قال عمر (ويحك ! من ههنا تلخذ الامر وتدع بدء خلق آدم عليـه السلام ، ثم تلى قوله تعالى (واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الارض خليفة

---

(٩) سورة الدهر آيات ١ — ٣

قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال انى اعلم ما لا تعلمون ، وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال انبؤنى بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين ، قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك انت العليم الحكيم ، قال يا آدم انبئهم بأسمائهم فلما انبأهم بأسمائهم قال الم اقل لكم انى أعلم غيب السموات والارض وأعلم ما تبدون وما تكتمون(١٠) .

فقال غيلان : والله يا أمير المؤمنين لقد جئتك ضالا فهديتنى ، وأعمى فبصرتنى ، وجاهلا فعلمتنى ، والله لا اتكلم فى شيء من هذا الامر ابدا .

فقال عمر : والله لئن بلغنى انك تكلمت فى شيء منه لاجعلنك للناس أو للعالمين نكالا ، فلم يتكلم فى شيء حتى مات عمر رحمه الله ، فلما مات عمر استأنف الكلام فيها وعد بالانتهاء عن الخوض فيه(١١) .

ولدينا مصدر آخر يسجل مناقشة ثانية دارت بين عمر بن عبد العزيز وغيلان الدمشقى ، لها مدلول مشابه مع الاختلاف فى الحجج التى قدمها عمر رحمه الله ، حيث تذكر انه افحم غيلان بآيات من سورة يس كقوله تعالى (انا جعلنا فى اعناقهم اغلالا فهى الى الاذقان فهم مقمحون) وقوله عز وجل (فأغشيناهم فهم لا يبصرون) وغيرها — وكانت اجابة غيلان لا تخرج أيضا عن ترديده القول فى كل آية يسمعها « كأنى لم اقرأ هذه الآية قط » .

ولكن غيلان نقض العهد فى زمان هشام فاستدعاه مذكرا اياه بعهده لعمر بن عبد العزيز ، فلما طلب غيلان العفو عنه هذه المرة ايضا رفض هشام وأمره بقراءة اوائل سورة الفاتحة ، فقرأ (الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين اياك نعبد واياك نستعين) .

فسأله هشام : علام استعنته ؟ على أمر بيده لا تستطيعه الابه أو على أمر فى يدك أو بيدك ؟ ثم أمر به ليضربوا عنقه(١٢) .

---

(١٠) سورة البقرة ٣٠ — ٣٣ .
(١١) الملطى : التنبيه والرد على أهل الاهواء والبدع ص١٦٨ .
(١٢) أحمد بن حنبل : كتاب السنة — الطبعة السلفية مكة المكرمة ١٣٤٩هـ جـ٢ ص١٢٧ .

ويتضح من هذه النصوص المنهج الذى اتبعـــه الاوائل فى فهم الصلة بين المشيئة الالهية والارادة الانسانية ، فنجد عمر بن عبد العزيز يذكر غيلان بمبدأ خلق آدم عليه السلام وتعليمه الاسماء كلها واسجاد الملائكة له ، فالذى خلقه سبحانه ومن قبل ولم يك شيئا وعلمه ما لم يكن يعلم ، وهو الذى يمده ايضا بالقدرة على الفعل ، فيظهر الفقر الذاتى لآدم عليـــه السلام وبنيه ، وانهم لا يستقلون عن خالقهم فهو خالقهم وخالق افعالهم ، مع نسبة الافعال للانسان نفسه طبقا لقواعد الشرع والعقل واللغة ، ومن ثم مسئوليته عنهـــا وجزاؤه فى مقابلها ، ان خيرا فخير وان شرا فشر .

ونلحظ ايضا ان طريقة عمر بن عبـــد العـــزيز رحمه الله خاليـــة من استخدام اية مصطلحات خارجة عن الآيات القرآنية ، كل ما هنالك انه لفت نظر غيلان الى الآيات المثبتة للقدرة المطلقـــة لله تعالى — فانه ســـبحانه على كل شيء قدير — وهو توجيه ضمنى الى غيلان — وغيره من تأثروا به — الى خطأ موقف اتخـــاذ الرأى المسبق ثم البحث فى القـــرآن الكريم على ما يؤيده — فهذه طريقة الذين يضربون كتاب الله تعـــالى بعضه ببعض ، ويختارون الآيات التى توافق أهواءهم دون غيرها التى تصادمها . كما لم يرد على لسان عمربن عبد العزيز لفظا الجبر والاختيار ، ولكنه باختياره للآيات الاولى من سورة البقرة عن خلق آدم عليه السلام ارشدنا الى فهمه للمسألة ، وهو ان الآيات القرآنية متوافقة متعاضدة ، فالانسان مسئول حر فى اختيار افعاله ، ولكنه لا يستقل بفعله عن القـــدرة والمشيئة الالهية — وهو نفس ما ذهب اليه عمر وعلى رضوان الله عليهما كما بينا آنفا(١٣) — كما أراد أن يبين لغيلان خطأه فى ضرب الكتاب بعضـه ببعض ، فاخذ يذكره بالآيات التى ربما غابت عنه فى انكاره للقدرة ، او انه اغفلها عامدا .

وكذلك فى حديث هشـام ، رأيناه ينبه غيلان الى عجز الارادة الانسانية بغير مدد من الله تعالى ، فان آيات سورة الفاتحة تتضمن دعاء العبد طالبا الهداية والاستعانة بالله سبحانه ، ومن ثم فلا استقلال للفعل الانسانى ، بل لا قيام له منفردا أصلا ، فالانســـان عبد مخلوق مربوب عاجز مفتقر فقرا ذاتيا ،

---

(١٣) ن — م

وهو محتاج دائما الى ربه وخالقه وفاطره عز وجل ، ولما كان ربه سبحانه هو الخالق البارىء المصور ، فكذلك هو الذى يمد عباده بالقدرة على افعالهم .

ولكن ظهر مع الاسف تيار ينزع الآيات القرآنية من مواضعها ليضرب كتاب الله عز وجل بعضه ببعض . ولذلك ظهرت موجة عارمة للوقوف فى وجه القدريين منذ أن بدأوا باعلان بدعتهم ، فكان الحسن البصرى يقول (من كذب بالقدر فقد كذب بالقرآن) ، وعندما سمع سعيد بن المسيب اقوال القدرية غضب غضبا شديدا حتى هم بالقيام ثم تكلم فقال : تكلموا به ؟ اما والله لقد سمعت فيهم حدثا كفاهم به شرا ، ويحهم لو يعلمون ، ثم ردد الحديث بسنده قال (حدثنى رافع انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يكون قوم من امتى يكفرون بالله وبالقرآن وهم لا يشعرون كما كفرت اليهود والنصارى) قال قلت : جعلت فداك يا رسول الله وكيف ذلك ؟ قال : يقرون ببعض القدر ويكفرون ببعضه)(١٤) .

احوال اهل الجنة :

ويدهشنا العثور على نموذج من الجدل يسوقنا الى موضوع آخر اثير ، فوجدوا من يوفيه حقه ، وهو موضوع يتصل بعالم الغيب وكيفياته ، فقد بين راهب دار نقاش بينه وبين خالد بن يزيد بن معاوية عن اهل الجنة . ومأكلهم ومشربهم ، قال الراهب (اليس تقولون انكم فى الجنة تأكلون وتشربون لا يخرج منكم اذى ؟ فأجاب خالد (بلى قال الراهب افلهذا مثل تعرفونه فى الدنيا ؟ قال — نعم ، الصبى يأكل فى بطن أمه من طعامها ويشرب من شرابها ثم لا يخرج منه أذى . قال الراهب لخالد افليس تقولون ان الجنة تأكلون فيها فواكه ولا ينقص منها شىء قال خالد ، بلى ، قال افلهذا مثل فى الدنيا تعرفون ؟ قال خالد ، نعم الكتاب يكتب منه كل شىء أحد ثم لا ينقص منه شىء) وفى النهاية سأل الراهب متعجبا (اليس تقول انك لست من علمائهم ؟ فأجابه خالد بأن فيهم لمن هو اعلم منى .

---

(١٤) الملطى — التنبيه والرد على اهل الاهواء والبدع ص١٩٦ وهو جزء من حديث طويل اورده الملطى بتمامه .

ظهــور الجدل فى اصول الدين

استقرت العقائد فى القلوب ولم يختلف الصحابة حول اصـــول الدين ، بل لم يعرفوا تقسيم الدين الى أصول وفروع ، ثم بدأت تظهـــر الآراء المخالفة منذ النزاع الحادث بين على ومعاوية رضى الله عنهما بعـد مقتـل عثمان بن عفان رضى الله عنه .

وسنحاول أن نخط طريقنا من القاعدة المنهجيـة التى نراها صحيحة شرعا وعقلا ، وتتلخص فى الاعتقاد أن الصحـابة كانوا هم الاعلم بلغــة القرآن ومراميه ، والادق فى فهم محكمه ومتشابهه ، فلم تظهــر فى عصرهم خلافات فى أصول العقيدة ، اذ كان هناك اجماع عليها بين الكافة ، ثم بدأت الانشقاقات رويدا رويدا .

وكان انحراف **الخوارج** ظاهرا عندما اعتقدوا خطأ على بن أبى طالب رضى الله عنه والنفر الذين كانوا معه من المهاجرين والانصار .

كما رأوا منصب الامامة أو الخـلافة لا تختص بشخص من القرشيين فجوزوا امامة أى امام يجتمع فيه العلم والزهد ولو كان من اخلاط الناس وأوباشهم ، بالاضافة الى عقائد أخرى كتخليد مرتكب الكبيرة فى النار وغيرها من الآراء التى دونتها كتب التاريخ والفرق .

وظهرت **القدرية** فى أواخر زمن الصحابة وصار معبد الجهنى وغيـلان الدمشقى والجعد بن درهم الى القول بالقدر — أى نفيه وعدم الاعتقاد به .

وفى ذلك الزمان حدثت بدعة **المرجئة**(١٥) حين قالوا لا يضر مع الايمان معصية ، كما لا ينفع مع الكفر طاعة .

ثم طالعت **المعتزلة** مثل أبى الهذيل العلاف والنظام ومعمر والجاحظ — كتب الفلاسفة فى زمن المأمون واستخرجوا منها ما خلطوه بأوضـــاع الشرع

---

(١٥) ينظر كتابنا « قواعد المنهج السلفى فى الفكر الاسلامى » .

مثل لفظ الجوهر والعرض والزمان والمكان والكمون ونحو ذلك . **وأول مسألة اظهروا القول بخلق القرآن .**

وحينئذ نسمى هذا الفصل علم الكلام .

وتلت هذه المسألة مسائل الصفات مثل العلم والقدرة والحياة والسمع والبصر(١٦) .

وعندما ظهرت عقائد المعتزلة التى اعترفوا بها عن عقيدة اهل السنة والجماعة ، اضطر علماء الحديث والفقهاء للرد عليهم واعادة الامور الى نصابها .

وإننا نعثر على آراء أهل الحديث منبثة فى كتبهم للرد على المتكلمين فى المسائل التى اثيرت كالحديث عن الصفات — والقدر والتوحيد والاسماء وغيرها من اصول المسائل التى شغلت اذهان المسلمين . كما حرصوا على استمداد آرائهم من اقوال الصحابة والتابعين فى هذه الموضوعات — اذ لا يغيب عن ذهن الباحث **ان منهج المحدثين كفل لهم الاحتفاظ بالنصوص المنقولة عن السابقين جيلا بعد جيل**

وفى الادوار التى تضخمت فيها الخلافات كتب علماء الحديث فى هذه الموضوعات التى تطرق اليها علماء الكلام ، ومن بين هذه المصادر الهامة كتاب (**خلق افعال العباد**) للامام البخارى و (**الرد على الجهمية والمعطلة**) للامام احمد **والرد على بشر المريسى** للامام الدارمى وغيرهم ، بحيث نستطيع القول بأن تيار السمع او النقل ، **ارتبط بتيار العقل او الدراية** ، اى بعبارة اخرى امتد اهتمام علماء الحديث والسنة الى المسائل التى **اثيرت بواسطة المتكلمين وغيرهم** ، ووقفوا منها **موقفا عقليا ايضا** ، فالتقى عندهم **النقل مع النظر** ، فهم وان كانوا فى الغالب اهل رواية ، فقد اثبتوا ايضا بانهم أهل دراية لأن الكتاب امر **بالتفكير والتدبر** ، وكانوا يحرصون على الارتباط بالصحابة ومواقفهم من هذه الاصول الهامة فى الاسلام ، وهم ورثة الانبياء الذين قال فيهم (واذكر عبادنا ابراهيم واسحق ويعقوب أولى الايدى والابصار)

---

(١٦) ابن الجوزى — ص ٩٢ — ٩٣ تلبيس ابليس .

فالايدى **القوة فى أمر الله**، والابصار فى دين الله ، فبالبصـــائر **يدرك الحق** ويعرف ، وبالقوة **تمكن من تبليغه** وتنفيذه والدعوة اليه)(١٧) .

ولقد استمسكوا بهذا المنهج النقلى العقلى ـــ ان صح التعبير ـــ وربما نجد ما يعبر عن التقاء الرواية بالدراية فى كتابات ابن تيميـــة الذى كان يلح دائما على ترديد القاعدة التى أخذ نفسه بالدفاع عنها طيلة حياته ، وهى أن العقل لا يتعارض مع النقل ، (فان الله سبحانه بعث محمدا صلى الله عليه وسلم بجوامع الكلم ، **فالكلم التى فى القرآن جامعة محيطة كلية عامة لما كان منتشرا فى كلام غيره**)(١٨) .

وكانت هذه هى مهمة علماء اهل السنة والجماعة . فما مذهبهم ؟

*** مذهب اهل السنة والجماعة :**

ربما ينسب البعض مذهب اهل السنة والجماعة الى احد ائمة الفقهاء او كلهم ، ولكنه فى الحقيقة امتدادا ومتابعة لمذهب الصحابة ، وقد أطلق عليه اسم الجماعة للتمييز وبين مذاهب المنشقين عن الجمـــاعة الاولى امثـــال الخوارج والشيعة والمعتزلة والمرجئة والقدرية .

ومذهب اهل السنة والجماعة مذهب قديم معروف قبل أن يخلق الله تعالى أبا حنيفة ومالكا والشافعى وأحمد ، فانه مذهب الصحابة الذين تلقوه عن نبيهم ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ ومن خالف ذلك كن مبتدعا عنـــد اهل السنة والجماعة ، فانهم متفقون على أن اجماع الصحابة حجة ، ومتنازعون فى اجماع من بعدهم . (١٩) .

واذا طالعنا صفحات التاريخ لمعرفة تسلسل ظهور الآراء المخالفـــة لما كان عليه اهل القرون الاولى ، فقد رأينا ـــ كما تقدم ـــ كيف خرج الخوارج وتابعتهم الشيعة باعلان آرائهم ثم القدرية فالجهمية اتبـــاع جهم بن صفوان من نفاة صفات الله عز وجل .

---

(١٧) ابن تيمية ـــ نقض المنطق ص٧٩ .

(١٨) ن . م ص١١٠ .

(١٩) ابن تيمية ـــ منهاج السنة ج١ ص٢٥٦ .

ثم وقعت المحنة الكبرى فى أوائل المائة الثالثة على عهد المأمون (المتوفى ٢١٥ هـ)واخيه المعتصم ثم الواثق ، ودعوا الناس الى التجهم وابطال صفات الله تعالى ، فلم يوافقهم أهل السنة والجماعة حتى هددوا بعضهم بالقتل ، وقيد بعضهم وعاقبوهم وابتلوهم بالرغبة والرهبة .

وندع احد معاصرى الفتنة يصف لنا وقعها على المسلمين وما كابدوه بسببها :

قال عبد العزيز المكى فى كتابه (الحيدة) :

« واستتار المؤمنون فى بيوتهم وانقطاعهم عن الصلاة فى الجماعات والجمعات وهربهم من بلد الى بلد خوفا على أنفسهم وأديانهم ، وكثرة موافقة الجهال له والرعاع من الناس على كفره وضلالته والدخول على بدعته والانتحال بمذهبه رغبة فى الدنيا ورهبة من العقوبة التى كان يعاقب بها من خالفه على مذهبه »(٢٠) .

وثبت الامام احمد بن حنبل فى هذه المحنة حتى حبسوه ثم طلبوا اصحابهم من المعتزلة بالبصرة لمناظرته فافحمهم وعجزوا امام حججه بالادلة الشرعية العقلية .

وبسبب هذا الموقف رفع الله قدر هذا الامام (فصار اماما من ائمة أهل السنة علما من أعلامها لقيامه باعلامها واظهارها واطلاعه على نصوصها وآثارها وبيان خفى أسرارها ، لا أنه أحدث مقالة ولا ابتدع رأيها ، ولهذا قال بعض شيوخ المغرب المذهب لمالك والشافعى والظهور لاحمد ، يعنى أن مذاهب الائمة فى الاصول مذهب واحد)(٢١) .

وعلى اية حال فان معيار الصحة والفساد فى المذهب لا الانباع ولكن الادلة والاقناع ، ولهذا يقرر ابن تيمية — وهو من اقوى المدافعين :

---

(٢٠) عبد العزيز بن يحيى بن مسلم الكنانى المكى : كتاب الحيدة ص٢ مطابع الشرق الاوسط — الرياض .

(٢١) ابن تيمية — منهاج السنة جـ١ ص ٢٥٧ .

وإذا قدر أن في الحنبليـــة أو غيرهم من طوائف السنة من قال أقوالاً باطلة ، لم يبطل مذهب أهل السنة والجماعة ببطلان ذلك بل يرد على من قال ذلك بالباطل وينصر السنة بالدلائل)(٢٢) .

(٢٢) منهاج السنة جـ١ ص ٢٥٧ .

الباب الثالث

نشأة الكلام في الدين وعوامل ظهوره

الفصل الأول :

- مراحل ظهور الكلام في الدين .
- عوامل نشأة المشكلات الكلامية .
- ذم السلف لعلم الكلام .

الفصـــل الاول

مراحل ظهور الكلام في الدين :

اتضح لنا مما تقدم أن النبى صلى الله عليه وسلم نهى عن النظــر فى تشابه القــرآن ، وقد أخرج الشيخان عن عائشة رضى الله عنهما ، قالت (تلا رسول الله صلى الله عليـــه وسلم هذه الآية « هو الذى انزل عليك الكتاب منه آيات محكمــات هن أم الكتــاب وأخر متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله الا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر الا أولوا الالباب) ٧ آل عمران ، قال (فاذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم) .

وقد نفذ أصحاب الصدر الاول هذا النهى واطاعوا أمر الرسول صلى الله عليه وسلم واجتنبوا تحذيراته ، فلم يظهر من يجادل ويبحث فى الآيات المتشابهة ، وعلة ذلك ــ كما يذكر ابن عباس رضى الله عنهما ــ منع وقوع الشك فى القلوب(١) .

أما عن أول من خالف هذه السنة وسأل عن المتشابه فهو رجل يقــال له عبد الله صبيغ ، جعل يسأل عن متشابه القرآن عندما قدم المدينــة ، فاستدعاه عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وسأله عن اسمه ، فلما اخبره ، اخذ عرجونا من عراجين النخل فضربه حتى دمى رأســـه . ويبدو أن الرجل كان مصمما على موقفه لانه وعد بترك السؤال ثم عاد اليه فطلبه عمر فقال (ان كنت تريد قتلى فاقتلنى قتلا جميلا ، فاذن له الى أرضـــه . وكتب الى ابىموسى الاشعرى أن لا يجالســه أحد من المسلمين)(٢) .

كذلك بالنسبة للناظر فى القدر ، روى مسلم أن الرسول صلىالله عليه وسلم خرج على الصحابة وهم يتناظرون فى القدر ، ورجل يقول الم يقل الله كذا ورجل يقول الم يقل الله كذا ؟ فكأنما فقىء فى وجهه حب الرمان فقال :

ابهذا أمرتم ؟ انما هلك من كان قبلكم بهذا . ضربوا كتاب الله بعضـــه

---

(١) صون المنطق للسيوطى جا ص٧٦ ط البحوث الاسلامية .
(٢) نفس المصدر ص٥٠ .

ببعض وانما نزل كتاب الله ليصدق بعضه بعضا ، لا ليكذب بعضه بعضا ، انظروا ما امرتم به فافعلوه وما نهيتم عنه فاجتنبوه .

وبسبب عصيان هذا الامر النبوى ظهرت القدرية — وهم نفاة القدر — فى اواخر زمن الصحابة ، وقد روى ان اول من ابتدعه بالعراق رجل من اهل البصرة يقال له (سيسويه) من ابناء المجوس وتلقاه عنه معبد الجهنى(٣) . فلما اعلن هؤلاء التكذيب بالقدر رد عليهم من بقى من الصحابة كعبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس وواثلة بن الاسقع وكان اكثرهم فى اطراف البلاد لا فى وسطها ، فكان اكثر القدرية بالبصرة والشام ، وقليل منهم بالحجاز ؛ اى ان التيارات الخارجية وجدت بغيتها فى العناصر الداخلة فى الاسلام حديثا ، والتى تستمد عقيدتها من الجهابذة العالمين بدينهم كالصحابة والتابعين .

وبدأ نفى صفات الله عز وجل بواسطة الجعد بن درهم وهو اول المتكلمين فى الصفات واعلن نفيها ، ثم تتلمذ على يديه جهم بن صفوان .

ولكن اصابع المؤرخين ومؤلفى كتب الفرق تشير الى سلسلة حلقات النافين للصفات اذ تبدأ فى حلقتها الاولى بلبيد الساحر المعاصر للرسول صلى الله عليه وسلم الذى قال بخلق القرآن ناقلا بدوره هذا القول من يهودى باليمن .

والتفت حول جهم بن صفوان (١٢٨ هـ) عدة فرق كلها تنتمى الى رأى من آرائه كانكار صفات الله تعالى ، والقول بالجبر ، وانكار رؤية اهل الجنة لله تعالى ، والقول بأن الجنة والنار يخلقهما الله بعد وانهما تفنيان بعد خلقها ، وانكار الميزان ، والشفاعة ، والكرام الكاتبين ، وعذاب القبر ومنكر

---

(٣) معبد الجهنى — وصفه الذهبى بانه تابعى صدوق فى نفسه لكنه سن سنة سيئة فكان اول من تكلم فى القدر ونهى الحسن البصرى (١١٠ هـ) عن مجالسته وقال : هو ضال مضل . قتله الحجاج صبرا لخروجه مع ابن الاشعث .
الذهبى — ميزان الاعتدال فى نقد الرجال ط الخانجى ١٣٢٥ جـ٣ ص١٨٣ .

ونكير ، الى غير ذلك مما وردت بها النصوص الثابتة . يقول الملطى بعد سرد عقائد فرق الجهمية :

(وهذا اجماع كلام الجهمية وانما سموا جهمية لأن الجهم بن صفوان كان اول من اشتق هذا الكلام من كلام السمنية(٤) ، وكانوا شككوه فى دينه حتى ترك الصلاة اربعين يوما ، وقال لا أصلى لمن لا أعرفه ثم اشتق هذا الكلام ، وبنى عليه من بعده)(٥) .

ولقد لخص وكيع بن الجراح الاعتقادات التى ذمهما السلف بقوله (القدرية يقولون الامر مستقبل وان الله لم يقدر الكتابة والاعمال ، والمرجئة يقولون القول يجزىء من العمل ، والجهمية — اتباع جهم بن صفوان يقولون المعرفة تجزىء من القول والعمل)(٦) .

وقد مرت القدرية بمرحلتين ، فى المرحلة الاولى انكروا القدر بالمعنى الوارد بالحديث فى الصحيحين عن عبد الله بن مسعود ان الله يبعث ملكا بعد خلق الجسد وقبل نفخ الروح فيه فيكتب اجله ورزقه وعمله وشقى أو سعيد .

ولكن عندما اشتهر الكلام فى القدر فى مرحلة تالية وشارك فيه كثير من النظار اصبح اغلب القدرية يقرون بتقدم العلم الالهى ، وينكرون عموم المشيئة والخلق(٦) .

---

(٤) السمنية — بعض الهند وهم الذين يجحدون من العلوم ما سوى الحسيات .

(٥) الملطى — التنبيه والرد على اهل الاهواء والبدع ص ٩٩
الجعد بن درهم : يصفه الذهبى بانه مبتدع ضال ، زعم ان الله تعالى لم يتخذ ابراهيم خليلا ولم يكلم موسى (ميزان الاعتدال ج١ ص١٩٧ ط الخانجى سنة ١٣٢٥ هـ وقال أبو حنيفة عن جهم (افراط جهم فى نفى التشبيه حتى قال انه تعالى ليس بشىء وأفرط مقاتل فى معنى الاثبات حتى جعله مثل خلقه) . ميزان الاعتدال ج٣ ص١٩٦ .

(٦) ابن تيمية — كتاب الايمان مكتبة انصار السنة المحمدية بالقاهرة ص٢٢

ويتضح لنا من العرض التاريخي أن بذور الانشقاقات بدات متناثرة وبواسطة افراد معدودين ، جوبهوا بردود مفحمة ومواقف حاسمة لبتر آثارهم حتى لا تستشرى وتنتقل عدواها الى غيرهم .

ثم بدا الاعتزال بواسطة واصل بن عطاء ١٣١ هـ وعمرو بن عبيد ١٤٨ هـ ، وتضخم بعدهما المذهب اذ جمع ما تناثر من الاقوال الآنفة في شكل نسق شبه فلسفي متضمنا الاصول الخمسة عند المعتزلة .
قال السفاريني :

وكان أول من صنف في علم الكلام والجدال والخصام مع اهل السنة والجماعة واصل بن عطاء وهو رئيس المعتزلة(٧) .

والذى نود ابرازه من هذه العجالة عن مراحل ظهور الكلام في الدين ان المشكلات ظهرت بسبب عوامل سلبية — ان صح التعبير — اى انحسارا من موجة المد الاسلامية الاولى في اصول الدين وفروعه ونظمه واخلاقياته ، ورجوعا عن النموذج المثالى الذى حققه المسلمون في عصر النبى صلى الله عليه وسلم وصحابته والتابعين بعده .

كما يتضح انها لم تبدأ من اصل اسلامي صحيح بل بدات بمخالفة الاصول المدعمة بالادلة ، والامثلة على ذلك كثيرة منها ان الاية القرآنية الآنفة التى تتناول تقسيم الكتاب الى آيات محكمات واخر متشابهات تحمل في طياتها الامر بعدم اتباع المتشابه ابتغاء الفتنة ، فجاء البعض ليضرب كتاب الله تعالى ببعض .

وكان النبى صلى الله عليه وسلم قد امر بعدم الكلام في القدر فخالفه المخالفون ، وامر بالا يسب احدا اصحابه ، فجاء الشيعة بعده فسبوا ابا بكر وعمر رضى الله عنهما .

واذن فهى لا تدل على النضج العقلى او التفكير الحر كما يصور ذلك بعض دراسات المستشرقين ، فان هذا من قبيل الخطا الشائع الذى يردده

---

(٧) شرح عقيدة السفاريني ص١٠ ط المنار ١٣٢٣ هـ .

كثير من الباحثين والعكس تماما صحيح ، ولنبحث فى عقيدة اقرب الفرق الى خطأ التفسير اللغوى — وهم المرجئة — فقد نجم خطؤهم من الجهل بمصطلحات اللغة العربية ، فزعموا ان الايمان لغة هو التصديق ، والتصديق انما يكون بالقلب واللسان ، او بالقلب فقط ، فالاعمال عندهم حسب هذا الفهم المنحرف ليست من الايمان .

ويتضح خطؤهم اذا بحثنا فى قضية الايمان ، فان الافعال تسمى ايضا تصديقا ، وهذا معنى الايمان المتواتر عن النبى صلى الله عليه وسلم . مثال ذلك ما ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال العينان تزنيان وزناهما النظر والاذن تزنى وزناها السمع واليد تزنى وزناها البطش والرجل تزنى وزناها المشى والقلب يتمنى ذلك ويشتهى والفرج يصدق ذلك او يكذبه) وكذلك قال اهل اللغة وطوائف من السلف والخلف قال الجوهرى: الصديق الدائم التصديق الذى يصدق قوله بالعمل .

اضف الى ذلك ما يلى :

ا — من مضى من سلفنا لا يفرقون بين الايمان والعمل ، العمل من الايمان والايمان من العمل ، وهذا معروف ايضا عن غير واحد من السلف والخلف انهم يجعلون العمل مصدقا للقول ورووا ذلك عن النبى صلى الله عليه وسلم .. فقد سال ابو ذر النبى صلى الله عليه وسلم من الايمان فقال (الايمان الاقرار والتصديق بالعمل) ثم تلا (ليس البر ان تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب) الى قوله (واولئك هم المتقون) .

ب — وروى عن على بن ابى طالب انه قال : ان الايمان يبدو لمظة بيضاء فى القلب فكلما ازداد العبد ايمانا ازداد القلب بياضا ، حتى اذا استكمل الايمان ابيض القلب كله . وأن النفاق يبدو لمظة سوداء فى القلب فكلما ازداد العبد نفاقا ازداد القلب سوادا حتى اذا استكمل النفاق اسود القلب ، وايم الله لو شققتم عن قلب المؤمن لوجدتموه ابيضا ، ولم شققتم عن قلب المنافق والكافر لوجدتموه اسودا . وقال ابن مسعود : الغناء ينبت النفاق فى القلب كما ينبت الماء البقل .

ج — عرف الحسن البصرى الايمان بقوله (ليس الايمان بالتحلى

ولا بالتمنى ولكنه ما وقر فى القلوب وصدقته الاعمال) (٨) .

لم يكن الكلام فى الدين اذن تطورا من البسيط الى المركب ، او من الادنى الى الاعلى ، بل كان نكوصا من الكمال الى النقصان ، وعصيانا للاوامر ، وانشقاقا عن الجماعة . وهذا ينقلنا الى بحث عوامل نشأة المشكلات الكلامية .

عوامل نشأة المشكلات الكلاميـة :

من استقراء المراحل التى مر بها الجدل فى اصول الدين واثارة التساؤلات وفتح باب المناقشات فى القضايا المنهى عن الجدال فيها ، نستقرىء عوامل نشأة المشكلات الكلامية .

ونكاد تجمع المصادر التاريخية على تعليل ظهور الجدل بعوامل خارجية ، اى من قبيل الغزو الثقافى الاجنبى . وتشير اصابع المؤرخين الى هذا المصدر ، حيث هبت منه اعاصير النزاع بعد أن كانت العقيدة راسخة فى النفوس والقلوب ، حيث امدت المسلمين الاوائل بطاقات هائلة فمضوا فى طريقهم لتحقيق الغاية وجعل كلمة الله هى العليا .

ولكن الجدل المنهى عنه ادى الى انحسار حضارة المسلمين فعكفوا يتجادلون ويتناحرون ، فوقفت عجلة المد الاسلامى وتقوقع المسلمون ، فسهل على اعدائهم غزوهم فى ديارهم .

ويصف ابن تيمية المظاهر الطارئة على المسلمين بقوله (وكان المتناظرون فيما مضى يتناظرون فى معادلة الصبر بالشكر ، وفى تفضيل احدهما على الاخر ، وفى الوساوس والخطرات ، ومجاهدة النفس ، وقمع الهوى فقد صار المتناظرون يتناظرون فى الاستطاعة والتولد والطفرة والجزء والعرض والجوهر ، فهم دائبون يخبطون فى العشوات ، قد شغفت بهم

---

(٨) ابن تيمية : الايمان ص ١٧٢ — ١٧٤ — ١٧٩ .

الطرق وقادهم الهوى بزمام الردى) (٩) .

وهذا هو الدرس التـاريخى الذى وعاه شـيوخ الحديث والسنة ، فحذروا من تضييع الجهود فى محاولات جدلية سـقيمة ، وراوا فى تشقيقات المتكلمين بدعا من ناحية ، واستهلاكا لطـاقة تبذل فيما لا طـائل وراءه من ناحية اخرى ، حيث جاء القرآن باكمل المناهج فى الحجاج العقلى ، وفرغ المسلمين الى العمـل .

وقد رأينا أهل افضل القـرون كيف استمسـكوا بالمنهج الاسـلامى الصحيح فى العقيدة حيث يرى شيخ الاسلام ان افضل الخـلق بعدهم هم المقتدون بعلم وعمل الصحابة وتتحقق هذه المتابعة بصفة خاصـة بواسطة علماء الحديث ، فهم اهل الاثار النبوية وهم اهل العـلم بالكتاب والسنة فى كل عصر ومصر (١٠) .

وبمتابعة الازمنة بعد عصر الحجاج نرى انه كلما بعد الزمن وقل عدد الصحابة والتابعين بعدهم ، بدات البدع تظهر تدريجيا ، لان نور النبوة فى الاصل كان بمثابة الشمس الساطعة التى طمست الكواكب وعاش السلف فيها برهة طويلة ثم حجب بعض نور النبوة (١١) .

وبانقضاء دولة الخلفاء الراشدين ، وتولى زمام الحكم من هم اقـل منهم مرتبة ظهـر اثر ذلك فى بعض قضـايا اصول الدين متلمسا ما اثارة الخوارج . ولما كان ظهورهم فى اواخر حكـم على بن ابى طالب رضى الله عنه مرتبطا بالخـلافة او الامامة الكبرى فقد تبعـه بدع الاحكام والاعمال والاسـماء .

ثم ظهر الملـك على يد معـاوية ، ثم الامارة الى ابنه يزيد وانشـق المسلمون على اثر مقتل الحسين بن على بالعراق وفتنة الحرة (سنة ٣٧ هـ)

---

(٩) ابن تتيية (الاختلاف فى اللفظ والرد على الجهميـة والمشبهة) — كتاب عقائد السـلف ص ٢٢٤ تحقيق د النشار وعمـار الطالبى منشاة المعارف بالاسكندرية ١٩٧١ م .

(١٠و١١) ابن تيمية : بغية المرتاد ص ١١٢ .

بالمدينة وقيام عبد الله بن الزبير بمكة فى وجه بنى امية والمختار بن أبى عبيدة وغيره من الشيعة بالعـراق .

وعلى اثر هذه الاحداث الجسام ، برزت الخوارج والشيعة والقدريه والمرجئة ، فقد قام بعض الصحابة آنذاك بالرد على هذه البدع والوقوف فى وجهها وهم على سبيل المثال : عبدالله بن عباس (٦٨هـ) . وعبـد الله بن عمر (٧٣هـ) ، وجابر بن عبد الله (٧٨هـ) وابو سعيد الخدرى (٦٤هـ) ، وغيرهم .

ويضرب ابن تيمية مثلا على ذلك بأن القدرية لم يجسـروا على الكلام فى الذات أو الصفات الالهية الا فى اواخر صغار التابعين ، او فى أواخر الدولة الاموية ، وكانوا قبل ذلك يقتصرون على الكلام فى الاحكام والوعد والوعيد .

ويتضح مما سبق أن الحياة الدينية تاثرت فى بداية العصر العبـاسى بعاملين : أحدهما ، ظهور سلطان الموالى من غير العرب لا سيما العناصر الفارسية وانحسار الامر عن ولاية العرب . والعامل الثانى ، وهو ترجمة كتب الفرس والروم والهند . ومما ساعد على قسوة تاثير هذين العاملين ان صحابة الرسول صلوات الله عليه كانوا قد ماتوا عند انتهاء خلافة الراشدين فيما عدا القليل ، وكذلك الحال بالنسـبة للتابعين اذ مات اغلبهـم فى زمن امارة ابن الزبـير .

أما تابعو التابعين فقد انقضى عصرهم فى اواخر الدولة الامويه ولهـذا لم تجد التيارات الجـديدة التى تسللت الى المسلمين من يقف فى وجههـا لصدها مثلما فعل الخلفاء الراشدون والصحابة فى عصرهم من قبل .

واستنتج شيخ الاسلام من هذه الاحـداث ظهور أمور ثـلاثة هى : الرأى والكلام والتصوف »(١١ أ) .

واغلب الظن ، من جهة اخرى ان شيخنا قصد ترتيب ظهور الرأى ثم

(١١ أ) ابن تيمية — كتاب السلوك ص ٣٥٨ . مد الرياض

ثم الكلام ثم التصوف بتسلسل زمنى على اثر الترجمة خاصة وانه يتكلم من المأمون (٢١٨هـ — ٨٣٣م) الذى شجعها — والمعروف — كما يذكر صاحب الفهرست خالد بن يزيد بن معاوية (٨٥ — ٧٠٤ م) الذى كان يسمى حكيم آل مروان « هو اول من تكلم بالترجمة » . يقول ابن النديم " كان فاضلا فى نفسه وله همة ومحبة للعلوم ، خطر بباله الصنعة فأمر باحضار مجموعة من فلاسفة اليونانيين .. وامرهم بنقل الكتب فى الصنعة من اللسان اليونانى القبطى الى العربى،وهذا اول نقل كان فى الاسلام من لغة الى لغة)(١١ب) .

ونستدل من تعيين الشيخ السلفى للمأمون دون غيره ، ان هذا الخليفة اشتهر بالميل الى التشيع والاعتزال ، وفضلا عن مشكلة خلق القرآن التى ارتبطت فى الاذهان ، فان الباحث عن اسباب ذلك يجده دون كبير مشقة فى كتب التاريخ التى تكاد تتحد فى وصفها له .

يقول ابن الاثير (انه كان شديد الميل الى العلويين والاحسان اليهم)(١١جـ) ذكر ابن كثير أن المأمون لما ابتدع التشيع والاعتزال فرح بذلك شيخه بشر المريسى (١١٨ هـ — ٨٣٣ م). وكان من شيوخ الاعتزال(١١د) .

يضيف صاحب « تاريخ بغداد » انه كان الى حد غير قليل تحت سلطان الفرس ووزرائهم(١١و) كان شيخ الاسلام حاول بذلك أن يثبت أن الترجمة انتجت اثارها الكاملة فى عصر المأمون — أى فى وقت متأخر من عصر الصحابة والتابعين — للاسباب التى تذكرها المصادر السالف الاشارة اليها.أو بعبارة اخرى انها وجدت صدى عنده وميلا لتقبل نتائجها . ولكن تحميل الترجمة فى النتائج التى حدثت فى العالم الاسلامى حينذاك ليس دليلا على كراهية ابن تيمية للترجمة فى ذاتها ولكن بسبب تشجيع المأمون للاتجاهات الفلسفية والكلامية .

(١١ب) ابن النديم : فهرست ص ٣٣٨ .

(١١جـ) ابن الاثير : تاريخ الكامل جـ ٦ ص ١٧٩ .

(١١د) ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٠ ص ٢٧٩ .

(١١و) ابن الخطيب : تاريخ بغداد جـ ٦ ص ٧٥ .

هنالك اذن عامل داخلي يتمثل في بدء حركة انحســـار الوازع الديني والخروج عن الاصول والقواعد المستقرة الثابتة . ولكن الحركة على ضالتها في البداية حوصرت وعولجت بحسم . ثم اخذت في الازدياد باتساع رقعــة العالم الاسلامي وشيئا فشيئا ضعفت المقاومة بسبب موت الصحابة وتفرقهم في الامصار ، ثم موت كبار التابعين ايضا .

ويتضح اثر العامل الخارجي بشكل أشمل اذا بحثنا ظروف الترجمــة وأدوارها وآثارها ، فالمشهور أن أول ترجمة للكتب اليونانية الى العــربية تمت في عهد خالد ابن يزيد بن معاوية (توفي ٨٥ هـ) وكانت في بداية — فيما يبدو — قاصرة على العلوم اذ كان يزيد هذا مولعا بكتب الكيمياء(١) .

ولكن عملية الترجمة بدأت على نطاق واسع بواســـطة يحيى بن خالد بن برمك (متوفى ١٩٠ هـ) في خلافة الرشيد .

وواقعة الترجمة لا تخلو من بعض المعاني التي يحسن بالباحث أن يتأملها حيث قيل ان يحيى بن خالد هذا كان زنديقا . وانه صانع ملك الروم وأرسل اليه الهدايا طالبا نقل الكتب اليونانية — وكانت مخبأة تحت بناء — فجمع الملك البطارقة والاساقفة والرهبان طالبا منهسم المشورة والرأي . وكان من رأيه أن الخير في حبس الكتب عن رعيته من النصـــارى لانه خاف عليهم منها اذ قد تكون سببا لهلاك دينهم . ويفضــل ارسالها الى خـــالد البرمكي لكي يبتلى بها المســـلمون ويسلم رعــاياه من شرها . فوافقــه المجتمعون على ذلك فنفــذه .

واهتم بها يحيى بن خالد البرمكي ، فجعــل المناظرة في داره والجدال فيما لا ينبغي ، فيتكــلم كل ذي دين في دينــه . ويجادل [illegible] [illegible] على نفســه (٢) .

وتشير رواية اخرى الى ان المأمون (٢١٨ هـ) هو الذي [illegible] من صاحب جزيرة قبرص خزانة كتب اليونان ، وكانت [illegible]

---

(١) السيوطي : صون المنطق ١٢/١ .
(٢) ن . م ص ٤١ .

احد فاشار عليه خواصه باجابة المأمون الى طلبه بهدف احداث الفتن بينهم (فما دخلت هذه العلوم على دولة شرعية الا افسدتها واوقعت بين علمائهـا) (١٣) .

ومن المحتمل أن الرواية قد حدث فيها بعض الاضافات الا انه من الثابت ان المأمون قد شجع عملية الترجمة والخوض فى علم الكلام ، ولذا فان ابن تيمية كان يعلق على ذلك بقوله (ما اظن أن الله يغفل عن المأمون ولابد ان يقابله على ما اعتمده مع هذه الامة من ادخاله هذه العلوم بين اهلهـا) (١٤) .

ويلحظ الباحث اجماع مؤلفى كتب الفرق على ارجاع ظهور المشكلات الكلامية الى تيار خارجى ، ولا يمكن أن يكون هذا الاجماع الا صدى لحقيقة تاريخية ثابتة امامهم فنقلوها نقلا متواترا بعضهم عن بعض .

والعبارة المذكورة فى كتب الفرق والتاريخ تكاد تتشابه فتذكر اسماء من اثار المشاكل والمتبع لها وناقلها الى محيط الثقافة الاسلامية فتذكر (ان البدع نشئت اصلا بعد القرون الثلاثة وان كان قد نبع اصلها فى اواخر عصر التابعين ، فان اصل مقالة نفى صفات الله تعالى — اى التعطيل للصفات — انما هو مأخوذ من تلامذة اليهود والمشركين وضلال الصابئين ، فان اول من حفظ عنه انه قال هذه المقالة فى الاسلام هو الجعد بن درهم واخذها من الجهم بن صفوان واظهرها فنسبت اليه ، وقد قيل ان الجعد اخذ مقالته عن ابان بن سمعان ، واخذها ابان عن طالوت بن اخت لبيد بن الاعصم اليهودى الساحر الذى سحر النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان الجعد هذا فيما قيل من اهل حران وكان فيهم خلق كثير من الصابئة والفلاسفة بقايا اهل دين النمرود الكنعانيين الذين صنف بعض الساحرين فى سحرهم . والنمرود هو ملك الصابئة اذ ذاك الا قليلا منهم على الشرك ،

---

(١٣) ن . م ص ٤١ .
(١٤) ن . م ص ٤٢ .

وعلماؤهم الفلاسفة .. وكثير من الصابئة أو أكثرهم(١٥) كانوا كفارا ومشركين وكانوا يعبدون الكواكب ويبنون لها الهياكل ومذهب النفاة الذين يقولون ليس له صفات الا سلبية او اضافية او مركبة منهما وهم الذين بعث سيدنا ابراهيم خليل الرحمن اليهم فيكون الجعد اخذ عقيدته عن الصائبة واخذها الجهم أيضا — فيما ذكره الامام أحمد رضى الله عنه — عنه — وعن غيره وكذلك ابو نصر الفارابى دخل حران وأخذ عن فلاسفة الصابئة تمام فلسفته لما ناظر السمنية فرجعت اسانيد الجهم الى اليهود والصابئين والمشركين والفلاسفة الضالين . اما من الصابئين وأما من المشركين . فلما عربت الكتب الرومية زاد البلاء مع ما القى الشيطان فى قلوب اهل الضلال . ولما كان بعد المائة الثانية انتشرت هذه المقالة التى كان السلف يسمونها مقالة الجهمية بسبب بشر بن غياث المريسى وذويه) (١٦) .

وقد ارخ المسعودى لمراحل انتقال المدارس الفلسفية ايام اليونان من اثينا الى الاسكندرية ثم الى انطاكية ثم الى حران ، متتبعا انتقالها الى العالم الاسلامى ذاكرا الافراد المهتمين بها ، مبينا ان مجلس تعليم الفلسفة انتهى فى أيام المقتدر ، وابراهيم المروزى ثم الى ابى محمد بن كرنيب وابى بشر متى بن يونس تلميذى ابراهيم المروزى .

ثم علق المسعودى بعد هذا بقوله :

(وعلى شرح متى لكتب ارسطاليس المنطقية يعول الناس فى وقتنا هذا — توفى المسعودى عام ٣٨٥ هـ — وكانت وفاته ببغداد فى خلافة الراضى ، ثم الى ابى نصر محمد بن محمد الفارابى تلميذ يوحنا بن حيلان وكانت وفاته بدمشق فى رجب سنة ٣٣٩ هـ) (١٧) .

---

(١٥) وان كان الصابى قد لا يكون مشركا بل مؤمنا بالله واليوم الاخر كما قال تعالى (ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الاخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) البقرة .

(١٦) شرح السفارينى جـ ١ ص ٢٠ — ٢١ .

(١٧) المسعودى : التنبيه والاشراف ط القاهرة ١٣٥٧ هـ — ١٩٣٨ ص ١٠٦ تصحيح ومراجعة عبد الله اسماعيل الصاوى .

ويبدو أننا اذن أمام غزو ثقافى منظم يريد الكيد للاسلام واهله ، جوبه فى بدايته بمقاومة شديدة أيام الصحابة والتابعين كمـا ظهر لنـا آنفا : ثم ازداد على اثر موت المدافعين الاول ، وقد ثبت ان خلفاء بنى امية قـاوموا هذه التيارات بشدة ، قال القيروانى (رحم الله بنى امية لم يكن فيهـم قط خليفة ابتدع فى الاسلام بدعة) (١٨) .

اما دولة بنى العباس فقد قامت على اكتاف الفرس ، وربمـا حدثت عملية الغزو من جراء فشلهم فى هزيمة المسلمين فى ميادين القتال فخاضوا معهم هذه المعارك الثقافية لمحاولة تقويض العقيدة ، وهذا ما ذهب اليه ابن خلدون فى مقـدمته .

وقد ضخم من اثر ظهور الموالى عامل الجهل باللغة العربية واسرارها واصطلاحاتها وعدم فهم لسـان العـرب الجارى عليـه نصوص القـرآن والسنة ، اذ ارجع الامام الشافعى القول بخلق القرآن ونفى الرؤية وغـير ذلك من المسائل الى الجهل بالعربية ، وكان الحسن البصرى يقول (انمـا اهلكتكم العجمة)(١٩) .

وازاء هذا كله ، ذم السـلف علم الكلام المبتـدع ، والى القـارىء اسباب ذلـك .

ذم السـلف للكـلام :

تبين لنا مما تقدم ان المسلمين الاوائل من الصحابة والتابعين عارضوا الانشقاقات التى احدثها البعض ، واظهروا معارضتهم لهذه البدع الطارئة وهى فى جوهرها كانت نوعا من انواع الغزو الثقافى الزاحف من حضـارات وديانات اخرى كان المجتمع الاسلامى منذ نشأته فى المدينـة المنورة محصنا ازاءها ، اذ كان الوحى يتنزل على الرسـول صلى الله عليه وسـلم وكان الصحابة يتلقـون منه كل ما يحتـاجونه فى حياتهم الفـردية والاجتماعية

---

(١٨) السيوطى : صون المنطق جـ ١ ص ٤٢ .

(١٩) نفس المصـدر ص ٥٦ .

ويستفسرون عما يعن لهم فى العقيدة والعبادات والمعاملات . كما سألوا عن المسائل الغيبية وعرفوا الاجابات عنها من النبى صلى الله عليه وسلم كصفات الله سبحانه وتعالى والحياة الاخرة والجنة والنار والعذاب والعقاب والملائكة والجان وغير ذلك من أمور الغيب .

والبدعة اصطلاحا هى (التعدى فى الاحكام والتهاون بالسنن واتباع الاراء والاهواء وترك الاقتداء والاتباع) (٢٠) .

وفى ضوء هذا التعريف ، يصبح اسباب ذم السلف للكلام ورفضهم لما ادخله المتكلمون على البيئة الثقافية الاسلامية من تساؤلات وما يحتوه من قضايا وما استخدموه من مصطلحات طارئة .

ويمكن أن نستخلص هذه الاسباب فى ضوء معرفة حقيقة الصراع الذى بدأ فى ميدان العقيدة بين الاسلام والتيارات التى اخذت تهب من الخارج والتى استهدفت زعزعة العقيدة فى النفوس باعتبارها الحصن المكين الذى تمكن به الصحابة والتابعون وتابعوهم من خوض المعارك الكبرى المنتصرة فى تاريخ الاسلام .

وتتلخص اسباب ذم علم الكلام :

اولا ــ لقد أغنى الله تعالى المسلمين بكتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم عن الالتجاء الى مصادر اخرى لمعرفته عز وجل او اثبات توحيده وصفاته واسمائه الحسنى ، فقد ارسل الرسول (بشيرا ونذيرا وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا) مع تكليفه بالتبليغ (يا أيها الرسول بلغ ما انزل اليك من ربك وأن لم تفعل فما بلغت رسالته) المائدة ٣ و ٦٧ .

وقد ادى الرسول صلى الله عليه وسلم الامانة وبلغ الرسالة على خير وجه واشهد المسلمين على اتمام التبليغ فى خطبة الوداع (الا هل بلغت؟) وكمل اتمام الدين بقوله تعالى (اليوم اكملت لكم دينكم) المائدة ٣ .

وهذا يثبت ان الرسول صلى الله عليه وسلم لم يترك امرا من امور

---

(٢٠) السيوطى : صون المنطق جـ ١ ص ١١٧ .

الدين — اصوله وفروعه — الا وقد اوضحها واتم بيانها ، بل انه كان يبلغ كل أوامر ربه عز وجل في التسو واللحظـة ولا يؤخرها (ومعلـوم أن امر التوحيد واثبات الصانع لا تزال الحاجة ماسة اليه ابدا في كل وقت ومكان ، ولو أخر عن البيان لكان التكليف واقعا بمـا لا سـبيل للنـاس اليه ، وذلك فاسد غير جائـز) (٢١) .

ثالثا — يرى علماء السلف انه بمسائله واصطلاحاته وأبحاثه يعد من قبيل فضول الكلام الذى لا يفيد الاشتغال به بل ان العمل به مضيعة للجهد والوقت بعد ان كفانا الله عز وجل مؤونة المكشوف على مسائله بمـا بين لعباده ما يحتاجون اليه في عاجلهم وآجلهم (وأوضـح لهم سـبيل النجـاة والتهلكة وأمر ونهى وأحل وحرم وفرض وسن) هذا فضلا عن اننا نعثر في الاحاديث النبوية على توضيحات لكافة المباحث التى خاض فيها المتكلمون ، فقد اشتمل الحديث على معرفة (اصول التوحيد وبيـان ما جاء من الوعد ووجوه الوعيد وصفات رب العالمين تعالى عن مقالات الملحدين والاخبار عن صفات الجنة والنار وما اعد الله فيهما للمتقين والفجـار وما خلق اللـه في الارضين والسموات من صنوف العجائب وعظيم الايات وذكر الملائكة المقربين ونعت الصافين والمسبحين) (٢٢) .

رابعا — خشية الفتنة بسبب استخدام المصطلحات الكلامية التى لم يأتهـا الكتاب والسـنة اذ لم يدع الرسول صلى الله عليـه وسلم الناس في امر التوحيد الى الاستدلال بالاعراض والجواهر فضلا عما ادت اليه هذه المصطلحات من منـازعات وخصومات بين المسـلمين لعدم الاتفـاق على مدلولاتها وتركيباتها فاصبح لكل فرقة تشقيقات كلاميـة تختلف عن غيرها وظهرت الفرقة بين صفوف المسلمين (٢٣) .

والحق ان اسباب ذم السلف لعلم الكلام لا يمكن تقديرها حق قدرها

---

(٢١) صون المنطق جـ ١ ص ١٤١ .
(٢٢) نفس المصدر ص ١٩٤ .
(٢٣) نفس المصدر ص ١٤٢ .

وفهمها على وجهها الصحيح الا اذا وضعناها فى اطار الصراع الثقافى الحادث فى المجتمع الاسلامى عقب وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم وصاحبيه وانقضاء دولة الخلافة الراشدة .

ونضرب على ذلك أمثلة من واقعنا المعاصر . فنتساءل : هل يجرؤ احد فى بلاد الاتحاد السوفيتى مثلا حيث النظام الماركسى القيام بالدعوة لنظم الغرب فى الحكم والاقتصاد ؟ انه بلا شك سيواجه بتهمة الخيانة العظمى فاما يعدم أو يطرد من بلاده شر طرده . كذلك فان اية حركة تقوم فى الغرب لمحاولة المساس بالنظام الديمقراطى فى الحكم او الاقتصاد الحر فى الاقتصاد الا وتواجه بمقاومة عنيفة من الراى العام .

بمثل هذا نستطيع تقريب فهم ما حدث من معارضة للمتكلمين فى عصر الحضارة الاسلامية الزاهية ، حيث تأكد لعلماء الحديث والسنة بطريقة لا تقبل الشك ويشهد بها التاريخ ويقرها الواقع الماثل امامهم أن عقيدةالاسلام وعباداته ونظمه واخلاقياته قد تحققت كاملة فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم والخلافة الراشدة فكانت دولة عالمية تشع نورا بقيمها وعلومها ومثلها العليا ، فكان العلماء حريصين على بقاء هذه الدولة العظمى بأركانها جميعا ، واهم اركانها بلا شك هى العقيدة باصولها المدعمة بالادلة من الكتاب والسنة ، فلما جاء المتشققون لاثارة اللغط حول ما بنى واكتمل وظهرت آثاره ، رأوا انه بمثابة معول هدم لن يتوقف الا بعد ان يتحول البناء الى ركام .

ونحن نرى — من زاوية التشابه مع نظرتنا المعاصرة التى بيناها آنفا — نرى أنهم كانوا محقين فى معارضتهم . وسيزداد اقتناعنا كلما مضينا فى بحثنا .

علم الكلام بين الاصالة والابتداع

ان من سـمات منهجنـا فى هذه الدراسة النظـر الى علم الكلام من اتجـاهين :

احدهما الاتجاه الذى يتبناه شـيوخ المعتزلة والاشـاعرة بمفـاهيم ومصطلحات بعضها الاسلامى والآخر مستعار من ميتا فيزيقا اليونان كالقول بالقديم والمحدث والجوهر والعرض وغيرها .

والاتجاه الثانى الذى يتبنـاه علمـاء الحديث والسنة ويتلخص فى ان القرآن الحكيم قد استوفى القضـايا التى خاض فيها المتكلمون .

وتظهر اصالة المنهج عندهم اذا استخلصنا من آرائهم السمة الظاهرة المصطبغ بها نتاجهم ، ويتضح ذلك بصفتين ظاهرتين :

الاولى : الاستناد على طرق الاسـتدلال القرآنية لتدعيم نقدهم للنظريات الكلامية فى دوائر الفرق الكلامية المعروفة .

الثانية : رفضهم تقسيم دائرة الاسلام الكبرى الى دوائر متفرقة ،لانه ينبغى فى رايهم معرفة الاسلام واعتناق عقيدته بمنهج متكامل ، لانه شامل : يحدد الغرض من حياة الانسان مخاطبا عقله ، ومغذيا وجدانه وراسـما له طريق السلوك الصحيح المؤدى الى سعادة ممتدة من حياة الدنيا المؤقتـة الى حياة الآخرة الخالدة .

وفى هذا المعنى نجد ابن تيمية يرفض تجزئة الاسـلام ، فالصوفية فى رايه بنوا امرهم على الارادة وحدها ، والمتكلمون بنوا امرهم على النظـر وحده . ولكن لابد من أن تكون الارادة عبادة الله تعـالى وحده بما امر ، وأن يكون النظر فى الادلة التى دل بها الرسول صلى الله عليـه وسلم ، وهى آيات الله تعالى(٢٤) .

ويوجز نقده لاهل الكلام بقوله (انهم قصروا عن معرفة الادلة العقلية

---

(٢٤) ابن تيمية ـــ معارج الوصول الى أن معرفة الدين وفروعه قد بينها الرسول ص١٨ .

التي ذكرها الله في كتابه وعدلوا عنها الى طرق أخرى مبتدعة)(٢٥) بينما الحقيقة المؤكدة أن القرآن (جعله الله شفاء لما في الصدور ، لكن قد تخفى آثار الرسالة في بعض الامكنة والازمنة ، حتى لا يعرفون ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، اما أن لا يعرفون اللفظ ، واما أن يعرفوا اللفظ ولا يعرفون معناه)(٢٦) .

فما علم الكلام عند المتكلمين ؟

أورد التهانوى الآراء التي قيلت في تعليل تسميته بعلم الكلام ، منها انه يورث قدرة على الكلام بالشرعيات،ومنها أن ابوابه عنونت أولا بالكلام في كذا . ومنها ان مسألة الكلام اشهر أجزائه حتى كثر فيه التقاتل كما سمى كذلك بأصول الدين لأنه الاصل الذى تنبنى عليه العلوم الشرعية . وسماه أبو حنيفة (الفقه الاكبر) لأنه الاشتغال بأصول الدين ، لا بالاحكام الفرعية العمليـــة .

ويسمى أيضـــا بعلم النظـر والاستـدلال ويسمى بعلم التوحيـد والصفات(٢٧) .

---

(٢٥) ابن تيمية منهاج السنة جـ٢ ص٦٢ .
(٢٦) ابن تيمية مجموع الفتاوى جـ١٧ ص ٣٠٦ .
(٢٧) التهانوى : كشف اصطلاحات الفنون ص٣٠ — ٣٢ .

الفصـــل الثانى :

علم الـكلام

- تعريف علم الكلام .
- علم الكلام بين الاصالة والبدعة .
- حجج المتكلمين فى الدفاع عن منهجهم .
- راى علمــاء الحديث فى هذه الحجج .

الفصل الثاني

علم الكلام

ان علم الكلام عنـد ابن خلدون (علم يتضمن الحجـاج عن العقائد الايمانية بالادلة العقلية ، والرد على المبتدعة في الاعتقـادات عن مذاهب السلف واهل السنة .

ومع انه اجاز الدفاع عن العقائد الايمانيـة بواسطة الادلة العقليـة الا انه عاد فأوضح أن المسائل الغيبية انما هي لا تقع في حيز الامكانيات التي يستطيع العقل وحده الاهتداء اليها لانها فوق طور العقل . وتحدث ايضا عن الملكة الايمانية الراسخة في النفس من أثر أداء العبادات فيقول :

(فقد يتبين لك من جميع ما قررناه أن المطلوب في التكاليف كلها حصول ملكة راسخة في النفس يحصل عنها علم اضطراري هو التوحيد وهو العقيدة الايمانية وهو الذي يحصل بها السعادة) .

ثم اخذ يحدد معالم الفكر والنطاق الذي يدور فيـه ويصف الحدود الضيقة التي لا يستطيع أن يتجاوزها ، وان الفكر عاجز عن الاحاطة بتفصيل الوجود كله — أي الوجود المطلق — لان الوجود (عند كل مدرك في بادىء رأيه منحصر في مداركه لا يعدوها فالامر نفسه بخلاف ذلك) . وان الامثـال التي يسوقها مؤرخنـا تدعم هذا الراي : فالاصم ينحصر الوجود عنـده في المحسوسات الاربع ويفقـد صنف المسـموعات ويسقط عند الاعمى صنف المرئيات .

ان هذا يثبت عجز الادراك الانسـاني عن الاحاطة بما في الوجود كله ، فما بالنا بخالق هذا الكون سبحانه وتعالى ؟

ولكن لا يعني هذا القدح في العقل بل العقل ميزان صحيح لان احكامه يقينية — ولكن بسبب ما بيناه من عجزه عن الاحاطة بالوجود — لانه أوسع نطاقا من المدارك الانسـانية أي ان العقل لا يستطيع الانسان أن يزن به أمور التوحيد والآخرة وحقيقة النبوة وحقـائق الصفات الالهية(٢٨) . وربما كان

(٢٨) مقدمة ابن خلدون ص٣٨٢ — ط دار الفكر ١٣٩٩هـ — ١٩٧٩م .

المثال الذى ضربه لنا ابن خلدون فى هذا الصدد يعد أقوى دليل فيما يقدمه من رأى دقيق لاثبات عجز العقل عن ادراك ما وراء طوره فى المسائل الغيبية اذ يقول : (وليس ذلك بقادح فى العقل ومداركه بل العقل ميزان صحيح فأحكامه يقينية لا كذب فيها غير انك لا تطمع أن تزن به أمور التوحيد والآخرة وحقيقة النبوة وحقائق الصفات الالهية وكل ما وراء طوره فان ذلك طمع فى محال ، **ومثال ذلك مثال رجل رأى الميزان الذى يوزن به الذهب فطمع أن يزن به الجبال** ، وهذا لا يدرك على ان الميزان فى احكامه غير صادق ، ولكن العقل قد يقف عنده ولا يتعدى طوره حتى يكون له أن يحيط بالله وبصفاته فانه ذرة من ذرات الوجود الحاصل منه ، وتفطن فى هذا الغلط من يقدم العقل على السمع فى أمثال هذه القضايا وقصور فهمه واضمحلال رأيه ، فقد تبين لك الحق من ذلك(٢٩) ..

وقد أشار ابن خلدون فى تعريفه الى أهم النقاط المثيرة للخلاف بين علماء الكلام فى دائرتى المعتزلة والاشاعرة ، وبين علماء الحديث والسنة مما جعلنا نرجح ان وراء هذه الاسطر قراءات متشعبة ومستوعبة لقضايا أصول الدين ووجهات النظر المتباينة حولها .

ويتضح أيضا انه أعطى الجانب النقدى اهتمامه أيضا .

لذلك لا ينبغى أن ننسى جبهة عريضة وقفت تعارض علم الكلام فى دائرة السلف من علماء الحديث على مر الاعصار وتعده من قبيل البدع الطارئة على الفكر الاسلامى ، وانه ادى الى الاضطرابات والفتن ، وفتت جهود المسلمين واجهد عقولهم فى مجال كفاه القرآن والسنة . وحتى امام وجهة النظر المدافعة عن المتكلمين بانهم دافعوا عن الاسلام فان الرأى المعارض — الذى يمثله ابن تيمية والجامع للاتجاه السلفى قبله — على العكس — يرى انهم اخفقوا فى هذه المهمة لانهم لم يستندوا فى اصولهم على المبادىء الاستدلالية القرآنية (فالمتكلمون الذى ابتدعوه وزعموا انهم به نصروا الاسلام وردوا به على أعدائه كالفلاسفة ، لا الاسلام نصروا ولا لعدوه كسروا ، بل كان ما ابتدعوه ما افسدوا به حقيقة الاسلام على

---

(٢٩) المقدمة ص٣٨٤ .

من اتبعهم(٣٠) . ومضى يذكر اسباب ذلك ودوافعه مما لا يدخل فى نطـــاق موضوعنا الآن ، وسنفصله عند الحديث عن آرائه الكلامية . ونقتصر هنا على بيانه لخطأ المتكلمين المنهجى — وهو يعبر لنا عن الاتجاه الفلسفى العام ، إذ يستند الى ضرورة طلب علم ما انزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم من الكتاب والحكمة كما فعل الصحابة والتابعون ومن سلك سبيلهم لاسيما فى أصول التوحيد والايمان — ثم بعد معرفة ما بينه الرسول ينظر فى أقوال المفكرين وما ارادوه بها متعرض على الكتاب والسنة . مع العلم بأن العقل الصريح دائما موافق للرسول صلى الله عليـــه وسلم لا يخالفـــه قط ، فان الميزان مع الكتـــاب « والله انزل الكتاب بالحق والميزان » ، ولكن قد تقتصر عقول الناس عن معرفة تفصيل ما جاء به ، فيأتيهم الرسول بما عجزوا عن معرفته وحاروا فيه ، لا بما يعلمون بعقولهم بطلانه ، فالرسل صلوات الله وسلامه عليهم تخبر بمحارات العقول لا بمحالات العقول . واذا كان هذا هو المنهج الصحيح فان المناهج المخالفة على العكس من ذلك ، فانها ناجمة عن ابتداع بدعة براى البعض وتاويلاتهم ، ثم جعل ما جاء به الرسول تبعا لها ، فيحرف الفاظه ويؤولها على وفق ما اصلوه (٣١) .

اهم موضوعات علم الكلام : —

تدور المناقشات فى أصول الدين التى يتكلم المتكلمون فيها ويتناظـــرون عليها ، حول المسائل الآتية :

أولا : الرد على الدهرية القائلين بقدم العالم فأخذ المتكلمون يبرهنون على حدوث الاجسام والدلالة على أن للعالم محدثا هو الله تعالى .

ثانيا : تنزيه الله عز وجل ، الرد على أهل الكتاب من اليهود والنصارى ودحض مزاعم القائلين بكثرة الصانعين كالمجوس ، فقد شبه اليهـــود الله سبحانه وتعالى بصفات المخلوقين وأدعى النصارى بالقول بالتثليث ، وقال المجوس باله النور واله الظلمة .

(٣٠) ابن تيمية — شرح حديث النزول ص ١٦٣ .
(٣١) ابن تيميه : مجموع فتاوى شيخ الاسلام ج ١٧ ص ٤٤٣/٤٤٤ .

ثالثا : اثبات أن الله تعالى عالم قادر حى قيــوم ، وأنه واحد ، للرد على المعطلة النافين للصفات .

رابعا : الكلام فى رؤية الله عز وجل فى الجنة ، واثباتها أو نفيها ، وأن كلام الله مخلوق أو غير مخلوق .

خامسا : البحث فى أفعال العباد وهل هى مخلوقة يحدثها الله تبــارك وتعالى أو العباد وإذا كانت الاستطاعة قبل الفعل أو معه .

سادسا : الحكم على من مات مرتكبا الكبائر ، فهــل يخلد فى النــار أو يجوز أن يرحمه الله تعالى ويتجاوز عنه ويدخله الجنة ؟

سابعا : الدلالة على النبوة بعــامة ، ردا على البراهمة وغيرهم من مبطلى النبوة ، والدلالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بخاصة .

ثامنا : القول فى الامامة ومن يصلح لها ومن لاتصلح له وهل هى قضية مصلحية تتم بأهل الحل والعقد فى الأمة أم أنها تتم بالنص ؟(٣٢) .

هذه هى المسائل المثارة فى المدارس الكلامية ، ويظهر من مصطلحاتها أنها ترتبط بمراحل تاريخيــة للمسلمين من أهم سماتها أنهم . كانوا فيهــا أصحاب الحضارة السائدة فى عالمهم .

والآن ، حلت مشكلات أخرى ، فأصبح من الضرورى أن يجابهها الفكر الاسلامى بطرق ملائمة لثقافة العصر وحضارته . فاذا صورنا العالم الاسلامى أيام الاشتباك العقلى مع خصوم الاسلام ، فانه من الواضح انه كان مهاجما ، يملك فى يديه العناصر الحضــارية الاسمى ، ثم انحسرت موجة الحضــارة وانقلب العالم الاسلامى مدافعا بعــد أن كان ممسكا بزمام الامور مرهوب الجانب مسموع الكلمة(٣٣) .

والنظرة العامة لتاريخنا المعاصر تجعلنا ندرك صحة ما نذهب اليه ، فقد اتخذ الغرب موقف المهاجم منذ شن نابليون هجــومه على الشرق الذى

---

(٣٢) الخوارزمى — مفاتيح العلوم ط المنيرية ص ١٧ — ١٨ ط ١٣٤٢هـ
(٣٣) باول شمتز — الاسلام قوة الغد العالمية ترجمة الدكتور محمــد شامة ص٦٤ .

بدأ فى التمزيق حينئذ بالغا الذروة فى الحرب العالمية الاولى حيث انهار النظام الذى كان قائما فى ظل الخلافة العثمانية .

وتجددت المشاكل امام الفكر الاسلامى الذى أخذ يجابهها بأساليب جديدة نتيجة من ناحية لمقاومة الاستعمار ومقاومة المذاهب والبحوث الفكرية التى خلفها بمعاونته فى تمكين سلطته فى رقعة البلاد الاسلامية(٣٤) . ومن ناحية اخرى أصبح من واجب العلماء التعريف بالاســـلام بصورته الشاملة كدين وحضارة وبعث النشاط فى قيمه العليا ــ ســـواء فى حقائقها الميتافيزيقيـة او انظمتها التشريعية والاجتماعيـــة والسياسية ــ أو فى قيمهـا الانسانية الاخلاقية فى هذا العصر المصطبغ بالتقدم العلمى المادى ، الذى عزل الانسان عن القيم الروحية التى غذته بها الاديان .

ومهما بلغت العلوم فى تقدمها وازدهارها ، فليس لها أن تعترض طريق الدين . وقد أصبح هذا الاستدلال فى غاية القوة حيث أن العلماء اعترفوا فى هذا القرن بأن العلوم المادية لا تعطى الا علما جزئيا عن الحقـــائق(٣٥) ومن جانب آخر فقد اضطر العلماء الى الانحناء والخضوع امام آلاء الله عز وجل ، والاقرار بأن الزهو بالعلم والاكتشافات العلمية كان تعبيرا عن قصـور فى ادراك الانسان لمدى قدرته ازاء سنة الله الكونية ثم اظهرت الاكتشافات أن الانسان لا يستطيع اكتشاف قوانين حياته بنفسه ، وان الاشياء التى لا نطلع عليها هى أهم بكثير من التى نطلع عليها واقرارا لهذا الواقع ، اشترك نحو مائة وخمسون من كبار علماء العالم فى نشر معجم بعنوان (دائرة معارف الجهل)

موضحين الكثير من الظواهر والحقائق الانسانية والكونية التى لا تزال بدون تفسير كذلك مما يقرب عالم الغيب للاذهان الذى يشمل اصول الدين اغلب قضاياه محاولات العلماء معرفة عالم الافلاك حولنا وهومادى منظـور ولكن ابعاده وحركاته وسرعاته واعداده كلها تحير العقل وتذهله وتعجـزه عن التصور الحقيقى ــ لان هذا العـــالم أعظم وأضخم من القـــوة المتخيلة للاذهان فالانسان الذى يدرس الكون (مضطر لتغيير قيمه ومقاييسه الى هذه

---

(٣٤) محمد البهى : الفكر الاسلامى فى تطوره .
(٣٥) وحيد الدين خان : الاسلام يتحدى .

الهجوم والكتل الهائلة التى لا يستطيع ان يجد لها تشبيها معقولا لا يساعده على تصورها وفهمها(٣٦) .

النظرية النسبية :

ثم جاءت هذ ه النظـــرية لتنفى فكرة العبثيـــة عن الكون ولتثبيت ان الظواهر الكونية كلها تخضع لقوانين رياضية ثابتة(٣٧) .

حجج المتكلمين فى الدفاع عن منهجهم : —

يستند علماء الكلام فى الدفاع عن مناهجهم الى الحجج الاتية : —

الاول : ان ظهور علم الكلام فى زمن اتباع التابعين استتبعه استحسان وتم تدوينه بالكتب ، فيعد من هذا الوجه من قبيـــل البـــدعة الحســنة ، به انزاحت الشبه من قلوب أهل الزيغ وثبتت قدم اليقين للموحدين .

الثانى : ان ادلة العقول لازمة لبيان صحة اصـــول الدين وحقائقها ، لان المنهاج الصحيح فى معرفة حق الكتاب وصدق الرسول صلى الله عليـــه وسلم مستند من البراهين العقلية .

الثالث : اذا جعل اصل الدين الاتباع — لا العقل — فان ذلك مخالفة للكتاب لان الله تعالى ذم التقليد فى القـــرآن ، وندب النـــاس الى النظـــر والاستدلال آمرا بمجادلة المشركين بالدلائل العقلية ومن تدبر القرآن ونظر فى معانيه وجد تصديق هذا الاصل(٣٨) .

الرابع : يرى القاضى عبد الجبار (٤١٥هـ) انه لما منـــع الرشيد من الجدال فى الدين وحبس أهل الكلام ، كتب اليه ملك السند يطلب من يناظره ، فوجه اليه الرشيد قاضيا لم يحسن الجدل ، فاضطر الى البحث عمن يناضل

---

(٣٦) زهير الكرمى — مقدمة كتاب (الكون والثقوب السوداء) ص١٢ سلسلة كتب (عالم المعرفة) بالكويت .
(٣٧) نفس المصدر ص٣٦
(٣٨) السيوطى — صون المنطق ص١٠٧ .

من الدين ، واخرج اهل الكلام من السجن ووقع اختياره على احدهم فبعثوا للمنـــاظرة .

تروى القصة بوقائع اخرى ، تتلخص فى اجتمـــاع الرشيد برجلين من المتكلمين فتكلما فى مسألة فقال لبعض الفقهاء ـــ احكم بينهما فقـــال هذا امر لا يعنينى فأمر له بصلة وقال هذا جزاء من لا يشتغل بما لا يعنيه ، اما الرواية الثالثـــة ، فتشير الى امره بقتل رجلين تكلما امامه فى مسألة غامضـــة فأمر بقتلهما لأنهما زنديقان .

ولكن المؤيدين لعلم الكلام يستخلصون منها جميعا عجز اهل الحـــديث عن النضـــال عن الدين لمغايرة منهجهم عن طريقـــة المتكلمين المستندة الى العقل .

راى علماء الحديث فى هذه الحجج : ـــ

يرى المعارضون ـــ ان الاختلاف ينبغى ان يفصل بين النظـــر الشرعى والكلام المبتدع ويظهر الاختلاف بينهم منهجيا قبل اى شىء آخر ، اذ يرى اهل الحـــديث ان العقل لا يوجب شيئا فلا دور له ولاحظ فى تحليل او تحـــريم او تحسين او تقبيح ما لم يرد به الوحى مستدلين على ذلك بقـــول اللـــه : (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) ١٧ الاسراء ، وقوله عز وجل (رســـلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) النساء ١٦٥ وقال تعالى حاكيا عن الملائكة فيما خاطبوا به اهل النار (الم يأتكم رســـل منكم يتلون عليكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى) الزمر ٧١ فيتبين من هذه الآية انه عز وجل اقام عليهم الحجة ببعث الرسل ، فلو كانت الحجـــة لازمة بنفس العقل لم يكن بعثة الرسل شرطا لوجوب العقوبة ، واذا تأسس الايمان من العقل لادى ذلك الى انكار دور الرســـل وكان وجودهم وعدمه بمنزلة واحدة ، او كأنهم اقتصروا فى دعوتهم على الشرائع وفروع العبادات دون اصول الدين .

وهنا يظهر صورة مختصرة للاعتراض فى صيغة تهكم ، فيرى احدهم (انه لو قال قائل لا اله الا الله محمد رسول اللـــه لم يكن مستنكرا عنـــد

المتكلمين من جهة المعنى ، فظهر فساد قول من سلك هذا)(٣٩) . وأيضا ففي الدين معقول وغير معقول والاتباع في جميعه واجب ، وأن الله تعالى هو الذي يعرف العبد ذاته فقد ثبت ان النبي صلى الله عليه وسلم قال (والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا فدل على أن الله تعالى يعرف العبد مع وجود العقل سبب الادراك والحجة لقوله عز وجل (ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون) النحل ٦٧ ، وقال (ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب) ق ٥٠ وقال تعالى مخبرا عن أصحاب النار (وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير) الملك ١٠ . فالعقل آلة لاقامة العبودية ولادراك الربوبية ، فهو آلة التمييز بين القبيح والحسن ، السنة والبدعة الرياء والاخلاص ، ولولاه لم يكن تكليف ولا توجه أمر ولا نهى(٤٠) . وقديما عبر الجنيد عن عجز العقل من ادراك الربوبية وعاب على المتكلمين منهجهم بقوله (نفس العيب حيث يستحيل العيب ، عيب)(٤١) . ولا ينكر علماء الحديث النظر لزيادة البحث وانما انكروا طريقة اهل الكلام اذ أسسوا طريقتهم على وجوب النظر اولا المؤدى الى معرفة البارى عز وجل ، بينما يثبت اتباع هذه الطريقة عن النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته والتابعين بعده(٤٢) ، وقد علمنا من سيرته انه لم يدع احدا الى الاستدلال بالاعراض والجواهر وحدوث الاجسام كما يفعل اهل الكلام(٤٢) . بل ان دراسة منهج الانبياء والرسل يجعلنا ندرك أنهم لم يشتغلوا بالنظر وتلقين اتباعهم والمستفين بهم الادلة التي هي أصول الاسلام ، لكنهم حرصوا على تعليم الشرائع والآداب . وينبغي التمييز بين لفظى التقليد والاتباع ، فالتقليد هو في قول الغير بلا حجة ، أما الاتباع فانه السير على منهاج رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد قيام الادلة : على نبوته ، المنقولة الينا بواسطة اهل الاتقان والثقات من الى ما لا يعد كثرة من المعجزات والبراهين والدلالات ، وأهملوا تعليمهم الدلائل وتعليمهم كيفية حل الشبه ، ولو فعلوا لنقل الينا تصانيفهم كما نقل الينا كتب الفلاسفة والمتكلمين من علماء المسلمين ، ويذهب

---

(٣٩) القاضى عبد الجبار — فرق وطبقات المعتزلة ص٦١ — ٦٢
(٤٠) السيوطى — صون المنطق ص١٨٠ .
(٤١) السيوطى — صون المنطق ص١٧٠ .
(٤٢) ابن خلدون — المقدمة .

ابن الوزير اليماني الى أبعد من هذا فيرى أنه لم ينقل أن اثنين اختلفا في شيء قط ، ولا كذب أحدهما الآخر ولا غلطه ولا خطـأه ، ولو كانوا اكتسبوا ذلك بالنظر لقضت العادة باختلافهم كما اشتد الاختلاف بين الفلاسفة والمتكلمين ، فان كثيرا منهم قد تفردوا بمقالات حتى قيل اجتماع العلماء فىالنظريات محال. ويضيف الى ذلك دليلا آخر ، هو انقطـاع الاذكياء في تحصيل علم الكلام ، دقيقه وجليلة ، مستفيدا بما انتهى اليه الرازى معترفا بالقصـور عن بلوغ غايته ومنتهاه ، فقرر في وصيته التي مات عليها (ولقـد اختبرت الطـرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيت فيها فائدة تساوى الفائدة التى وجدتها في القرآن العظيم)(٤٣) . ويورد القصـة التى شـنع بها أهل الكلام على المحدثين من ارسال ملك الروم الى هارون الرشيد وطلب « المناظرة » وعجز المحدث عنها وسخرية أولئك الفلاسـفة ، فقد كثر الكلام في التبجح بذلك ، وبحكاية أخرى تشبهها . والجواب عليهم في ذلك انهم أرادوا الاستدلال على انهم اجدل من المحدثين ، فذلك مسلم لهم بل مسلم لهم أنهم اجدل من رسول الله صلى الله عليـه وسلم ، لأن الكل يعلم انه لم يصـدر شيء من الكلام ومجادلة الفلاسفة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا من جميـع اصحـابه رضي الله عنهم ولا اشتغلوا بممارستهم لما رواه أهل اللجـاج . ولا يلزم من ذلك أنهم أقل معرفة بالله ولا أقل نصرة لدين الله ، ولو أحبـوا الخوض في علم الكلام واشتغلوا بتعلمه وتعليمه لبلغوا فيه ما أرادوا وعرفوا ما عرفه المتكلمـون وزادوا ، ولكنهم أعرضـوا اعراض مستغن عنـه — واستقراء السير والاخبار تدلنا على انهم لم يتبعوا هذا الاسلوب في الدعوة ، فهاهي قصـة جعفر بن أبي طالب ومهاجرو الحبشة مع النجاشي وما راجعه به خطيبهم جعفر حين قيل للنجاشي انهم يقولون في عيسى عليه السلام قولا عظيما ، فلما سألهم النجاشي عن ذلك أجابوا بكلام الله تعـالى واحتجوا به على صحة عقيدتهم وتلا جعفر على النجاشي صدر سـورة مريم حتى بكى النجاشي وأصحابه وكان ذلك سبب اسلامه ، كما أرسل صلوات الله عليه الى هرقل من كان على صفة المحدث الذى أرسله هارون وهو دحيـة بن خليفة الكلبي ولم يعلمه ما يجيب به عليهم أن أوردوا عليه ما يدق من شبههم

---

(٤٣) ابن الوزير اليماني — البرهان القاطع ص٥٥ .

وهم أهل المنطق وسائر الدقائق النظرية ، كما بعث الى النجاشى صاحب الحبشة ، والى المقوقس صاحب الاسكندرية وبعث ابامبيدة الى البحرين يعلمهم الاسلام ، وبعث عليا ومعاذا وابا موسى الى اليمن ، وبعثه الى سائر الملوك للدعاء الى الاسلام لم يضمنها شيئا من ذلك مثل كتابته الى هرقل والى كسرى . وخلا المنهاج الذى اتبعه الرسول — كما امره الله عز وجل — هو الاقتصار على مجرد الدعوة الى الاسلام والاتكال فى ايضاح الحجة على ما قد فعله الله تعالى لهم من اظهار المعانى وتقديم البينات الواضحة للعقول ، اذ قال الله عز وجل تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وبيانا لحد ما يجب عليه (فان تولوا فانما عليك البلاغ والله بصير بالعباد) أى فى الذى ببواطنهم وما اقام عليهم من الحجة ، اذ لا مطمع فى هداية المرء والجدل والحجة وكيف يطمع فيهم وقد حكى الله تعالى عنهم أنهم جادلوه يوم القيامة وانكروا ما صنعوا معاصيه سبحانه وتعالى حتى شهدت عليهم أيديهم وأرجلهم ، فقالوا لاعضائهم لم شهدتم علينا(٤٤) .

وان قيل ان الله تعالى قد أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بالجدل فى قوله تعالى (وجادلهم بالتى هى أحسن) فالجواب من وجهين ، أحدهما ، ان الله تعالى بين ذلك بالتى هى أحسن ولم يأمره بمطلق الجدال،فامتثل ما أمره ومع ذلك فلم ينقل عنه انه جادل بأساليب المتكلمين والجدليين فثبت ان التى هى أحسن ليست سبيل المتكلمين مثل ما علم الله رسوله ان يحاجهم به فى قوله تعالى (قل انما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة ان هو الا نذير لكم بين يدى عذاب شديد قل ما سألتكم من أجر فهو لكم ان أجرى الا على الله وهو على كل شىء شهيد)وتنفيذا للامر الالهى (وانذر عشيرتك الاقربين)فصعد على الصفا فجعل ينادى لبنى قريش حتى اجتمعوا فسألهم(أرأيتكم لو اخبرتكم ان خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم كنتم مصدقى؟! قالوا (نعم ، ما جربنا عليك الا صدقا) قال (فانى نذير لكم بين يدى عذاب شديد) ، والامثلة الاخرى كثيرة فى القرآن عن محاجة الانبياء وجدالهم كما فى سورة هود ، ومحاجة ابراهيم لقومه ومحاجة يوسف لصاحب السجن .

---

(٤٤) ابن الوزير اليمانى عن سنة أبى القاسم صلوات الله عليه ج٢ ص١٣١ .

الوجه الثانى — ان الله تعالى اجمل كيفية الجدال بالتى هى احسن فى تلك الآيات وبينه فى غيرها بتعليمه فى القرآن العظيم لنبيه صلى الله عليه وسلم فقال تعالى (ان الدين عند الله الاسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ومن يكفر بآيات الله فان الله سريع الحساب فان حاجوك فقل اسلمت وجهى لله ومن اتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والاميين ءأسلمتم فان اسلموا فقد اهتدوا وان تولوا فانما عليك البلاغ والله بصير بالعباد) ، فهذه الآية واضحة الدلالة على الامر بالاقتصار على مجرد الدعاء الى الاسلام والاتكال فى ايضاح الحجة على ما قد فعله الله تعالى لهم من خلق العقول وبعثة الرسول وانزال الآيات واظهار المعجزات وتكثير مواد البينات(٤٥) وسنرى ايضا أن ابن تيمية فى معارضته لعلم الكلام يوضح أن السلف الصالح لم يعارضوا جنس النظر والاستدلال ولكن المعارضة اتجهت الى الاساليب الكلامية المستقاة من الفلسفة اليونانية وكان الاحرى الاحالة الى الادلة الشرعية وفى مقدمتها القرآن الحكيم لأنه اتجه فى خطابه للانسان باستثارة قوانين العقل وبراهينه وتحريك وجدانه وايقاظ قلبه من الغفلة .

---

(٤٥) لابن الوزير اليمانى — الذب عن سنه ابى القاسم صلوات الله عليه وسلم جـ٢ ص١٣٨ وما بعدها — ١٤١ .

البـــاب الرابع

موقف أهل الحديث والسنة من المعتزلة

الفصل الاول :

- التعريف بعلماء الحديث ومنهجهم .
- التعريف بالمعتزلة واصولهم الخمسة .
- دوافع علماء الحديث لمجابهة المتكلمين .
- علم الكلام لدى علماء الحديث والسنة .

التعريف بعلماء الحديث ومنهجهم :

الحديث والسنة يعنى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم سنته المنقولة الينا عن الثقات منذ الجيل الاول — أى الصحابة — ثم التابعين وتابعهم الى أن تلقاها المحدثون بمنهجهم الدقيق فى الجرح والتعديل

ولم يقتصر علماء الحديث بطبيعة الحال على نقل الاحاديث المتعلقة بالفقه والعبادات والاعمال فحسب بل تناولت احاديث الرسول صلى الله عليه وسلم كلها بما فى ذلك ما يتناول أصول الدين من توحيد الله سبحانه والايمان باليوم الآخر والملائكة والبعث والحساب والعقاب والجنة والنار وما الى ذلك من عالم الغيب الذى يشكل موضوعات أصول الدين ، وأفرد له المحدثون فى كتبهم أبوابا خاصة .

الى أن الحديث قد دون — فى أرجح الروايات — أيام الرسول صلى الله عليه وسلم .

وكان المسلمون فى عصر الصحابة والتابعين يستمدون عقائدهم عن أصول الدين من الكتاب والسنة ، وذلك قبل أن يطرأ عامل الترجمة والفلسفة اليونانية ، اذ تحولت المناهج بعدها بين نزاع بين المحدثين من جانب والمتكلمين والفلاسفة من جانب آخر ، اذ ظل أهل الحديث على طريقة الاوائل ، بينما ظهر علم الكلام على يد المعتزلة كواصل بن عطاء وعمرو بن عبيد ممن استخدموا منهجا عقليا فى أصول الدين استخداما خاطئا لانهم أطلقوا ألفاظ الفلسفة اليونانية على المعانى الاسلامية .

وقد قام أهل الحديث بمهمة كبرى فى تاريخ الاسلام اذ حفظوا للمسلمين الاصل الثانى من أصول الاسلام ممثلا فى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ لا تستقيم حياة المسلمين بدون معرفتها واتباعها ، وقد نيط بعلماء الاحاديث وتنقيتها وتمييز الصحيح من الضعيف والموضوع فحفظوا لنا تراث النبوة فلم يضع كما ضاع غيره من تراث الانبياء والرسل من قبل وصانوه من التحريف والتبديل والتعديل الذى حدث فى تراث الرسل والانبياء من قبل ،

---

(١) الخطيب البغدادى — تدوين العلم

وبقي الاسلام بدعامتيه الكبيرتين — كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

الحديث هو اسم من التحديث ، وهو الاخبار ثم سمي به قول أو فعل أو تقرير نسب الى النبي عليه الصلاة والسلام(٢) .

وجمع المحدثون بين طريقتي الحفظ والتدوين ، وظهرت مراحل تدوينه وحفظه من المسانيد الى الصحاح .

واقيم العلم على صروح متينة من التنقيح والتعديل والتجريح والتثبيت من صدق الرواة الناقلين للحديث ، وانكب على خدمته الالاف من العلماء ويتناقلونه جيلا بعد جيل بحرص ودأب دون أن يعتورهم الكلل أو الملل ، بل يحدوهم الفخار والزهو لانهم يؤدون عملا يتقربون به الى الله تعالى ويدخل في دائرة العبادة ، لانهم يحافظون على سنة رسولهم صلى الله عليه وسلم ، التي بها يعرف المسلمون تفاصيل عبادتهم ويتفقهون في دينهم ويستنبطون أحكامه ويعرفون شريعته ويتقون أحكام أوامره ونواهيه ، فان السنة تعكس مرآة صادقة لحياة الرسول صلى الله عليه وسلم وأقواله وافعاله وتقريراته ، وقد قال صلى الله عليه وسلم (نضر الله أمرءا سمع مقالتي فحفظها ووعاها وأداها (٣)) .

سلاسل الاسناد :

ويمتد الاسناد — نقلا عن العلماء — الى الصحابة وتابعيهم .

ويبدأ بالصحابة وعلى رأسهم العشرة المبشرين بالجنة الى غيرهم أمثال (أن أعلم الامة وأخصها بعلم الرسول صلى الله عليه وسلم وعلم خاصته مثل الخلفاء الراشدين وسائر العشرة ، .. ممن كان أخص الناس بالرسول صلى الله عليه وسلم واعلمهم بباطن أمورهم واتبعهم لذلك .

وقام العلماء المحققون امثال مالك وابن حنبل والبخاري ومسلم وابن

---

(٢) القاسمي — قواعد التحديث ص٦١ .

(٣) رواه الشافعي والبيهقي عن ابن مسعود القاسمي — قواعد التحديث ص٤٨ .

ماجه والنسائى وابو داود والترمذى وابن ماجه وابو يعلى ، والدارمى الى الحاكم والبيهقى والدارقطنى والديلمى وابن عبد البر وامثالهم(٤) كل هؤلاء قاموا بدورهم فى خدمة هذا العلم ينفون عنه تحـريف الغالين ، وانتحـال المبطلين ، وتأويل الجاهليين .

أصل الحديث من اسامة بن زيد رضى الله عنه ، من النبى صلى الله عليه وسلم انه قال (يحمل هذا العلم من كل خلف عدو له ينفقون عنه تحريف الغاليين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهليين)(٥) .

ورواه من الصحـــابة غير واحد ، أخرجه ابن عـدى والدارقطنى وابو نعيم .

وكانت جماهير المسلمين الغفيرة تتلقى الاحاديث من علماء لتعرف دينها وتقيم شـعائره ، فلما ظهرت علـوم الكلام والتصوف والفلسفة واتبعهـا البعض ، ظلت الغالبية العظمى من المسلمين متذرعة بمنهج علماء الحديث ، فنبذت غيرها من المناهج لمعرفتها بأنها طارئة دخيلة ، وغدت اليهم من طرق غير طرق المحدثين الناقلين لتراث النبوة . فيكون عندهم علم خاصة الرسول وبطانته .

منهج علماء الحديث فى اصول الدين :

اذا كانت دائرة الحديث فى المرحلة الثالثة على اصحـاب الصحـاح المعروفين فان سندهم فى الحقيقة يتصل — جيلا بعد جيل — منذ الصحابة ، وهم الطرف الاعلى فى نقل الاحاديث ، فاذا عرفنـا مكانة الصحـابة وعلو قدرهم فى الدين ، عرفناه مضمون ما نقله علماء الحديث ، ودورهم ومكانتهم مما جعـل الامام الشافعى رحمـه الله يقول (أهل الحـديث فى كل زمان كالصحابة فى زمانهم(٦) .

فالصحابة قد ورثوا عن الرسول صلى الله عليه وسلم العلم والايمان.

---

(٤) قواعد التحديث ص٤١
(٥) القاسمى : قواعد التحديث ص٤٨ .
(٦) القاسمى — قواعد التحديث ص٤٩ .

فهم أهل حقائق الايمان ، وأهل الفهم لكتاب الله تعالى والعلم والفهم لحديث الرسول صلى الله عليه وسلم(٧) .

ولكن بامتداد العصور والازمنة واختلاط المسلمين بغيرهم من الامم ، والنزاع الحادث بين المتكلمين وغيرهم ظهور الفرق واستحداث مناهج جديدة في سماعه او كتابته أو روايته بل شمل كل من كان حافظا له عارفا به ظاهرا وباطنا مع اتباعه وكذلك أهل القرآن(٨) ؛

وكشأن أى طائفة من الناس ظهرت قلة قليلة ضمن المنتسبين الى أهل الحديث ، غالوا في اثبات صفات الله تعالى واخذوا يروون أحاديث موضوعة في الصفات ، وقد تبرأ منهم أهل الحديث واعلنوا انهم أبرياء منهم(٩) .

وبسبب الخصومات الناجمة من اختلاف المناهج وتحزب كل فريق لآراء اتباعه ، اطلق خصوم أهل الحديث عليهم أسماء اخرى تخالف الحقيقة وتدل على شدة الخصومة المبنية على الهوى . قال الامام الحافظ ابو حاتم الرازى (علامة أهل البدع الوقيعة في أهل الاثر اى الحديث — وعلامة الجهمية أن يسموا أهل السنة مشبهة ، وعلامة القدرية ان يسموا أهل السنة مجبرة ، وعلامة الزنادقة ان يسموا أهل الاثر حشوية(٩)) .

موقف أهل الحديث والسنة من المعتزلة :

تعريف :

تكاد تجمع المصادر التاريخية وكتب الفرق على أن نشأة مذهب الاعتزال ترجع الى اختلاف واصل بن عطاء مع شيخه الحسن البصرى (١١٠هـ) في الحكم على مرتكب الكبيرة ، وأعتزاله مجلسه لهذا السبب ، وفيما عدا هذه الرواية الشهيرة فان الملطى توفى سنة (٣٧٧) — يعود بنشأة المعتزلة الى أيام تنازل الحسن بن على عن الخلافة لمعاوية بن ابى سفيان ، لانهم كانوا من أصحاب على فاعتزلوا الناس ولزموا البيت والمساجد قائلين (نشتغل بالعلم والعبادة فسموا بذلك « المعتزلة » . . .

(٧،٨،٩) المصدر — نقض المنطق ص٥٥ ، ٨١ ، ١١٩ .
(٩) القاسمى — قواعد التحديث ص٥٨ .

والارجح الرواية الاولى :

وعلى اية حال ، فقد انفصل الخوارج من الجمـاعة للاسباب التى ذكرناها ، آنفا ، وفعل المعتزلة بالمثل بطريقة اخرى ، واطلقوا على انفسهم اسم المعتزلة مشتركين معا فى اعتقاد الاصـول الخمسة التى وضعوها ، ففارقوا جماعة المسلمين وانفصلوا منهم حريصين على التميز والظهور بما اعلنوه من عقائد مخالفة ، ولهذا فقد قوبلوا بالاستنكار والمعارضة من جانب العلماء ، لانهم ابتدعوا آراء لم يعرفها الاوائل كالحكم على مرتكب الكبيـرة بانه فى (منزلة بين المنزلتين) ونفى القدر . فكان عبد الله بن المبارك حينذاك يحذر المسلمين منهم بقوله (ايها الطالب علما ايت حماد ابن زيد ، فخذ العلم بحلم ، ثم قيده بقيد ، وذر البدعة من آثار عمرو بن عبيد) ومنه نفهم الانشقاق الذى بدا يظهر بين علماء الحديث والمتكلمين منذ بزوغ المســائل الكلامية فى مهدها ، اذ كان عمرو بن عبيد قبـل ذلك منخرطا فى سلك الجماعة الاسلامية، مرتبطا بالاصول الاسلامية ، منتميا الى حلقة الحسن البصرى امام البصرة الكبير ، ولكنه باعلانه لرايه المخالف لراى الجماعة اعتبر مبتدعا ، فوصفه ابن حبان بانه كان من اهل الورع والعبادة الى ان احدث ما احدث واعتزل مجلس الحسن ، وجماعة معـه فسموا معتزلة ، وكان يشتم الصحـابة ويكذب فى الحديث وهما لا تعمدا ....

الاصول الخمسة عند المعتزلة :

والاصول الخمسة التى اتفقوا عليها هى : —

التوحيد ، العدل ، والوعد والوعيـد ، المنزلة بين المنزلتين ، الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فمن انتقص منها او زاد عليهــا اصـلا واحدا لا يستحق لقب الاعتزال .

ولافكار المعتزلة مظهر براق كالذهب المزيف يجذب بظاهره العيون ، ولكن سرعان ما يظهر بريقه الزائف من يتعمق فى فهمه ، فاذا دققنـا فى فهم اصولهم واحدا فواحدا ، تحليلا لها ومقارنة بما يقابلها من عقائد اهل السنة والجماعة ، ظهر لنا زيف بريقها .

ومرادهم بالتوحيد نفى صفات الله تعالى ، وقد أورد عقيدتهم كاملة ابو الحسن الاشعرى فى كتابه (مقالات الاسلاميين) ، ومنها نستقى بعض ما ذهبوا اليه فى هذا الاصل ، اذ اجمعوا على أن الله واحد ليس كمثله شىء وهو السميع البصير وليس بجسم ولا جوهر ولا عرض ، ولا يحيط به مكان ولا يجرى عليه زمان ولا تجوز عليه المماسة ولا الحلول فى الاماكن ، ولا يوصف بشىء من صفات الخلق الدالة على حدوثهم ، وكل ما خطر بالبال وتصور بالوهم فغير مشبه له ، لم يزل أزلا ، أو لا سابقا للمحدثات ، موجودا قبل المخلوقات ، ولم يزل عالما قادراً حيا ولايزال كذلك ، لا تراه العيون ولا تدركه الابصار ...

ويمضى الاشعرى — وهو خبير بعقائدهم لأنه كان معهم طوال اربعين عاما فينقل لنا كل ما قالوه فى (التوحيد) ، ويكفى من الاطلاع عليها معرفة الالفاظ والمصطلحات الفلسفية ، فضلا عن استخدام أوصاف لائقة تجعلنا ندرك خلو القلوب والنفوس من الهيبة التى استشعرها المسلمون الاوائل ، ونفهم أيضا التعليق المنسوب للجنيد القائل (نفس العيب حيث يستحيل العيب عيب) . وربما عنى بذلك مثل اطلاقهم المترادفات الاتية (وليس بجسم ولا شبح ولا جثة ولا صورة ، ولا لحم ولا دم .. الى قولهم (ولا بذى حرارة ولا رطوبة ولا يبوسة ولا طول ولا عرض ولا عمق ... الخ ..(١٠) .

وغيرها من الالفاظ التى تتنافى مع ادب الحديث عن رب العالمين جل شأنه ومن هنا نفهم حكمة سكوت السلف الصالح عن مثل هذا الكلام واكتفائهم بالقرآن العظيم ، وهو دليل على عمق الايمان والعناية الفائقة بكتاب الله تعالى تلاوة وحفظا وعملا فأيقنوا انه يغنيهم عن كل ما سواه .

والمفهوم من (التوحيد) عند المعتزلة انهم يعنون به اثبات وحدة الذات الالهية فنفوا الصفات ظنا منهم ان اثباتها يؤدى الى الشرك وانكروا رؤية الله تعالى فى الآخرة وعن هذا الاصل ايضا تفرع قولهم فى القرآن بأنه محدث ، مخلوق . وقد وقف لهم علماء السنة بالمرصاد ودحضوا عقيدتهم

---

(١٠) الاشعرى : مقالات الاسلاميين جـ١ ص٢٣٥

بالحجج العقلية وشكلت مجادلة الامام احمـد معهم اهم سند لعقيـدة اهل السنة والجماعة .

(أ) وقد ظن المعتزلة انهم بنفى الصفات الالهيـة يؤكدون عقيـدة التوحيد ، ويتحاشون التشبيه والتجسيم والحشـو ، ووصفوا من خالفهم بهذه الصفات وهم أول من رموا مخالفيهم بهذه الصفات .

ويرى ابن تيمية عند نقده لهم ان الاسـماء التى يتعلق بها المدح والذم من الدين لا تكون الا من الاسماء التى انزل الله بهـا سلطانه ودل عليهـا الكتاب والسنة والاجماع كالمؤمن والكافر والعالم والجاهل والمقتصد والملحد ، فاما هذه الالفاظ الثلاثة فليست فى كتاب الله ولا فى حديث عن رسول الله ولا ينطق بها احد من سلف الامة وائمتها نفيـا ولا اثبـاتا . ولذلك أصبح التوحيد عندهم مصطلحا يعنون به نفى جميع الصفات الالهية ، وكل من اثبت شيئامنهـا رموه بالتجسـيم والتشبيه حتى أن من قال (ان اللـه يرى) او (ان له علما) فهو عندهم مشبه مجسم . (واما التوحيد الذى بعث الله به الرسـل وانزل به الكتب فليس هو متضمنا شيئا من هذه الاصطلاحات بل امر الله عباده أن يعبدوه وحده لا يشركوا به شيئا فلا يكون لغيره نصيب فيما يختص به من العبادة وتوابعها — هذا فى العمـل ، وفى القـول : هو الايمان بما وصف به نفسـه ووصفه رسـوله) ولابد من التوحيد بالقول والكلام — وهو أن يصفوا الله بما وصفته رسله وهذا وحده لا يكفى فى السـعادة، والنجاة فى الآخرة ، بل لابد من أن يعبد الله وحده ، ويتخذ الها دون سـواه وهو معنى قول (لا اله الا الله) .

ان هذا الفصل بين العلم والعمل وترجيـح جانب على آخر ، واثارة الجدل قضـايا مستقرة ، كل هذه الاسباب قربتهم من الفلاسفة ، وحولت العقيدة النابضة بالحياة الى نظريات يدور حولها النقاش وتختلف عليهـا وجهات النظر بين أخذ ورد .

(ب) اضف الى ذلك ، فان اية مقارنة بين صفات الله تعالى وافعاله واسمائه الحسنى وبين ما ابتدعوه بحجة التوحيـد ، يرينا مدى الانفصـال الظاهر من مصطلحاتهم فهى ادنى الى الفاظ الفلاسـفة اليونان منها الى آيات القـرآن .

والقرآن الكريم ملىء باثبات صفات الله تعالى واسمائه ، فمن العلم نقرا قوله تعالى : —

(ولله غيب السموات والارض اليه يرجع الامر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون) ١٢٣ هود .

كذلك قوله عز وجل : —

(الرحمن على العرش استوى(٥) له ما فى السموات وما فى الارض وما بينهما وما تحت الثرى ٦ وان تجهر بالقول فانه يعلم السر واخفى ٧ الله لا اله الا هو له الاسماء الحسنى ٨) (الله يعلم ما تحمل كل انثى وما تغيض الارحام وما تزداد وكل شىء عنده بمقدار ٩ عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال) ١٠ الرعد .

وتفرده عز وجل بالالوهية : —

قل انما يوحى الى انما الهكم اله واحد فهل انتم مسلمون ١٠٨ الانبياء (انما الهكم الله الذى لا اله الا هو وسع كل شىء علما) ٩٨ طه .

قال فمن ربكما يا موسى ٤٩ قال ربنا الذى اعطى كل شىء خلقه ثم هدى .

وعن القدرة : —

(ذلك بأن الله هو الحق وانه يحيى الموتى وانه على كل شىء قدير ٦ الحج) (يخلق ما يشاء ان الله على كل شىء قدير (من آية ٤٥ النور) .

وانظر الى الآيات من ٨٤ : ٨٩ سورة « المؤمنون » .

(الذى له ملك السموات والارض ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك وخلق كل شىء فقدره تقديرا) ٢ الفرقان .

(ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل وأن الله هو العلى الكبير) ٣٠ لقمان .

الصفـــات الالهيـــة : —

يتضح لقارىء القرآن الكريم ، والمطلع على السنة النبوية ، عنايتهما الفائقة باثبات الاسماء والصفات الالهية .

فما مغزى ذلك وما جدواه ؟

قلنا من قبل ، ان الانسان مفطور على معـــرفة ربه عز وجل والاقرار بوجوده ، ونستطيع القول هنا ايضا (على سبيل اليقين ، لا على ســـبيل الظن ، بأن صحائف الفكر البشرى لم تشهد انسانا بغير عقيدة فى اله) .

ولكن يأتى الاختلاف بين البشر فى التصور نفسه لا اختلاف فى اساس الاعتقاد بوجود الله .

خذ مثلا فلسفة ارسطو المبدأ الاول بوجوب الوجود ، ولكنهسا ذات مجرد من كل وصف ، ولا دخل له فى اى شأن من شئون الكون ، فســـدت بذلك باب الدعاء والالتجـــاء بل قطعت كل خيط من الامل والرجاء لدى بنى آدم ، اذ لا جدوى من محاولة ايجاد اية علاقة بينهم وبين (المبدأ الاول) كما تصوره هذه الفلسفة .

وعلى العكس خلعت عقيدة العرب الجاهلية كل صفة من صفات الاله على اشخاص من خلقه ، كالقدرة على الاحياء ، والرزق ، والعلم الخ .... فقطعت بذلك ايضا الرجاء فى سؤال الاله الواحد والالتجـــاء اليـــه ثم جاءت الآيات القرآنية والاحاديث النبوية . مذكرة الانسان بصفات الله اى بعلمه وقدرته وسائر صفاته ، واسمائه الحسنى .

فهو سبحانه الحى القيوم ، يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف عنـــه السوء وهو اقرب اليه من حبل الوريد ، وانه عز وجل معه يعلمه اينما كان .

حيث يطمئن قلبه ، ويقوله شديد الثقة بالعون الالهى ، اذ يؤمن ان ، لا ملجـا منه الا اليه ، فيصبر عنـــد البلاء ويشكر عند الرخاء : يستنصره فينصره ويسأله فيعطيه ، يستسقيه فيسقيه ، ويتقرب اليه فيقربه .

وهـــكذا تأتى الاسماء والصفات الالهيـــة منبهة بنى آدم الى حاجتهم الدائمـــة الى خالقهم ورازقهم لكى لا يتوهم الاستقلال والغنى بذواتهم عن مولاهم ، وتفتح امامهم باب الامل فى حياة افضـــل دائما ســـواء فى الدنيـــا او الآخرة .

فبمعرفة العبد لربه ذاتا وصفات تجعله يدرك ان الله يراقبه فى حركاته وسكناته فى سره وعلنه ، فيخشاه ويتقيه ويلجأ اليه عابدا داعيا متضرعا .

وبوسعك الالمام بطرق من عقائد أهل الملل والنحل الاخرى كاليهودية والنصرانية والمجوسية ، فلا تعثر فى تصوراتها الالهية ، بمثل تصور المسلم لربه عز وجل مما ادى الى الاقتصار على الالوهية ، بالنسبة الى الانسان الغربى ، واحلال العلم والانسان مؤلهين ، محلها على الارض ، وليتدبر بعد ذلك ما اوقعته كوارث القرن العشرين المتلاحقة بتلك الالوهية الجديدة للعلم والانسان من دمار) .

والاسوا من ذلك انتقال العدوى الينا معشر المسلمين بعد ضعف عقيدة التوحيد وهى الحصن الذى نلوذ به لرفع هذا البلوى ، بعد ان تسرب الينا انحراف الغيب فاصبح خضوعا لحواسنا يكاد يكون تاما مثلهم ، وكادت الغالبية منا تفقد القدرة على تخطى الظواهر ببصائرها وعقولها الى الله عز وجل خالق الكون ومدبره .

وعلى المستوى الحضارى ، قامت الحضارة الاسلامية على عقيدة التوحيد، فظلت متماسكة عندما وازن المسلمون بين اطرافها ، اى بين الايمان بالله غيبا ذاتا وصفات — وبين اعداد العدة بالاساليب العسكرية المعروفة آنذاك ، فاجتاح المسلمون الامبراطوريتين الفارسية والرومانية بفضل ايمانهم بالله تعالى على هذه الصورة ، اذ ايقنوا انه ناصرهم ، فلم ترهبهم قوى الاعداء الظاهرة الملموسة ولم يخفهم الفارق المشاهد فى القوى والعتاد والعدد ، لانهم أيقنوا ان الله من وراء الغيب يؤيدهم ويشد ازرهم .

والمقصود بالاصل الثانى ، وهو العدل ، ارجاع كل عمل الى الانسان لتفسير ظهور الشر ونسبته الى الانسان فقط . واذا كان المسلمون كافة يؤمنون بعدل الله سبحانه وتعالى ، فان المعتزلة فسرعوا الكلام عن هذا الاصل ، فادى بهم الى ايجاب الصلاح والاصلح على الله تعالى ، وانبثقت فكرتهم عن الحسن والقبيح العقليين وانهما ذاتيان عقليان كما تفرعت ايضا مسألة خلق افعال العباد قالوا : (يمتنع عليه ارادة الشر والمعاصى

القبائح) . وقالوا : (يريد مالا يقع ، ويقع ما لا يريد) فزعموا انه تعالى راد من الكافر الايمان وان لم يقع الا الكفر وان وقع ، وكذا اراد من الفاسق الطاعة لا الفسق ، حتى زعموا ان اكثر ما يقع من عباده على خلاف مراد الله ، تعالى عن ذلك .

وظاهر عقيدتهم ارادة تنزيه الله تعالى ، ولكننا سنعرف عندما نعرض آراء علماء اهل السنة ، كم اخطئوا وشذوا ، لانهم لم يتنبهوا الى التميز بين الامر والرضا والمحبة اذ لا تكون الا فى الخير ، ولكن الارادة قد تكون فى غيره فهى تتعلق بكل ممكن كما يذكر ابن تيمية . قال الله تعالى (ولا يرضى لعباده الكفر) ، (ان الله يامر بالفحشاء) فان قيل ، قد قال الله تعالى (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) وقال (واذا اردنا ان نهلك قرية امرنا مترفيها ففسقوا فيها) ، فالمقصود هنا ان الارادة التى تعنيهما هى الارادة الكونية المتصلة بالحكمة من خلق العالمين .

واما الارادة الدينية المتصلة بالاوامر الشرعية فهى ترادف الرضا والمحبة . وربما يلخص لنا موقف المعتزلة عبارة القاضى عبد الجبار فى قوله (سبحان من تنزه عن الفحشاء) ، بينما يعبر عن اتجاه اهل السنة والجماعة رد ابى اسحق السفارينى (سبحان من لا يقع فى ملكه الا ما يشاء)(١١) .

الايمان بالقدر وعلاقته بالارادة الانسانية :

من افضل ما نستهل به هذا الموضوع ، هو اجابة السؤال الذى وجه الى جعفر الصادق رضى الله عنه عندما سئل عن قول الله تعالى (افحسبتم انما خلقناكم عبثا وانكم الينا لا ترجعون) المؤمنون لم خلق الله الخلق ؟

فاجاب : لان الله كان محسنا بما لم يزل فيما لم يزل ، فاراد الله ان يفيض احسانه الى خلقه وكان غنيا عنهم ، لم يخلقهم لجر منفعة ولا لدفع مضرة ، ولكن خلقهم واحسن اليهم فارسل اليهم الرسل ليفصلوا بين الحق والباطل فمن احسن كافاه الجنة ومن عصى كافاه النار) .

ويشرح ابن القيم انواع الابتلاءات التى يتعرض لها الانسان اثناء حياته فى الدنيا ، محصيا الايات القرانية الدالة عليها .

---

(١١) شرح عقيدة السفارينى ص ٢٣١ : ٢٣٢ .

ويذكر على ان الله سبحانه وتعالى ابتلى العباد بالنعم كما ابتلاهم بالمصائب ، وأن ذلك كله ابتلاء فقال (ونبلوكم بالشر والخير فتنة) .

وقال : (فأما الانسان اذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى اكرمن واما اذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى اهانن) (١٢) .

وقال : (الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم احسن عملا) .

وقال : (وهو الذى خلق السموات والارض فى ستة ايام وكان عرشه على الماء ليبلوكم ايكم احسن عملا) .

فأخذ سبحانه انه خلق العالم العلوى والسفلى وقدر أجل الخلق ، وخلق ما على الارض للابتلاء والاختيار ، وهذا الابتلاء انما هو ابتلاء صبر العباد وشكرهم فى الخير والشر والسراء والضراء . (١٣) .

كذلك وردت الاحاديث الكثيرة فى بيان ما يقابله المؤمن فى حياته من ابتلاءات طوال عمره ، منها :

— عن صهيب الرومى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (عجبا لامر المؤمن ، ان امره له كله خير وليس ذلك لاحد الا للمؤمن ، ان اصابته سراء شكر فكان خيرا له وان اصابته ضراء صبر فكان خيرا له (رواه مسلم) .

— عن مصعب بن سعد عن ابيه قلت يارسول الله اى اشد بلاء ؟
— أى محنا وشدائد .

قال الانبياء ثم الامثل فالامثل ، يبتلى الرجل على حسب دينه ، فان كان دينه صلبا اشتد بلاؤه ، وان كان فى دينه رقة ابتلاه الله على حسب

---

(١٢) فى تفسير ابن القيم الاية : قال الله تعالى : كلا اى ليس الامر كما يقول الانسان بل قد ابتلى بنعمتى وانعم ببلائى .

(١٣) ابن القيم : عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص ١٢٥ مطبعة الامام .

دينه ، فما يبرح البـلاء بالعبـد حتى يمشي على الارض وما عليه خطيئـة (رواه ابن ماجه وابن ابى الدنيا والترمذى وقال حديث حسن صحيح) .

والعبد المؤمن امام شكره على النعم وصبره على البلاء حتى يجتـاز طريق الدنيا ويعود الى الجنة — موطنه الاصلى كوعد اللـه تعـالى اياه (فانه ما حرمه — عز وجل الا ليعطيه ، ولا امرضه الا ليشفيه ، ولا افقره الا ليغنيه ، ولا اماته الا ليحييه ، وما اخرج ابويه من الجنـة الا ليعيدهما اليها على اكمل وجه . كما قيل : يا آدم لا تجزع من قولى لك واخرج منها ، فلك خلقتها وسأعيدك اليها) .

موقف الانســـــان :

الانسان اذن امام هذه الحقيقـة لا يملك قرارا ، فهـو بين امر يجب عليه امتثاله وتنفيذه ، ونهى يجب عليه اجتنابه وتركه ، والصبر مع هذين الطرفين لازم ولا يخلو من نوعين :

احدهما — يوافق هواه ومراده كالصحة والسلامة والجاه والمال .

والاخر — المخالف للهوى وهو على شكلين :

ا — يرتبط باختياره كالطاعات والمعاصى ، وعليه يترتب الاجر .

ب — لا يرتبط باختياره كالمصائب ، وبهـا تمحى السيئات وترفـع الدرجـــات .

ولكن الثابت ان الانسان لا يملك منح نفسه القدرات والمزايا الجبليـة كالذكاء والصحة والانوثة او الذكورة ، ولا يملك اختيار ابويه ليرث عنهمـا مواهب وســمات معينــة دون الاخــرى ، ولا انتخـــاب الزمان الصالح ليعيش فيه ، ولا البيئة الصالحة لينمى فيها طفولته . هذه كلهـا امور لا يملكها الانسان وخارجة عن نطاق اختياره وليس مسئولا عنها .

ولكن المتعللين بالقدر على اعمالهم الانسانية يحتجون بآيات قرآنيـة يختارونها وفق اهوائهم ، كقول الله تعالى (يضل من يشاء ويهدى من يشاء) فاطر ٧ .

وهذا الاحتجساج سرعان ما يدحض امام النظرة القرآنية لآيات اخرى تخير الانسان بين نجدين ، كقوله عز وجل (انا هديناه السبيل اما شاكرا واما كفورا) .

وقوله سبحانه وتعالى : (ونفس وما سواها فالهمها فجورها وتقواها) والقرآن يفسر بعضه بعضا ، وهذا التفسير هو أدق التفاسير الذى يلجأ اليه العلماء لان القرآن ميسر لكل ذى بصر وبصيرة .

(ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) القمر ١٧ .

وبهذا الفهم يصبح تفسير الآية الاولى واضحة لا لبس فيه اذ معناها ان اضلال الله لشخص انه آثر الغى على الرشاد فاقره الله على مراده وتمم له ما يبغى لنفسه .قال تعالى (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدى القوم الفاسقين) الصف ٥ .

اذن ، فمعنى قوله تعالى (يضل من يشاء لا بعد وقوله (وما يضل به الا الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه) البقرة ٢٦ ، ٢٧ وكذلك الحال فى قوله تعالى (يهدى من يشاء) . وللنظر الى قيمة الارادة الانسانية فى قول الله تعالى وهو يتكلم من ارادته (قل ان الله يضل من يشاء ويهدى اليه من اناب الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله الا بذكر الله تطمئن القلوب) الرعد ٢٧ ، ٢٨ .

ثم يأتى دور مناقشة المحتجين بالاحاديث النبوية وربما يتسع اكثرهم على الحديث الاتى — ويفسرونه خطأ بانه يدل على الجبر ونفى حرية الارادة الانسانية .

والحديث : ما منكم من احد الا وقد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة ، فقالوا يارسول الله ، افلا نتكل على كتابنا وندع العمل ؟ قال : اعملوا فكل ميسر لما خلق له . اما من كان من اهل السعادة فيصير لعمل اهل السعادة واما من كان من اهل الشقاوة فيصير لعمل اهل الشقاوة ثم قرأ (فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى واما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى) الليل ٤ .

قال تعالى وما جعلنا القبلة التى كنت عليها الا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه (النبوة ٢ : ١٤٣) .

وقال : أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين (آل عمران ٣ : ١٤٢) .

وقوله : ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو اخباركم (محمد ٤٧ : ٣١) .

فروى عن ابن عباس فى قوله (الا لنعلم) أى (لنرى) وروى لنميز . وكذلك قال عامة المفسرين (الا لنرى ونميز) وكذلك قال جماعة من أهل العلم ، قالوا : لنعلمه موجودا وانما بعد أن كان قد علم انه سيكون ولفظ بعضهم ، قال : العلم على منزلتين — علم بالشىء قبل وجوده ، وعلم به بعد وجوده . والحكم للعلم به بعد وجوده لانه يوجب الثواب والعقاب .

قال : فمعنى قوله (لنعلم) أى لنعلم العلم الذى يستحق به العامل الثواب والعقاب ، ولا ريب انه كان عالما سبحانه بانه سيكون ، لكن لم يكن المعلوم قد وجد (١٤) .

ويتصل الاصل الثالث بالوعد والوعيد مضمونة كما يعبر عنه الشهرستانى أن المؤمن اذا خرج من الدنيا على طاعة وتوبة استحق الثواب والعوض ، واذا خرج من غير توبة عن كبيرة ارتكبها استحق الخلود فى النار ، ولكن عقابه يكون أخف من عقاب الكفار (١٥) .

وانسياق المعتزلة فى هذا الاصل يتصل بدفاعهم عن الحرية الانسانية واحتكامهم الى العقل اذ أصبح الثواب والعقاب عندهم ينصب على افعال الانسان نفسها والتى يقتضيها العقل ومعنى هذا اعتقادهم أن المطيع ومعاقبة العاصى ان لم يتب — أمر محتوم (اى يجب) على الله تعالى أن

---

(١٤) ابن تيمية : الرد على المنطقيين ص ٤٤٦ ط لاهور ١٣٩٦ هـ ١٩٧٦ م .

(١٥) الملل والنحل جـ ١ ص ٥٦ .

بفعله ، فخلطوا بين الوعد والوعيد ، بينما يعتقد اهل الحديث والسنة انه يجوز على الله تعالى اخلاف الوعيد لا اخلاف الوعد ، والفـرق بينهما ان الوعيد حقه فاخلافه عفـو وهبة ، واسـقاط ذلك موجب كرمه وجـوده واحسانه والوعد على نفسه بوعده ، والله لا يخلف الميعاد . ويعتقد اهل السنة والجماعة انه من موانع وقوع الوعيد التـوبة والتوحيد والحسنات العظيمة والمصائب المكفرة واقامة الحدود فى الدنيا وأضعاف اضعافها .

ويأتى أصلهم فى (المنزلة بين المنـزلين) الذى فارقوا به الجمـاعة ليرتبوا عليه اعتقاد أن مرتكب الكبـيرة فاسق ، وهو فى منـزلة بين منزلتى الكفر والأيمان ولكنهم لم يكفروه كما فعل الخوارج ، كما لم يستحلوا الدماء والاموال فى الدنيـا .

ولا ينفرد المعتزلة بالاصل الاخير — اى **الامر بالمعـروف والنهى عن المنكـر** لانه مبدا اسلامى اعتنقته كل الفرق ، وهـو يقضى بأمر المسـلمين وتكليفهم بالجهاد فى سبيل الله بأمر الاية (ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، واولئك هم المفلحون) آل عمـران ١٠٤ .

الى جانب اعتقادات اخرى اختلفوا فيها تزيد من هذه الاصول مثـل قولهم بأن العلم بالله تعالى يحصل بالنظر والاستدلال اى ترتيب الاقيسـة العقلية ، فخالفوا جماهير الفقهاء والصوفية واهل الحديث والعامة وغيرهم، لان سلف الامة وائمتها اتفقوا على ان معرفة الله تعالى والاقرار به لا يقف على الطرق التى يذكرها اهل طريقة النظر (لان اصـل المعرفة والاقـرار بالصانع يحصل بديهة وضرورة ولا يتوقف على النظر والاستدلال ، ويدلل ابن تيمية على ذلك بأن جميع الامم تقر بالصانع مع عظيم شركهم وكفـرهم (ولهذا يوجد له عند كل امة اسم يسمونه ، والتسمية مسبوقة بالتصور ، فلا يسمى أحد الا ما عرفه ، ثم المستمع لذلك الاسـم يقبل بفطرته ثبـوت المسمى به من غير طلب حجة على وجوده ويكون قبولها لاسماء سـائرها ما ادركه بحسه وعقله مثل الشمس والقمر والواحد والاثنين بل هذا اكمـل وأشـرف .

بالاضافة الى مآخذ اخرى اخذهما اهل السنة والجماعة على المعتزلة ومنها : —

— ردهم للاحاديث التى لا توافق اغراضهم ومذاهبهم ويدعون انها مخالفة للمعقول فيجببردها كالمنكرين لعذاب القبر والصراط والميزانورؤية الله عزوجل فىالاخرةوكذلك حديثالذباب ومقله وانهيقدم الذى فيهالداء.. وما اشبه ذلك من الاحاديث الصحيحة المنقولة نقل العدول .

— قدحهم فى الرواة من الصحابة والتابعين رضى الله عنهم وفيمن اتفق الائمة من المحدثين على عدالتهم وامامتهم . كل ذلك ليردوا بسببه على من خالفهم فى المذاهب واحيانا كانوا يردون فتاوى الصحابة أمام العامة لينفروا الامة عن اتباع السنة وأهلها .

— ذهبت طائفة الى نفى اخبار الاحاد جملة والاقتصار على ما تستحسنه عقولهم فى فهم القرآن (١٦) .

والآن ، بعد ان نزعنا الوجه البراق للفكر الإعتزالى ، ووقفنا على حقيقته ومراميه ، فان أقل ما يطعن فيه أنه حول الدين الذى جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى تستجيب له الفطرة الانسانية ، ويستسيغه العقل بكل سهولة — حوله الى (فلسفة نظرية دقيقة يعجز عن فهمها واساغتها كثير من العقلاء والاذكياء فكان تنمية العقل على حساب العاطفة واضعافا للايمان واثارة للشكوك والشبهات وعدم الثقة على وجوده ، وما اكثر فى العالم ما يعجز العقل عن تعليله واقامة الدليل عليه .

---

(١٦) الاعتصام للشاطبى جا ص١٤٠ .
ويذكر الشاطبى انهم بنفيهملخبار الآحادواستحسان عقولهم اباحوا الخمر بفهم المعوج لقوله تعالى (ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا) ويقول (ففى هؤلاء وامثالهم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا الفين أحدكم متكئا على اريكته يأتيه الامر من أمرى مما أمرت به او نهيت عنه ، فيقول لا أدرى ما وجدنا فى كتاب الله اتبعناه) وهذا وعيد شديد تضمنه النهى ، لاحق بمن ارتكب رد السنة .

دوافع علماء الحديث لمجابهة المتكلمين :

بالرغم من المناقشات الكلامية الدائرة بين أهل الكلام والتى خصصت كتب الفرق والمذاهب عرضها والتوسع فى شرحهسا ،بالرغم من ذلك كانت الغالبية العظمى من المسلمين يتبعون علماء السنة والحديث فى العقيدة المتلقاة بالقبول .

وهنا لنا ملاحظتان :

الاولى — ان الاكتفاء بالاطلاع على مؤلفات الفرق يعطى انطباعا بأن هذه المسائل كانت الشغل الشاغل للمسلمين كافة . وهذا لم يحدث الا بعد ان فرض المأمون القول بخلق القرآن — وفى هذه القضية وحدها — وفيما عدا هذا فقد كانت الامة الاسلامية تمضى قدما فى بناء حضارة زاهرة بعلومها وآدابها وفنونها ونظمها فى السياسة والاقتصاد والاجتماع — وجهود علماء المسلمين فى فروع العلوم المختلفة اكثر من أن تذكر فى هذا الموضع .

الثانية — ان العلماء المهتمين بالحديث والسنة يمثلون الاغلبية وتظهر بجسانبهم اصحاب الكلام كتلة قليلة لا تعبر الا عن نفسها وبضعة افراد يتأثرون بهم ويقولون بأقوالهم وكانوا على سبيل التحديد كالجعد بن درهم وجهم بن صفوان . ويذكر لنا ابن قتيبة أن عقيدة السلف الصالح كان هى عقيدة العلماء المبرزين المتقدمين والعباد المجتهدين الذين لا يجارون ولا يبلغ شأوهم ، مثل سفيان الثورى ومالك بن انس والاوزاعى وشعبة والليث بن سعد وعلماء الامصار كابراهيم بن ادهم والفضيل بن عياض وداود الطائى ومحمد النصر الحارث واحمد بن حنبل وبشر الحافى وامثال هؤلاء ممن قرب من زمانه. ثم يستطرد قائلا (**فأما المستقدمون فأكثر من ان يبلغهم الاحصاء** ويحوزهم العدد)(١٧) .

كانت اذن الآراء الشاذة التى اظهرها امثال جهم بن صفوان كالبثور فى الجسم كبداية علامات المرض بعد أن كان صحيحا معافا به من المناعة

---

(١٧) ابن قتيبة — تأويل مختلف الحديث ص١٧

ما يقاوم به المرض . (فلم يظهر جهم واصحاب جهم فى زمن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكبار التابعين فيروى عنهم فيها أثر منصوص ، وسمى ، ولو كانوا بين اظهرهم مظهرين آراءهم لقتلوا ، كما هم عمر بن الخطاب رضى الله عنه بقتل صبيغ اذ تكلف فى السؤال عن المتشابه ، او كما قتل على رضى الله عنه الزنادقة ، التى ظهرت فى عصره ، ولقتلوا كما قتل اهل الردة(١٨) .

ويرى الدارمى ان آراء جهم والمريسى بمثابة الردة ، لأن القول بأن القرآن مخلوق يضاهى ما قاله الوليد بن المغيرة المخزومى (ان هذا الا قول البشر) والنضر بن الحارث قال (لو نشاء لقلنا مثل هذا ان هذا الا اساطير الاولين) — اى كما قال جهم المريسى سواء ، لا فرق بينهما فى اللفظ والمعنى ، ان هذا الا مخلوق ، فانكر عليهم قولهم) وكان نور النبوة قد بدد ظلام العصر الجاهلى ومعتقده الباطلة ولكن اقوال الجاهلية عادت للظهور مرة اخرى فى عصر جهم والجعد ثم المريسى ونظرائهم(١٩) .

وامام هذه الموجة التى بدأت تهب على عقائد المسلمين ، رأى علماء الحديث ان واجباتهم تقتضى الوقوف فى وجهها وحماية المسلمين منها ، واندفعوا بنية اداء ما اوجبه الله عليهم . يقول ابن قتيبة (كما رأيت اعراض اهل النظر عن الكلام فى هذا الشأن منذ وقع ، وتركهم تلقيه بالدواء حين بدأ . . الى ان استحكم اساسه . . لم أر لنفسى عذرا فى ترك ما اوجبه الله على بما وهب من فضل المعرفة فى امر استفحل بأن تمر مقصر ، فتكلفت بمبلغ علمى ومقدار طاقتى ما رجوت أن يقضى بعض الحق عنى ، لعل الله ينفع به ، فانه بما شاء نفع)(٢٠) ولكنه كان حريصا فى منهج رده على المخالفين توضيح **الاسرار اللغوية** التى جهلوها فحادت بهم عن التفسير الصحيح للكلمات — والآيات فاخذ يذكر ما تأولته الجهمية فى الكتاب والحديث ليعلم المسلمون ان الحق مستغن عن الحيل ، ولهذا لم يتعد فى أكثر الرد عليهم طريق .

---

(١٨) نقض الدارمى على المريسى ص٣٤٩ .
(١٩) نفس المصدر ص٤٦٥،٤٦٩ .
(٢٠) ابن قتيبة — الاختلاف فى اللفظ ص٢٢٥ .

وقال بعد توضيح منهجه هذا (فأما الكلام فليس من شأننا ولا أرى أكثر من ذلك الا به)(٢٠) .

والى نفس السبب يرجع الدرامى اضطراره للخوض فى علم الكلام ، اذ انه يشخص احوال المسلمين ويفسر تاريخهم طبقا للقاعدة الشرعية العقلية التى تقضى بأفضلية أهل العصور الاولى لأن الله تعالى أثنى عليهم وعلى من بعدهم باتباعهم اياهم فقال (والذين اتبعوهم باحسان) ، وكانت قوة المسلمين المادية والمعنوية كفيلة باختفائهم تخوفا من الافتضاح ، بل كانوا يتقلبون مع المسلمين فى النعم . ويمضى الدارمى فى وصف أحوالهم فيرى أنهم لم يزالوا بعد ذلك مقموعين أذلة مدحورين حتى قلت الفقهاء وقبض العلماء (ودعا الى البدع دعاة الضلال ، فشد ذلك طمع كل متعوذ فى الاسلام من أبناء اليهود والنصارى وأنباط العراق ووجدوا فرصة للكلام ، فجدوا فى هدم الاسلام وتعطيل ذى الجلال والاكرام ، وانكار صفاته وتكذيب رسله وابطال وحيه ، اذ وجدوا فرصتهم واحسوا من الرعاع جهلا ومن العلماء قلة .. فحين رأينا ذلك منهم ، رأينا أن نبين من مذاهبهم رسوما من الكتاب والسنة وكلام العلماء ما يستدل به أهل الغفلة من الناس على سوء مذهبهم فيحذرهم على أنفسهم وعلى اولادهم وأهليهم ويجتهدوا فى الرد عليهم ، محتسبين منافحين عن دين الله تعالى طالبين به ما عند الله) (٢١) .

كما اضطر الامام احمد بن حنبل — امام هذه الاحوال الطارئة — أن يقف مدافعا عن العقيدة الصحيحة ، فقال (كنا نرى السكوت عن هذا قبل أن يخوض فيه هؤلاء ، فلما أظهروه لم نجد بدا من مخالفتهم والرد عليهم(٢٢) .

علماء الكلام لدى علماء الحديث والسنة :

تقدم بيان تعريف علم الكلام لدى ابن خلدون الذى عبر به المدارس الكلامية التقليدية ، وبقى أن نستطلع رأى علماء الحديث فى هذا العلم وبيان موقفهم ودواعيه ومسائله والدوافع التى أدت بهم الى استخدامه .

---

(٢٠) ابن تتيبة الاختلاف فى اللفظ ص٢٢٥ .
(٢١) نقض الدارمى على المريسى ص٢٥٩ .
(٢٢) عقائد السلف ص٤٦٧ — ٤٦٨ .

أما عن تعريفه فلم يختلفوا كثيرا عن غيرهم ، فنرى السفاريني يصفه بأنه (علم يقتدر معه على اثبات العقائد الدينية ، ويسمى أيضا علم التوحيد. والصفات وعلم اصول الدين)(٢٣) . ويعرفه بمترادفاته فانه علم الكلام والتوحيد واصول الدين ، والعلم بالعقائد الدينية عن الادلة اليقينية اى اعتبر في ادلتها باليقين ، لانه لا عبرة بالظن في الاعتقادات بل في العمليات اى أمور الفقه فيقول (واعلم انا لا نأخذ الاعتقادات الاسلامية من القواعد الكلامية ، بل انما نأخذها من النصوص القرآنية والاخبار النبوية) .

وفي بيان الغرض منه ، ينسبه الى أن القواعد الكلامية **ما رتبت وبوبت منها الاعتقادات الاسلامية ، بل لدفع شبه الخصوم ودحض نهج البدع** ، فانهم طعنوا في بعض منها بأنه غير مقبول ، فيبين علماء السنة بأن زعمهم غير صحيح ، فان الانبياء تأتي بمحاورات العقول — أى ما يحير العقول ، لا بمحالاتها — أى بما تراه مستحيلا ، ثم بين لهم علماء السنة بالقواعد الكلامية ، **معقولية ما انكروا ، وذلك بالنظر والقياس** ، والنظر المقصود هنا المستند الى دليل من كتاب او سنة او قياس جلي ، لا التخمين ، فهذا من الطف فهم النصوص وادلته لا الراى المجرد بغير دليل . وسنجد هذا متحققا عند محاورة عبد العزيز المكي لبشر المريسي .

ويتضح من هذا أن ذم علماء الحديث والسنة اقتصر على علم الكلام المشحون بالفلسفة والتاويلات الشاذة وصرف الآيات القرآنية عن معانيها الظاهرة .

والمراد بالعقائد الدينية المنسوبة الى دين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم واعتبر في ادلتها اليقين .

كذلك يفصل في التعريف بين علم الصحابة وعلم من جاء بعدهم ، فان علماء الصحابة يحتوى على كلام واصول وعقائد — وان لم يكن يسمى في ذلك الزمان بهذا الاسم — حيث كان متعلقا بجميع العقائد بقدر الطاقة البشرية . مكتسبا من النظر في الادلة اليقينية ، او كان ملكة تتعلق بهما بأن يكون عندهم من المآخذ والشرائط ما يكفيهم في استحضار العقائد(٢٤) .

---

(٢٣) شرح عقيدة السفاريني ص١٦٠ — ٦١ جـ١ ط مجلة المنار الاسلامية بمصر سنة ١٣٢٣ هـ .

(٢٤) شرح عقيدة السفاريني جـ١ ص٦١ .

ان فيصل التفرقة اذن بين المنهجين : ان علماء الحديث والسنة تقيدوا بطريقة الاوائل فى النظر واستندوا ذلك من الكتاب والسنة والاجماع والنظر فى الادلة الشرعية ، وذلك بخلاف اهل الكلام الذين استخدموا اصطلاحات الفلسفة اليونانية .

وبهذه الصفة وبهذا التمييز وصف بانه اشرف العلوم باعتباره علم اصول الدين اذ شرف العلم بشرف المعلوم ، وهو الفقه الاكبر بالنسبة الى فقه الفروع(٢٥) .

وغايته أن يصير الايمان والتصديق بالاحكام الشرعية متقنا محكما لا تزلزله شبه المبطلين ، فيرتقى المعاندين باقامة الحجج والبراهين وصحة النية والاعتقادات الاسلامية التى تتم بها العمل فى حيز القبول .

وثمرته الفوز بسعادة الدارين فمنفعته فى الدنيا انتظام امر المعاش بالمحافظة على العدل والمعاملة التى يحتاج اليها فى ابقاء النوع الانسانى على وجه لا يؤدى الى الفساد .

وفى الاخرة : النجاة من العذاب المترتب على الكفر وسوء الاعتقاد(٢٦) .

والمقصود بذلك ان موضوعاته تتصل بالايمان بالله سبحانه وتعالى ذاتا وصفاتا ، ويقتضى الايمان بصفات الله تعالى من العلم والقدرة والحكمة والسمع والبصر وباقى الصفات والاسماء الحسنى التى اثبتها الله تعالى لنفسه ، تؤدى فى الدنيا الى المراقبة والتقوى ، واعتقاد المسلم بموضوعاته من الايمان بعالم الغيب ومعرفة تفاصيله من عذاب القبر وهول المطلع والحساب وصفات الجنة والنار والصراط وغير ذلك ، هذه المعرفة التفصيلية تعطيه ايمانا مفصلا يدفعه الى خشية الله تعالى ومراقبته وتقواه فى السر والعلن ، كما تجعله يتجه الى مرضاة الله طمعا فى جنته وخوفا من ناره . ومحصلة ذلك كله اقامة العدل بين الناس وتحقيق السعادة المتساحة على المستوى البشرى فى الدنيا ثم النعيم المقيم الخالد فى الجنة .

---

(٢٥) شرح الطحاوية ص١ .

(٢٦) شرح عقيدة السفارينى ج١ ص٦٢ .

ودخل علم الكلام عند علماء السنة دور التدوين والتبويب منذ الامام احمد بن حنبل — رحمه الله تعالى — وصار امام اهل السنة ، وسبب ذلك انه عندما ابتلى بالمحنة ، وراج فى عصره مذاهب الاعتزال ، اضطر الى اظهار عقيدة الاوائل والدفاع ، وشرح ما التبس على افهام المعتزلة والكشف عن خطـأ منهجهم ، وهو ما اشار اليه فى مقـدمة كتـابه (الرد على الزنادقة والجهمية) ، فبعد أن حمد الله تعالى الذى جعل فى زمان فترة من الرسـل بقايا من اهل العلم الذين يبصرون الناس ويدعونهم الى الهدى ، اخذ فى شرح سمات المعتزلة فوصفهم بأنهم (مختلفين فى الكتـاب ، مخالفون للكتـاب ، مجمعون على مفارقة الكتاب ، يقولون على الله ، وفى الله ، وفى كتـاب الله بغير علم ، يتكلمون بالمتشابه من الكلام ويخدعون جهال الناس بما يشبهون عليهم)(٢٧) .

ويرى شارح عقيدة السفارينى أن الامام احمـد لما انتصر للسنة ورث على المعتزلة صار هو علم السنة وامامها وصاحبها ومقدامها ، حتى أن أبا الحسـن الاشعرى امام الاشعرية ، انتسب الى الامام احمد ، ورأى أتبـاعه على عقيدته وهو المنهج الاحمد(٢٨) .

---

(٢٧) مقدمة كتاب الرد على الزنادقة والجهمية .

(٢٨) شرح عقيدة السفارينى ص٥٣ .

محـــاورات علماء اهل الحـــديث والسنة مع المعتزلة

بالرغم من تبنى المأمون للمذهب الاعتزالى وفرضه على الناس بالقوة ووسائل الاغراء معا حتى كانت محنة الامام احمد فى قضية خلق القرآن وعانى فيها العلماء ما عانوه ـــ بل عانى المسلمون ايضا حتى امتحن اسرى المسلمين بالقول بخلق القـــرآن والا اعيـــدوا الى اعدائهم !! ـــ بالرغم من كل هذا فقد اخذ علماء الحديث والسنة على عاتقهم اظهـــار الحق ، فحفظت لنـــا المصادر اهم محاورات دارت فى هذا الصدد ، ونعنى بها محاورة الامام احمد بن حنبل وابن داؤد ، ومحاورة عبد العزيز المكى مع بشر المريسى احد كبـــار المعتزلة .

وسنعرض بايجاز لما دار فى هاتين المحاورتين لاستخلاص المنهج وبيان صدق النتائج التى توصل اليها كل من الامام احمد وعبد العزيز المكى :

١ ـــ الامام احمد بن حنبل وابن ابى دؤاد ١٦٤ ـــ ٢٤١ هـ :

لم تمض القرون المفضلة ، حتى خاض علماء الكلام فى مســـائل الذات والصفات ، واثاروا مسائل توقيفية من الحقائق التى اكتفى بها الاوائل بمـــا امدهم به الوحى . وكان لظهور الحديث فى الذات والصفات الالهية بتــأثير الفلسفة اليونانية آثارها الوخيمة على المجتمع الاســـلامى ، فبينما اتجـــه السابقون الى الجهاد ونشر الدعوة ، وصرف الهم الى تدوين العلـــوم التى يجدى بذل الجهود فيها ، تقلص الاهتمام بالجهاد لتتحول الهمم الى مسائل افنى البعض فيها اعمارهم ولم يعودوا فيها بطائل ، اذ ليست عندهم وســـائل الوصول اليها ، ومؤهلات الحكم عليها(٢٩) .

من هنا جاءت المعارضة الشديدة للتيار المخالف لما كان عليه السلف ، بادئا بمعبـــد الجهنى (٨٠ هـ) الذى تكلم فى القـــدر ، ثم غيلان الدمشقى ، فشـاع الكلام بعدهما بواسطة واصل بن عطاء (١٣١ هـ) وتوالى شـــيوخ الاعتزال فى الظهور الى آن تلقف هذا التيار احد خلفاء المسلمين وهو المأمون (٢١٥) فاعتنـــق عقيـــدتهم ، واخذ على عاتقـــه نصرة مذهبهم بالارهاب

---

(٢٩) ابو الحسن الندوى ـــ رجال الفكر والدعوة فى الاسلام ص١١٥ .

والبطش ، فلم ينصت الى أصوات المعارضة التى ارتفعت من الغالبية العظمى للمسلمين . وما من باحث يتعرض لهذه الفترة من الفكر الاسلامى ، الا وتأخذه الدهشة من أساليب المعتزلة ضد خصومهم ، فقد استخدموا أسلوبا مضادا لمبادئهم المعلنة باسم الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ؛ لينكلوا بكل مخالف ؛ فكم من الضحايا المعارضين لهم القى بهم فى السجون ؟ فانكمش اغلب المحدثين والفقهاء يلعقون جراحهم ، حتى أصبح الانتساب الى الاعتزال فاشيا منتشرا ، وكل من كان مستننا كان متخفيا مستترا(٣٠) .

وظهر فى هذه الفترة التى عم فيها الاضطهاد بأشد أساليب القمع ، الامام أحمد بن حنبل ليعلن استمساكه بعقيدة الاوائل ، وكانت محنة (خلق القرآن) هى مركز الدائرة التى دارت حولها المناقشات الكلامية ، وظل الامر كذلك فى أيام المأمون والمعتصم والواثق ، وكان التاريخ وقف عندهم حابسا انفاسه ، ليدون تفاصيلها ، مثبتا ان الرأى لا يمكن أن يدحض الا برأى مضاد ، وان أساليب القوة لا تجدى فى مجال العقائد والافكار . وظلت العقيدة الصحيحة حية تتوارثها الطائفة الظاهرة على الحق .

وقبل التعرض للمحنة ، فانه يجدر بنا تناول الحديث عن الامام أحمد بايجاز .

حياته وعصره :

هو أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال الامام عبد الله . ولد فى ربيع الاول سنة ١٦٤ هـ وتوفى أبوه محمد شابا ، فوليته أمه ، وحفظ القرآن فى صباه وتعلم القراءة والكتابة . وظهر فيه آثار النبوغ مبكرا . اتجه الى الحديث وبقى يتلقى الحديث ببغداد من سنة ١٧٩ هـ الى ١٨٦ هـ ؛ وكان فى طلبه للعلم مثال الجد والحرص والنشاط فقد روى عن نفسه (كنت ربما اردت البكور فى الحديث فتأخذ أمى بثيابى . حتى يؤذن الناس او حتى يصبحوا) .

رحل الى عدة بلاد طالبا للحديث ؛ فسافر الى البصرة ، الحجاز ، اليمن

---

(٣٠) ابن عساكر : تبيين كذب المفترى ص١١٠ .

، مكة ، والى الكوفة . واستمر على الجد والطلب حتى بلغ مبلغ الامامة فى الحديث ، ووصف بأنه أعلم الناس بالسنة وكان معجبا ، استفاد منه فى الفقه والاستنباط ، وكان الشافعى معجبا به ايضا فوصفه بأنه لا احد ببغداد أفقه من ابن حنبل .

وعند الاربعين شرع فى التدريس والفتيا،فاقبل الناس على مجالسه اقبالا عظيما ، ويذكر ابن الجوزى فى مناقبه أن عدد من كانوا يستمعون الى درسه نحو خمسة آلاف . ولكنه كان ينهى حال حياته عن كتابة كلامه ليجمع القلوب على المادة الاصلية العظمى ، ثم استدرك أصحابه ، فنقلوا لنا علمه فانتصرت طريقته(٣١) ، وهذا يدلنا على انه لم يقصد تأسيس مذهب والامر باتباعه .

وقد تعددت المصادر التى وصلتنا تحمل أدق تفاصيل حياة الامام ابن حنبل وآرائه ، ويبدو انه رأى ان يوضح وجهة نظره فى المسائل التى طغت على ثقافة العصر واتجاهاته المختلفة ، وان يدعم المنهـج النقلى مبرزا فى الوقت نفسه مضمونه العقلى فاخرج على هذا الاساس — ضمن مؤلفاته — روائعه الثلاثة : وكلها تحفظ لنا عقائد السلف وآراءهم وسط التيارات المختلفة السائدة فى العالم الاسلامى حينذاك ، فان (المسند) عنى بحفظ الحديث ؛ وكتابه (الرد على الجهمية والزنادقة) يتضح فيه حجاجه العقلى فى أجلى وأدق صورة ، لأنه يفسر القرآن بالقرآن ليوضح ما اشتبه على المخالفين من فهم ، ثم مؤلفه فى (الزهد) الذى يعد وثيقة عن طريقة الاقتداء عند بداية التصوف وانتشاره ، واذ كان معاصرا للحارث المحاسبى .

أما عن سيرته وأخلاقه ، فقد اشتهر بالزهد والعـزوف عن زخارف الدنيا ، وكان يأكل من عمل يده رافضا عطايا الامراء . ويظهر من سيرته فى المحنة شجاعته فى الحق والتشبث به مهما كلفه من آلام ، فقد ظل يواجه حربا ضروسا ، فاستمسك بموقفه فى مواجهة الفقهاء والمتكلمين المعـارضين الذين ساقتهم الدولة العباسية سوء العذاب حينئذ بالقوتين المعنوية والمادية معا (**ولقد ابتلت السنة الاسلامية فى شخصه ، فكان فى صبره — لو صبر — فوزها ونهوضها ، وفى ضعفه — لو فتن — سقوطها وخزلانها**)(٣٢) .

---

(٣١) ابن تيمية — مجموعة نصوص باسم مجموعة علمية ص١٥٢ .
(٣٢) باتون — أحمد بن حنبل والمحنة ص٣٥ .

ويوسعنا أن ننظر الى النتائج المحتملة التى كانت ستترتب على انهياره وتسليمه بآراء خصومه ومن هنا اقترن اسمه باسم الصديق ، فقيل (ابو بكر يوم الردة وابن حنبل فى المحنة) .

ويرى المستشرق باتون فى دراسته عن المحنـــة ان الامام احمـــد ابقى بموقفـــه على السنة ودعم أصولها ، ويذهب الى ابعـــد من ذلك فيذكر أن الاسلام ، اذا كان يبغى المحافظة على جوهره وطابعه ، ليظل اسلاما ، فما من ســـبيل يبلغ به هذه الغاية افضـــل من سبيل المحافظـــة على السنة والاستمساك بعراها(٣٣) .

ومما يوضح لنا منهجه ، ما نقل لنا من كلامه المأثور فى قوله (اصـــول الاســـلام اربعة دال ودليل ومبين والمستدل ، هم أولو العلم وأولو الالبـــاب الذين اجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم(٣٤) .

وظل الامام احمد معظما عند أهل السنة والجماعة .

يقول شارح عقيدة السفارينى فى نسبة المذهب السلفى الى الامام احمد (وانما نسب لامامنا الامام احمد لانه انتهى اليه من السنة . قال بعض شيوخ المغاربة : المذهب لمالك والشافعى وغيرهما من الائمة والظهور للامام احمد بن حنبل)(٣٦) .

منهجـــه مع المتكلمين :

ضمن الامام احمد كتابه (الرد على الزنادقة والجهمية) آراءه فى الرد على المتكلمين فرميهم بأنهم يقولون على الله،وفى الله،وفى كتاب الله بغير علم، يتكلمون بالمتشابه ، ويخدعون جهال النـــاس بما يشبهون عليهم . ومضى فى كتابه سالكا طريق تفسير الكتاب بالكتاب فيما أثاروه من شبهات ، ففنـــدها جميعا ، مبينا التفسير الصحيح .

وسنعتمد على هذا الكتاب فى ايراد المسائل التى خاض فيهـــا المعتزلة

---

(٣٣) ولتربياتون — ابن حنبل والمحنة ص٣٥ .

(٣٤) ابن تيمية — النبوات ص٤٢ .

(٣٦) شرح عقيدة السفارينى ص٦٤ ط المنار سنة ١٣٢٣ هـ .

بخاصة . من ذلك انكارهم رؤية الله تعالى فى الآخرة ، فبين ابن حنبل أن تفسير الآية (وجوه يومئذ ناضرة) يعنى الحسن والبياض (الى ربها ناظرة) يعنى تعاين ربها فى الجنة . ومضى شارحا تفسير الآية الاخرى (لا تدركه الابصار) بأنها تعنى فى الدنيا والآخرة ، وذلك أن اليهود قالوا لموسى (أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة وقد سألت مشركو قريش النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا (أو تأتى بالله والملائكة قبيلا) ، فنزل قوله تعالى (أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل) وأوحى الله الى رسوله أنه لا تدركه الابصار ، أى لا يراه أحد فى الدنيا ، دون الآخرة .

ولا تعرض بين الآية الاولى التى تخبر برؤية المؤمنين لربهم عز وجل فى الجنة ، والآية الثانية التى تعنى استحالة رؤية الله سبحانه وتعالى فى الدنيا(٣٥) .

ويفند الامام أحمد دعوى الجهمية فى نفى الصفات عن الله تعالى ، ويوضح لنا جذور المسألة ، وعلة اتخاذهم لهذا الموقف ، فيذكر لنا ما بلغه من أمر الجهم وينسب نفيه للصفات الالهية ، فقد كان الجهم من أهل خراسان ، صاحب خصومات وكلام ، فلقى اناسا من المشركين يقال لهم السمنية (نسبة الى سومنات بلدة بالهند وهم البوذيه) فعرفوا الجهم ، فناقشوه ، مطالبين اياه بتقديم الحجة على صحة دينه . وسألوه :

— ألست تزعم ان لك الهـا ؟ قال الجهم . نعم ، فقالوا له فهل رأيت الهك ، قائلا ، لا ، قالوا — فهل سمعت كلامه .

سألوه — هل رأى ربه أوسمعه ، أو وجد له حسا ، ومضوا فى هذه الاسئلة المشبهة لله عز وجل بصفات المخلوقين ، فتحير الجهم فلم يدر من يعبد أربعين يوما ، ثم استدرك حجة مثل حجة النصارى فى زعمهم أن الروح الذى فى عيسى هو روح الله ، فاستدرك حجة مثل هذه الحجة فقال للسمنى

— ألست تزعم أن فيك روحا ؟ قال نعم فقال هل رأيت روحك ، .. واستمر فى توجيه نفس الاسئلة وكان جواب السمنى بالنفى ، فظن أن هذا

---

(٣٥) ابن حنبل — الرد على الزنادقة والجهمية ص٥٩ .

انحام ، اذ ختم اسئلته بقوله (فكذلك الله لا يرى له وجه ولا يسمع له صوت ولا يشم له رائحة ، وهو غائب عن الابصار ، ولا يكون فى مكان دون مكان .
ويرى الامام احمد أن الجهم يعتمد فى حججه على ثلاث من المتشابه . قوله (ليس كمثله شيء) (وهو الله فى السموات والارض) و (لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار) ، فتأول القرآن على غير تأويله ، وكذب بأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وزعم أن من وصف الله بشيء مما وصف به نفسه فى كتابه أو حدث عنه رسوله ، كان كافرا ، وكان من المشبهة ، وتبعه قوم،منهم،أصحاب عمروبن عبيدة بالبصرة،سألهم الناس عن قول الله (ليس كمثله شيء) اجابوا (ليس كمثله شيء من الاشـــــياء ، وهو تحت الارضين السبع ، كما هو على العرش ، ولا يخلو منه مكان ، ولا يكون فى مكان دون مـــكان ، ولم يتكلم ولا يتكلم ، ولا ينظـــر اليـــه احد فى الدنيـــــا ، ولا فى الآخرة ، ولا يوصف ، ولا يعرف . . ولا يدرك بعقل ، وهو وجه كله ، وهو علم كله ، وهو سمع كله ، وهو بصر كله ، وهو نور كله ، وهو قدرة كله . .

ويرى الامام أحمد أن الزامات مذهبهم تؤدى الى انهم لا يؤمنون بشيء — ويوجه اليهم بدوره الاسئلة لاستدراجهم للاقرار .

ويسألهم : —

— من تعبدون ؟ فاذا قالوا انهم يعبدون من يدبر أمر هذا الخلق ، قيل لهم (هذا الذى يدبر أمر هذا الخلق هو مجهـــول لا يعرف بصفة . قالوا — نعم — فقلنا — قد عرف المسلمون أنكم لا تؤمنون بشيء ، لأن هذا الذى يدبر هو الذى كلم موسى . قالوا لم يتكلم ولا يكلم ، لأن الكلام لا يكون الا بجارحة والجوارح عن الله منفية .

وهكذا يوهمون البعض بأنهم من اشد الناس تعظيما لله ، بينما يعود قولهم الى ضلالة وكفر(٣٧) .

ويمضى الامام فى بيان تفصيل ما جحـــدته الجهمية ، شارحا معـــانى الآيات القرآنية التى يستندون اليها ، فى الرؤية ، وصفة الاستواء ، وعلو الله تعالى على خلقه : —

---

(٣٧) ابن حنبل — الرد على الزنادقة ص٧ — ٦٩ .

قالوا فى تفسير الآية (**وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة**) ، انما تنظر الثواب من ربها وصحتها انها مع ما تنتظر الثواب ترى ربها ، وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم (انكم ستروون ربكم) ويؤيد ذلك تفسير قوله تعالى (للذين احسنوا الحسنى وزيادة) ان الزيادة هى النظر الى وجه الله تعالى . وعلى عكس ذلك فان الكفار سيحجبون عن الله فى قوله تعالى (**انهم عن ربهم يومئذ لمحجبون**) . فاذا كان الكافر يحجب عن الله ، **والمؤمن يحجب عن الله ، فما فضل المؤمن على الكافر ؟**

ويستند ابن حنبل الى الآيات القرآنية المثبتة بأن الله تعالى على العرش كقوله (**الرحمن على العرش استوى**) و (خلق السموات والارض فى ستة ايام ثم استوى على العرش) بينهما يزعم الجهمية انه سبحانه على العرش وفى السموات وفى الارض وفى كل مكان ولا يخلو منه مكان استنادا الى الآية ؛ وهو الله فى السموات وفى الارض) . فيتساءل (قد عرف المسلمون أماكن كثيرة ليس فيها من عظم الرب شىء) ويضرب الامثلة على ذلك . اجسام البشر واجوافهم واجواف الخنازير والاماكن القذرة ، بينما أخبرنا الله انه فى السماء فقال (أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الارض) ، (أم أمنتم من السماء أن يرسل عليكم حاصبا) وقال (اليه يصعد الكلم الطيب) ، وقال (أنى متوفيك ورافعك الى) وقال (بل رفعه الله اليه) وغيرها من الآيات ؛ بينما وجدنا كل شىء اسفل منه مذموما . كقوله جل ثناؤه (ان المنافقين فى الدرك الاسفل من النار) . (وقال الذين كفروا ربنا ارنا اللذين اضلانا من الجن والانس نجعلهما تحت اقدامنا ليكونوا من الاسفلين) .

أما معنى الآية (**وهو الله فى السموات وفى الارض**) التى اخطأ فى تفسيرها الجهمية ، فهى تعنى انه اله من فى السموات واله من فى الارض . وهو على العرش احاط علمه بما دون العرش ؛ ولا يخلو من علم الله مكان ولا يكون علم الله فى مكان دون مكان . فذلك قوله (لتعلموا ان الله على كل شىء قدير وأن الله قد احاط بكل شىء علما) .

وواضح من منهج الامام أحمد انه يقرن الدليل الشرعى بالنظر العقلى ؛ فيتقدم الآية القرآنية ، مقترنة بالتفسير الصحيح للناظر الى القرآن بتدبر فى شموله (ففى هذا دلالة وبيان **لمن عقل عن الله . فرحم الله من فكر** . ورجع عن القول الذى يخالف الكتاب والسنة)(٣٨) .

---

(٣٨) الرد على الزنادقة ص٧٧ .

ويلجأ الى الحجة العقلية لاثبات الصفات الالهيــة مع توحيد اللــه عز وجل ، ماذا قلنا ان الله لم يزل بصفاته كلهــا ، أليس انما نصف الهــا واحدا بجميع صفاته ؟ **ومثال ذلك النخلة** ، لهــا جذع وكرب وليف وسعف وخوص وجمار واسمها اسم شيء واحد وسميت نخلة بجميــع صفاتها . فذلك الله وله المثل الاعلى بجميع صفاته اله واحد(٣٩) .

وما أوقع الجهمية فى الخطأ ، تفسيرهم لآيات **المعية الالهية** ، فرأوا أن الله سبحانه وتعالى بذاته معهم فى كل مكان ، مؤيدين ذلك بمثل قوله تعالى (ألم تر أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الارض ، ما يكون من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم ، ولا خمسة الا هو سادســهم ولا ادنى من ذلك ولا أكثر إلا وهو معهم اينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة أن الله بكل شيء عليم) .

ولكن ابن حنبل يسلك معهم طريقين لاثبات خطأ تفسيرهم — الاول ، لفت نظرهم الى أن الآيات الســالفة الذكر بدأت بعلم الله وختم بعلمه ، فالمعية اذن مع العباد ليست **بالذات ولكن بالعلم** ، فالله تعالى مع عباده بعلمه اينما كانوا . هذا هو التفسير الصحيح .

ويسلك الطريق الثانى بالحجاج العقلى ، فيفحم الخصم بوضع الاسئلة المتعددة التى تضطره الى اختيار احدى الاجابات ، فيلزمه بالخطأ أو يفحمه فيغير رأيه .

ونترك الامام يتكلم هنا **بأسلوبه الجدلى** فى نقاشه مع احد الجهمية :

— اذا اردت أن تعلم أن الجهمى كاذب على الله حين زعم أن الله فى كل مكان ، ولا يكون فى مكان دون مكان فقل : أليس الله كان ولا شيء فيقول نعم . فقل له : حين خلق الشيء خلقه فى نفسه أو خارجا من نفسه فانه يصير الى ثلاثة اقوال لابد له من واحد منها . ان زعم ان الله خلق الخلق فى نفسه كفر ، حين زعم أن الجن والانس والشياطين فى نفســه .

وان قال : خلقهم خارجا من نفسه ثم دخل فيهم . كان هذا كفرا ايضــا حين زعم انه دخل فى مكان وحش قذر ردىء .

---

(٣٩) نفس المصدر ص٩١ .

وان قال خلقهم خارجا عن نفســـه ثم لم يدخل فيهم رجـــع عن قوله جمع . وهو قول أهل السنة .

ومثل هذا النص يعطينا صورة عن طريقة الجدل عند الامام ، بل ان كثر اجزاء كتابه تمضي على هذا النحو القائم على نظر عقلي محض . ويجعلنا درك انه تصدى للمعتزلة بالمنهج العقلي قبل ظهور المذهب الاشعري بزمن لويل .

وها نحن امام نموذج ثاني من نمـــاذج الاستدلالات العقلية المؤدية الى نحام الخصم واقراره بخطئه ، واضطـــراره الى التنـــازل عن رأيه . ففي ناقشه لاثبات علم الله تعالى ، يقول — اذا اردت ان تعلم ان الجهمى لا يقر علم الله فقل له : الله يقول (ولا يحيطون بشيء من علمه) . ويسـرد آيات خرى تصف الله عز وجل بالعلم . فان قال الجهمى : ليس له علم ، كفر . ان قال لله علم محدث ، كفر ، حين زعم ان الله قد كان في وقت من الاوقات ' يعلم حتى أحدث له علما فعلم . فان قال : لله علم وليس مخلوقا ولا محدثا، جع عن قوله كله ، وقال بقول اهل السنة .

لمحنـــــة :

نفى المعتزلة الصفات الالهية كما بينا في أصل من أصولهم وهو التوحيد . لكنهم خرجوا على هذا الاصل عندما تطرقوا الى صفة الكلام الالهى ، فلم قولوا بأنه متكلم وكلامه ذاته خشية ان يتساوى كلام الله عز وجل مع ذاته يكون هناك قديمان مما يؤدي الى الشرك ، ولهذا فانهم يرون أن كلام الله . أى ان القـــرآن — مخلوق محـــدث وغير قديم . فيحدثه وقت الحاجة الى كلام ، مفسرين تكليم الله موسى بأن الله خلق الكلام في شـــجرة فسمعه وسى عليه السلام(٤٠) .

وأصدر المأمون سنة ٢١٨ رسالة الى والى بغداد يأمره فيها بجمـــع

---

(٣٩) د . ابو ريان — تاريخ الفـــكر الفلسفي في الاسلام ص١٩٤ — ١٩٥ .

القضاة وامتحانهم فى عقيدة خلق القرآن وعزل من لا يقول بذلك منهم واسقاط شهادة من لا يراها من الشهود ، وأمره بأن يجمع الفقهاء وشيوخ الحديث فى داره ويمتحنهم بهذه العقيدة فأجابوا ، ثم ضيق الامر وأمر بالتوسع فى امتحان الناس ، فأحضر كبار العلماء ورؤس الناس وامتحنهم ، وانتهى الامر بعدد مكاتبات واوامر مشددة من المأمون للموالى الى الاقرار من الجميع بأن القرآن مخلوق الا اربعة — احمد بن حنبل ، وسجادة ، والقواريرى ، ومحمد بن نوح .

وتنقل لنا معظم المصادر التاريخية النقاش الدائر بين الامام احمد بن حنبل ممتحنيه ، وكان يرفض القول بالايجاب أو السلب عندما يسأل هل القرآن مخلوق ؟) ، فمن اجاباته (ليست بصاحب كلام ، ولا أرى الكلام فى شىء من هذا الا ما كان فى كتاب أو حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم او عن اصحابه ، فأما غير ذلك فان الكلام فيه غير محمود) .

كان المحرك للمناقشات القاضى ابن ابى دؤاد* المعتزلى الذى يتعجب من اجابة الامام لانه لا يستند الا لكتاب الله او سنة رسول الله صلوات الله عليه !!

---

*احمد بن ابى دؤاد :

أحمد بن ابى دؤاد (على وزن فؤاد) بن على ابو سليمان ، يكثر ذكره اذا ما تطرق الحديث الى محنة القرآن . كان قاضيا ، ثم أصبح وزيرا نافذ الكلمة عند الخلفاء الثلاثة : المأمون (٢١٨ هـ) والمعتصم (٢٢٧ هـ) والواثق (٢٣٢ هـ) ، لاسيما الثانى منهم حتى قيل أنه ما رؤى أحد قط اطوع لاحد من المعتصم لابن دؤاد . وتشير المصادر الى اهتزاز هذه المكانة لدى الواثق ، ثم انهارت تماما أمام المتوكل ، اذ رفع المحنة بخلق القرآن واظهر السنة وأمر بنشر الآثار النبوية وأكرم الامام أحمد بن حنبل وقدمه . ويقال أن الواثق قبله قد ترك الاشتغال بالمحنة بعد أن أفحم أحد الشيوخ القاضى ابن ابى دؤاد فى جدال دار أمام الواثق — كما سيأتى .

وابن ابى دؤاد احد القضاة المشهورين من المعتزلة ، نشأ بدمشق ومنها رحل الى بغداد ، وهو اول من افتتح الكلام مع الخلفاء . كان بليغا ، جوادا ، عارفا بالاخبار والانساب ، ولكنه اثار اهل السنة عليه بموقفه فى المحنة . يقول الخطيب البغدادى (لولا ما وضع من نفسه من محبة المحنة لاجتمعت

ثم يدور الحوار بأسلوب جدلي اذ يتعرض القاضي لبعض الآيات القرآنية لاستخراج معنى الخلق — كقوله تعالى (**ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث الا استمعوه وهم يلعبون**) ، ومن صيغة السؤال الموجه للامام احمد ، حاول ابن ابي دؤاد الوصول الى اجابة ملزمة ، فسأل (**افيكون محدث الا مخلوق**) ؟ فأجاب ابن حنبل (قال الله تعالى « ص ، والقرآن ذى الذكر) **فالذكر هو القرآن** ، ويحتمل أن يكون ذكرا آخر غير القرآن ، وهو ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم أو وعظه اياهم .

عليه الالسن) ، وذلك لأنه اتسم بكريم الخصال ، فقد كان موصوفا بالجود والسخاء وحسن الخلق ووفور الادب .

اصيب بالفالج قبل موته باربع سنين ، ونكب واهين ، وظلت عداوة أهل السنة ثابتة في صفحات الكتب عند الحديث عنه . وظهرت عداوة الغالبية له في مرضه الذي مات فيه ، وكلما كان مناسبة لاظهار الحنق عليه والازدراء به . وربما كان ذلك دليلا على ما اثاره من السخط في النفوس : فقد دخل عليه بعضهم فقال له مخاطبا (والله ما جئت عائدا وانما جئتك لاعزيك في نفسك واحمد الله الذي سجنك في جسدك الذي هو أشد عليك عقوبة من كل سجن) .

ولد حوالي ١٦٠ هـ ومات سنة ٢٤٠ هـ .

وقد عنيت معظم كتب تاريخ المسلمين — كالطبرى والبغدادى وابن الاثير وابن خلكان اليعقوبى — وكتب التراجم ايضا بمحنة خلق القرآن وسجلت تفاصيلها من حيث آراء المتنازعين فيها بدقائقها وأسماء الشيوخ الذين اجابوا بخلق القرآن ، والذين رفضوا الاذعان بالرغم من صنوف التعذيب والتنكيل — وفي مقدمتهم الامام احمد بن حنبل — ومن ثنايا المحاكمات التي أجريت للامام احمد — وكان على رأسها ابن أبي دؤاد — والمناقشات التي جرت بين المتناظرين ، يمكن أن نستخلص آراء ابن ابي دؤاد من حيث منهجه الكلامي ، ونفس الصفات الالهية ، ونفس الرؤية ، وهي الموضوعات الرئيسية التي اثارت الجدل حينذاك . وقد احتضن القاضي ابن ابي دؤاد عقيدة المعتزلة في هذه المسائل ، وكان المحرك الحقيقي للمناظرات الدائرة حولها ، والتي اتخذت من محنة خلق القرآن المحور الاساسي لها .

والمحنة لغويا ما يمتحن به الانسان من بلية وشدائد ، واصطلاحا ترتبط بما اتفق عليه المؤرخون من اتخاذ موضوع خلق القرآن موضوعا لها ، وكان أول من عقدها الخليفة المأمون وتابعه المعتصم والواثق . وفكرة خلق القرآن تنتمي الى قضية نفي الصفات عموما ، والتي تستند الى مبدأ التوحيد المعتزلي

فسأل القاضي : — أليس الله قال : (الله خالق كل شيء) ؟

فأجاب ابن حنبل : — قد قال (تدمر كل شيء) فدمرت الا ما أراد الله .

ومن ثم القول بأن القرآن مخلوق . يقول القاضي عبد الجبار (وليس هذا يعني أن الله أحدث الكلام في ذاته ولكنه أحدثه في محل) وقد اشترط المعتزلة أن يكون (المحل) جمادا حتى لا يكون هو المتكلم دون الله ، لاعتقادهم بأن حقيقة المتكلم من أحدث الكلام وخلقه لا من قام الكلام به .

ويذهب المعتزلة الى أن كلام الله عز وجل من جنس الكلام المعقول في الشاهد وهو حروف منظومة وصوات مقطعة . وهو عرض يخلقه الله سبحانه وتعالى في الاجسام على وجه يسمع ويفهم معناه . فالقرآن اذا مخلوق محدث مفعول ، لم يكن ثم كان ، وأنه غير الله عز وجل ، وأنه أحدث بحسب مصالح العباد .

وتنسب المشكلة الى أول من أثارها وهو الجعد بن درهم (١٢٤ هـ) وتذكر مصادر أهل السنة أن مصدر المشكلة يهودي ، فيروى ابن عساكر أن الجعد أخذ مصادر بدعته من بيان بن سمعان ، وأخذها بيان عن طالوت ابن أخت لبيد بن أعصم وأخذها لبيد ابن أعصم الساحر الذي سحر رسول الله صلى الله عليه وسلم من يهودي باليمن . وأخذ عن الجعد الجهم بن صفوان ثم أخذ بشر المريسي عن الجهم ، وأخذ بن أبي دؤاد عن بشر .

وعن امتحان العلماء والفقهاء في هذه المحنة أجابوا جميعا بأن القرآن مخلوق ما عدا أربعة وهم : أحمد بن حنبل ، ومحمد بن نوح ، وعبد الله بن عمر القواريري والحسن بن حماد . ثم أجاب عبيد الله بن عمر والحسن بن حماد ، وبقى الامام أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح في السجن لرفضهما الاجابة .

أهم المصادر عنه :

— القاضي أبو الحسن عبد الجبار (المغني في أبواب التوحيد والعدل ؛ الجزء السابع : خلق القرآن — وزارة الثقافة والارشاد ١٣٨٠هـ — ١٩٦٠م

— الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد — الجزء السابع ط الخانجي ١٣٤٩هـ — ١٩٣١ م .

— الخياط : الانتصار والرد على ابن الراوندي الملحد ط دار الكتب ١٣٤٤هـ ١٩٢٥م .

— الذهبي : كتاب دول الاسلام ط حيدر آباد ١٣٤٦ هـ .

— ابن خلكان : وفيات الاعيان الجزء الاول ١٣٥٥ هـ — ١٩٣٦ م .

— ابن كثير : البداية والنهاية الجزء العاشر — مطبعة السعادة بمصر .

— ابن الجوزي : مناقب الامام أحمد بن حنبل ط الخانجي ١٣٤٩ هـ .

وعندما سئل مرة اخرى (أتقول ان القرآن مخلوق) ؟ قال ابن حنبل (القرآن كلام الله لا أزيد على هذا) ، فعاد تسأله **(ما تقول في كلام الله)** ؟ فأعاد اليه الامام أحمد السؤال بصيغة أخرى **(ما تقول في علم الله)** ؟

وكانت هذه الحجة مفحمة لابن أبي دؤاد ، لأن الاقرار بأن القرآن علم الله يعادل في نظره أن القرآن جزء لا ينفصل عن علم الله تعالى ، فاذا قالوا بأن هذا العلم غير مخلوق ، فالقرآن تبعا لذلك ينبغي أن يكون غير مخلوق .

ودفع عبد الرحمن بن اسحق القاضي المناقشة الى نقطة ابعد من ذلك وهي **(أكان الله ولا قرآن ؟) فرد الامام بحجة مماثلة (أكان الله ولا علم ؟)** .

ويعبر لنا ابن اسحاق عن راى المعتزلة بسؤاله ابن حنبل (ما تقول في هذه الرقعة) ؟ فقال **(ليس كمثله شيء وهو السميع البصير)** وقد لاحت عندئذ الفرصة لانتقال الامتحان الى مسألة جديدة وهي المتصلة بصفات الله سبحانه — وعلى راى المعتزلة غير منفصلة عن الذات الالهية — اى أنهم يقولون بأن الله تعالى حي بذاته ، قادر بذاته ، وهكذا في سائر الصفات ، أى انها ليست زائدة على الذات . وهنا سأل اسحق الامام أحمد (ما أردت بقولك سميع بصير) ؟ وربما أراد ان يستخرج منه اجابة يلزمه بها بالتشبيه أو التجسيم ، ولكن ابن حنبل أجاب بقوله (أردت منها ما أراده الله منهـا ، وهو كما وصف نفسه ، ولا أزيد على ذلك) .

ويبدو ان هذه المناقشات قد تسربت الى الجماهير الغفيرة من المسلمين ، فضلا عن علمائهم ، فقد كانت القلوب تحيط بالامام ، مشفقة عليه تخشى عليه من الوان الاذى التى اصيب بها . ولم يستطع السلطان الكبير المأمون واتباعه أن ينالوا من مكانة الشيخ في قلوب المسلمين الذين اتخذوه اماما لهم . ونعثر في هذا الصدد على عبارة قالها احد اولئك الذين حاولوا شد أزره في المحنة ، قال له (وانك رأس الناس اليوم ، فاياك أن تجيبهم الى يدعونك)(٤١) .

وقد ترددت حجج الامام احمد على الالسنة ، وأخذت مكانها في الرد على أهل الاعتزال .

---

(٤١) ابن كثير — البداية — جـ١٠ ص٣٣٢ .

وتنقل لنا كتب التاريخ المناظرة بين الاذرى شيخ ابى داود والنسائى ، وبين ابن ابى دؤاد محامى المعتزلة ، أمام الخليفة الواثق .

وقد تمت المناظرة على النحو التالى :

وجه الامام عبد الله الاذرى الاسئلة الثلاثة الآتية الى ابن ابى دؤاد :

الاول : هل ستر الرسول صلى الله عليـــه وسلم شيئا مما أمره الله عز وجل فى أمر دينهم ؟

الثانى : حين انزل ا لقرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى (اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا) .

هل كان الله تعالى الصادق فى اكمال دينه او انت الصادق فى نقصانه حتى يقال فيه بمقالتك هذه ؟

وقد قوبل السؤالين بالصمت بلا اجابة .

الثالث : اخبرنى عن مقالتى هذه ، علمها رسول الله ام جهلها ؟ ماجاب ابن أبى دؤاد:علمها قال الامام احمد:فدعا الناس ؟ فسكت . وهنا علق الاذرى قائلا (فكيف وسعه صلى الله عليه وسلم ان ترك الناس ولم يدعهم اليـــه وانتم لا يسعكم ؟) .

فبهت الحاضرون وامر الواثق بخلاص الامام الاذرى وقد علق الذهبى على هذا الافحام بقوله : انه الزام صحيح وبحث لازم للمعتزلة(٤٢) .

ومن هذا يتضح كيف أعتبر المعتزلة الاعتقاد بخلق القـــرآن المحـــور الاساسى فى العقيدة حتى امتحنوا بها الاسرى المسلمين . فكأنهم اضــــافوا للاسلام اصلا جديدا بعد كماله . ومن هنا اثار الشيخ الاذرى الاية القرآنية الآنفة .

---

(٤٢) تاريخ الخلفاء للسيوطى .
(واسم الامام كاملا ابو عبد الرحمن عبد الله بن محمد الاذرى شيخ ابى داود والنسائى) .

والسؤالان الثاني والثالث يوضحان هذا الغرض .

وتنتهي المحنة ، وتسدل الستار عن ملساة كادت تطيح بالمنهج الاسلامي المتوارث من السلف ، وخلفت لنا مغزى بالغ الاهمية ، يتمثل في النزاع بين طرفين : أحدهما المأمون الذي جعل من الاعتزال مذهبا رسميا ، يحميه ويدعو اليه بالقوة ، نيدين به أصحاب المناصب والجاه والنفوذ ، وجعل من عقيدة الاعتزال التفسير الوحيد للاسلام ، فكانت محنة عظيمة على الامة ، وفكرة فلسفية ضاق عنها تفكير العامة وضاقت بها نفوس(٤٣) .

وتظهر مأثرة الامام أحمد الكبرى التي اكسبته مكانة التجديد ، في وقوفه سدا منيعا في اتجاه الامة الى التفكير الفلسفي الذي لو سيطر على هذه الامة لانقطعت صلتها بالتدريج من منابع الدين الاولى ومن النبوة المحمدية وخضعت للفلسفات وأصبحت عرضة للآراء والقياسات ، فحفظ الدين من أن يعبث به العابثون أو تتحكم فيه السلطة والاهواء(٤٤) .

واذا توقفنا برهة لنتساءل عن سر هذا الاهتمام الكبير بالمحنة من وجهة نظر السلف ، ولم كتبوا عشرات الكتب في الدفاع عن القرآن واثبات انه كلام الله تعالى ، فلن نفتقد الاجابة بين طيات الصفحات . انهم خشوا من الآثار المرتبة على اعتقاد ان القرآن مخلوق ، فضلا عن ضياع الهيبة من القلوب ، وافتقاد الخشية والخوف من كلام الله ، فان القائل (ان هذا القرآن مخلوق) او (أن القرآن المنزل مخلوق) كان بمنزلة المعتقد ان هذا الكلام ليس هو كلام الله(٤٥) .

---

(٤٣) ابو الحسن الندوي : رجال الفكر والدعوة ص١٢٣ .

(٤٤) نفس المصدر ص١٤٤ .

(٤٥) ابن تيمية موافقة جـ١ ص١٥٧ تحقيق الفقي .

٢ ـ عبد العزيز المكي ، وبشر المريسى

المنهـــج :

حرص عبد المكي على بيان المنهج اولا ، فقال (ولنجعل بيننا اصلا فاذا اختلفنا في شيء من الفروع رددناه الى الاصل ، فان وجدناه فيه والا رمينا به ولم نلتفت اليه . ثم وجه الحديث الى المأمون عندما سأله عن الاصل بينه وبين بشر المريسى (٢١٨ هـ) قال (يا امير المؤمنين بيني وبينه ما امرنا الله عز وجل واختاره لنا وعلمناه وادبنا به في التنازع والاختلاف ، ولم يكلنا الى غيره ، ولا الى انفسنا واختيارنا فنعجز) .

فطالبه المأمون بأصل ذلك في كتاب الله فتلى المكي قول الله تعـالى (يا ايها الذين آمنـوا اطيعـوا الله واطيعـوا الرســول واولى الامر منكم فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير واحسن تأويلا) فهذا تعلم من الله وتأديبه واختياره لعبــاده المؤمنين ما أصله المتنازعون بينهم ، وقد تنازعت انا وبشر يا امير المؤمنــين وبيننا كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم كمـا امر الله عز وجل ، فاذااختلفنا في شيء من الفروع رددناه الى كتاب الله ، فان وجدناه فيه والا الى سنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، فان وجدناه فيها والا ضربناه في الحائط ولم نلتفت اليه) .

وقد اقر المأمون هذا المنهج ، فقال (فاجعلا واصلا بينكما هذا واتفقـا عليه ، وانا الشاهد عليكما ، والحافظ لما يجرى بينكما (٤٦) .

وسنعرض في الصفحات التالية لابرز المسائل التي دار حولها الحوار وهي عن صفات الله تعالى وقضية القرآن الكريم .

صفات الله عز وجل :

حاول بشر المريسى أولا جعل عبد العزيز المكي يقر بأن القـرآن شيء ،

---

(٤٦) الحيدة ص١٢ .

فان كان المراد بأنه شيء اثباتا للوجود ونفيا للعـدم ، فانه شيء ، وان كان المراد أن الشيء اسم له وانه كالاشياء فليس كذلك .

وقد اقام عبد العزيز الدليل على ذلك بقول الله تعالى (وما قدروا الله حق قدره اذ قالوا ما انزل الله على بشر من شيء قل من انزل الكتـاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا) . فذم الله من نفى ان يكون كلامه الذي انزله على رسوله شيئا ، ولكنه في آية اخرى اخبرنا تعالى بأنه لا كالاشياء حتى لا يدخله الملحدون في جملة الاشياء ، فاظهره باسم الكتاب والنور والهدى فقال لنبيه صلى الله عليه وسلم (قل من انزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس) .

وازاء اصرار قول بشر بأن القرآن شيء كالاشياء ليدعم عقيدته في خلق القرآن ، وطالب باتيان الدليل بنص التنزيل ، فاحتج عبد العزيز بآيات كثيرة من القرآن كقوله تعالى (انما قولنا لشيء اذا اردنا أن نقول له كن فيكون) وقوله عز وجل (اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون) فدل سبحانه وتعالى بهذا الاخبار واشباه لها في القرآن كثير على ان كلامه ليس كالاشياء وانه غير الاشياء وانه خارج عن الاشياء وانه يكون الاشـياء . ثم انزل الله عز وجل خبرا مفردا ذكر فيه حق الاشياء كلها ، فلم يدع منها شيئا الا ذكره واخذ له في خلقه واخـرج كلامه وامره من جملة الخلق وفصله منهـا ليدل على أن كلامه غير الاشياء المخلوقة وخارج عنها فقال (ان ربكم الله الذي خلق السموات والارض في ستة ايام ثم استوى على العرش يغشي الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بامره الا له الخلق والامر تبارك اللـه رب العالمين) .

فجمع سبحانه وتعالى في قوله (الا له الخلق) جميع ما خلق فلم يدع منه شيئا ثم قال (والامر) يعني والامر الذي كان به الخلق خلقا ، ففرق بين خلقه وامره فجعـل الخلق خلقـا والامر امرا ، وجعـل هذا غير هذا وقال (وما امرنا الا واحدة كلمح بالبصر) ، وقال (لله الامر من قبل ومن بعد) .

ومن هذه الآيات وآيات اخرى سردها عبد العزيز المكي حتى طلب منه المأمون الاختصـار ، فاوضح بعد ذلك أن الله تعـالى قد أخبر عن خلق

السموات والارض وما بينهما فلم يدع شيئا من الخلـق الا ذكره فاخبر عن خلقه انه ما خلقه الا بالحق ، وان الحق قوله وكلامه الذى به خلق الخلـق كله ، وانه غير الخلـق وانه خارج عن الخلق ، وغير داخل في الخلق **وهذا نص التنزيل**(٤٦) .

ولكن بشر لم يوافقه على هذا الذى ذهب اليه ، وراى ان عبد العـزيز جاء باشياء متباينات متفرقات مدعيا ان الله خلق بها الاشياء .

قال عبد العزيز : ان الله تعالى خلق الاشـياء **بقـوله وكلامه وامره وبالحق** فاعترض بشر على قوله لانه جاء باشياء متباينات متفرقات مدعيا ان الله تعالى خلق بها الاشياء . فاخذ المكى فى بيـان كلامه وشرحه بان بين ان هذه اربعة اشياء لشيء واحد ، لان كلام الله هو **قوله** وقول الله هو **كلامه** وأمر الله هو **كلامه** وكلام الله هو **أمره** وكلام الله هو **الحق** والحق هو **كلام الله فهذه أسماء لكلام الله** ، واوضح ان الله تعالى سمى كلامه **نورا وهدى وشفاء ورحمة وقرآنا وفرقانا وبرهانا وسماه الحق** ، وهذهاشياء شتى لشيء واحد وهو كلام الله كما سمى نفسه باسماء كثيرة وهو واحد صمد فرد .

وانما ينكر بشر هذا ويستعظمه لقلة معرفته بلغة العرب .

وهنا ظن بشر ان عبد العزيز يستخدم التاويل لا التنزيل ويخالف المنهج الذى اصله منذ البداية . ولكن عبد العزيز اعاد الى سمعه الآيات الدالة على ما ذكره ، كقول الله تعـالى (وان احد من المشركين استجارك فاجره حتى يسمع **كلام الله**) ،وانما يسمعه من قارئه وانما عنى القرآن لا خلاف بين اهل العلم واللغة فى ذلك . وقال تعالى (سيقول المخلفون اذا انطلقتم الى مغانم لتأخذوها ذرونا نتبعكم يريدون أن يبدلوا **كلام الله** قل لن تتبعونا كذلك قال الله من قبل) . وقال الله عز وجل (واذا قيل لهم آمنوا بما انزل الله قالوا نؤمن بما انزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو **الحق** مصدقا لما معهم) ، وآيات أخرى مثل قوله تعالى (أم يقولون افتراه بل هو **الحق** من ربك) وقال (واذا سمعوا ما انزل الى الرسول ترى اعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من **الحق**) .

---

(٤٦) الحيدة ص١٨ .

وهذه الآيات وغيرها يتضح منها ان الله تعالى اخبر عن القـرآن انه الحق كما اخبر أن الحق قوله (قال فالحق والحق اقول) فاخبر انه الحق وان الحق قوله وقال (ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنـة والنـاس اجمعـين) وقال (حتى اذا فزع عن قلـوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق)(٤٧) .

كما اخبر الله تعالى ان أمره هو القرآن وهو كلامه ، فقال (حم والكتاب المبين انا انزلناه فى ليلة مباركة انا كنا منذرين فيهـا يفرق كل امر حكيم أمرا من عنـدنا انا كنا مرسلين) يعنى القـرآن . وقال (ذلك أمر الله انزله اليكم)(٤٨) .

وثبت بذلك أن القرآن أمر الله تعالى وكلامه وأن امره هو القرآن وهنا قال عبد العزيز المكى (وهذا تعليم الله لخلقه وتأديبه لهم فثلت كما قال الله ان القرآن كلام الله . وانه أمر الله . وانه الحق . وان هذه أسـماء لشيء واحد وهو الكلام الذى به خلقت الاشياء وهو غير الاشياء وخارج عن الاشياء وليس هو كالاشياء فهذا بنص التنزيل لا بتاويل ولا بتفسير) .

فقال المامون (احسنت يا عبد العزيز)(٤٩) .

اثبات ان كلام الله تعالى ليس مخلوقا

وبعد اخذ ورد طويل ومناقشات حول معانى القـرآن وطرق قراءته بالفصل والوصل مما اثبت به عبد العزيز المكى جهـل بشر المريسى باسرار اللغة العربية . عاد المريسى ليقول ان قول الله تعـالى (خالق كل شيء) لا تخرج عنها شيء لأن تلك كلمة تجمع الاشياء كلها فلا تدع شيئا يخرج عنها وكل ذلك داخل فيها .

وهنا اخذ عبد العزيز يسترسـل فى ذكر آيات من القرآن الحكيم ، مثل قوله تعالى (واصطنعك لنفسى) (ويحذركم اللـه نفسـه) وقوله عز وجل (كتب ربكم عـلى نفسه الرحمـة) وقال (تعلم ما فى نفسى ولا اعلم ما فى نفسك) . فاخبرنا الله عز وجل ان له نفسا . وطلب من بشر المريسى الاقرار

(٤٧، ٤٨) الحيدة ص١٩ — ٢٠ .
(٤٩) عبد العزيز المكى — الحيدة ص٢٠ .

بذلك ، فاقر . واشهد المأمون هذا الاقرار . وهنا تلى قوله تعالى (كل نفس ذائقــة الموت) ، ثم ســـال بشر (فتقـــول يا بشر ان نفس اللـــه عز وجل داخلة فى هذه النفوس التى تذوق الموت) ؟ فصاح المأمون باعلى صوته — — وكان جهسورى الصوت — معاذ الله ، معاذ الله !! فقـــال عبد العـــزيز (**معاذ الله ان يكون كلام الله داخلا فى الاشياء المخلوقة** كما ان نفسه ليست بداخلة فى الاشياء الميتة) .

وقد اعترف المأمون عندئذ بان حجة عبد العـــزيز قد وضحت وانكسر قول بشر ، وطالب عبد العزيز بالمزيد من هذه الاخبار فى القرآن الكريم .

قال عبد العزيز :

يا أمير المؤمنين ان الله عز وجل شرف العرب وكرمهم وانزل القـــرآن بلسانهم فقال (انا انزلناه قرآنا عربيا) وقال (فانما يسرناه بلسانك) فخص الله عز وجل العرب بفهمه ومعرفته وفضلهم على غيرهم بعلم اخباره ومعانى الفاظه وخصوصه وعمومه ومحكمه ومبهمه وخاطبهم بما عقلوه وعلموه ولم يجهلوه ، اذ كانوا قبل نزوله عليهم يتعاملون بمثل ذلك فى خطابهم فانزل الله عز وجل القرآن على اربعة اخبار خاصة وعامة(٥٠) .

فمنها :

١ — خبر مخرجه مخرج الخصوص ومعناه معنى الخصوص وهو قوله تعالى (انى خالق بشرا من طين) وقوله (أن مثل عيسى عند الله كمثل آدم)ثم قال (يا ايها النـــاس انا خلقناكم من ذكر وانثى ، والنـــاس اسم يجمع آدم وعيسى وما بينهما وما بعدهما فعقل المؤمنون عن الله عز وجل انه لم يعن آدم وعيسى لأنه قدم خبر خلقهما .

٢ — خبر مخرجه العموم ومعناه معنى الخصوص وهو قوله تعـــالى (ورحمتى وسعت كل شىء) فعقـــل عن الله انه لم يعن ابليس فيمن تسعه الرحمة لما تقدم فيه من الخبر الخاص قبل ذلك وهو قوله (لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم اجمعين)فصار معنى ذلك الخبر العام خاصا لخروج ابليس ومن تبعه من سعة رحمة الله التى وسعت كل شىء .

---

(٥٠) الحيدة ص٣٢ — ٣٣ .

٣ — خبر مخرجه مخرج الخصوص ومعناه معنى العموم وهو قوله (وانه هو رب الشعرى) فكان مخرجه خاصا ومعناه عاما .

٤ — خبر مخرجه العموم ومعناه العموم .

فهذه الاربعة الاخبار خص الله العرب بفهمها ومعرفة معانيها والفاظها وخصوصها وعمومها والخطاب بها ثم لم يدعها اشتباها على خلقه وفيها بيان ظاهر لا يخفى على من تدبره من غير العرب ممن يعرف الخاص والعام ؛ فلما تدم الينا عز وجل فى نفسه خبرا خاصا أنه حى لا يموت بقوله (وتوكل على الحى الذى لا يموت) ثم أنزل خبرا مخرجه مخرج العموم ومعناه الخصوص فقال (كل نفس ذائقة الموت) فعقل المؤمنون عن الله عز وجل انه لم يعن نفسه مع هذه النفوس لما قدم اليهم من الخبر الخاص ، وكذلك وقدم الينا فى كتابه خبرا خاصا (انما قولنا لشىء اذا اردناه ان نقول له كن فيكون) . **فدل على قوله باسم مفرد** فقال اذا اردناه — ولم يقل اذا اردناها — **ففرق بين القول والشىء المخلوق** الذى يكون بالقول مخلوقا ثم قال عز وجل (خالق كل شىء) . فعقل المؤمنون عن الله عز وجل **انه لم يعن كلامه وقوله فى الاشياء المخلوقة** لما قدم من الخبر الخاص[٥١] .

الفرق بين الجعل والخلق

ولكن بشرا عاد الى موقفه الاول مصمما على أن قوله مؤيد بنص التنزيل . واستخرج من القرآن الكريم آية يدلل بها على رايه بقول الله تعالى (انا جعلناه قرآنا عربيا) . ذاهبا الى ان معنى جعلناه خلقناه .

وفى مقدمة رد عبد العزيز المكى على بشر المريسى أرجع خطأه الى انه رجل من ابناء العجم يتاول كتاب الله تعالى على غير ما أنزل ، ويحرفه عن مواضعه ويبدل معانيه ويقول ما تنكره العرب وكلامها ولغاتها ؛ ويكفر بشر الناس ويستبيح دماءهم **بتاويل لا بتنزيل** .

واخذ عبد العزيز المكى يستقرىء آيات القرآن التى يثبت فيها أن (جعل) ليست بمعنى (خلق) مثل قوله :

---

(٥١) الحيدة ص٣٤ .

(وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا) . فاذا كان (جعلتم) هنا بمعنى خلقتم الله عليكم كفيلا ، ومن قال هذا فقد اعظم الفرية على الله عز وجل وكفر به .

وقال عز وجل (ولا تجعلوا الله عرضة لايمانكم) وقال سبحانه (ويجعلون لله البنات سبحانه) ، وقوله (فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما) ، وقال (قل من انزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا) .

وازاء هذه الحجة المفحمة لما يترتب على تأويل معنى (جعل) بـ (خلق) من مقالات ، اعترف المأمون بصحة ما ذهب اليه عبد العزيز المكي فقال (ما اقبح هذه المقالة واعظمها واشنعها فحسبك يا عبد العزيز فقد صح قولك وأقر بشر بما حكيت عنه وكفر نفسه من حيث لم يدر)(٥٢) .

اقامة الحجة بالتنزيل

وعندما ضيق الخناق على بشر المريسي ، قال للمأمون (يا امير المؤمنين هذا يريد نص القرآن لكل شيء يتكلم به ، وهذا مما لا يقدر عليه لانه ليس كل ما يتكلم به الناس مما يحتاجون اليه من علم اديانهم يوجد فى كتاب الله **بنص التنزيل ، وانما يوجد فيه بالتأويل**) . اى انه عاد يطالب بالتأويل بعد أن أفحمه عبد العزيز المكي بالتنزيل .

وظن انه بهذه الطريقة سيعجز عبد العزيز عن اثبات صحة ما ذهب اليه ، فأخذ يتحدى مطالبا بآيات تدل على شمولها لكل المخلوقات .

وأخذ يطالب عبد العزيز بالاتيان ببراهينه . فقال (اوجدنى ان هذا الحصير مخلوق بنص القرآن) .

ولكن عبد العزيز لم يعجز عن اثبات ذلك ، فطالب بشر المريسي أولاً بالاقرار بأن الحصير من سعف النخل وجلود الانعام بالاضافة الى صناعة الانسان الذى يعمله حتى صار حصيرا ؛ ثم أخذ يردد آيات الله تعالى فى هذا

---

(٥٢) الحيدة ص٣٧ — ٣٨ .

الصدد قال تعالى فى النخيل (انتم انشأتم شجرتها ام نحن المنشئون) فهو نص بخلق النخل والسعف . وأما الجلود فقال الله تعالى (والانعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع) وهذا خلق الجلود . وأما الصانع فقال الله عز وجل (ولقد خلقنا الانسان) فهذا خلق الصانع ، فصار الحصير مخلوقا بنص التنزيل لا بتأويل ولا بتفسير . وسأل بشر (فهل عندك مثل هذا لخلق القرآن ما تذكره أو تحتج به والا فقد بطل ما تدعونه من خلقه وصح ولم يزل صحيحا ان القرآن كلام الله غير مخلوق من كل جهة وعلى اى جهة تصرفته)(٥٣) .

ثم دارت المحاولة على النحو التالى :

— قال بشر : يا أمير المؤمنين ، عندى اشياء كثيرة الا انه يقول بنص التنزيل ، وانا اقول بالنظر والقياس . **فليدع مناظرتى بنص التنزيل ويناظرنى بغيره .**

فتعجب المأمون من طريقة بشر فى المناظرة وسأله فى دهشة (تقول لرجل يناظر بالكتاب والسنة دعهما واخرج الى النظر والقياس ؟ هذا ما لا يجوز(٥٤)) !!

اقامة الحجة بالنظر والقياس

ولكن عبد العزيز المكي فاجأ المأمون والحاضرين وأبدى تمام استعداده للمناظرة بالنظر والقياس دون الاحتجاج بآية من كتاب الله ولا سنة رسوله صلى الله عليه وسلم وسأل بشر المريسى (تسألنى ام اسألك ؟ قال اسأل انت) وقال مستطردا (وطمع فى هو واصحابه وظنوا انى ان خرجت عن الكتاب والسنة لم احسن ان اتكلم بغيرهما) ! !

قال عبد العزيز لبشر المريسى (يلزمك فى قولك بخلق القرآن واحدة من ثلاث :

---

(٥٣) الحيدة ص٤٩ — ٥٠ .
(٥٤) الحيدة ص٥٠ .

١ — أن الله خلق كلامه فى نفسه .

٢ — أو خلقه فى غيره .

٣ — أو خلقه قائما بذاته أى شيئا منفصلا قائما بنفسه .
فقل ما عندك يا بشر .

فأجاب بشر (انا اقول انه مخلوق وانه خلقه كما خلق الاشياء كلها ؛ فصاح عبد العزيز فى وجهه ليثبت عليه الحيدة عن جوابه(٥٥) قائلا (تركتــا الكتاب والسنة عند هرب بشر عنهما ، ونظارته بالقياس والنظــر لما ادعاه وذكر انه يحسنه ويقيم على الحجة ولكنه مال الى الحيــدة ونقض ما شرط على نفسه ، فان بشرا انما يحسن ان يناظر من لا يفهم ولا يدرى ما يقول . وهنا نهره المأمون وأمره بأن يجب عبد العزيز المكى ، فقال معترفا بعجزه عن الاجابة (ما عندي جواب غير ما اجبته به) (٥٦) .

---

(٥٥) والمقصود بالحيدة الانصراف عن السؤال والهروب من اجابته .
وقد استند عبد العزيز المكى الى واقعتين احدهما فى القــرآن الكريم والاخرى فى تاريخ المسلمين . فأما فى القرآن . فقد قال الله تعالى فى قصة ابراهيم حين قال لقــومه هل يسمعونكم اذ تدعون أو ينفعونكم او يضرون ، وانما قال لهم ابراهيم هذا ليفهم ويعيب آلهتهم ويسفه أحلامهم فعلموا ما اراد بهم فصــاروا بين امرين أن يقولوا نعم يسمعونا حين ندعوا وينفعونا او يضرونا فيشهد عليهم بلغة قومهم انهم كذبوا ويقولوا لا يسمعونا حين ندعو ولا ينفعونا ولا يضرونا فينفوا عن آلهتهم القدرة ، وعلموا ان الحجــة عليهم لابراهيم لانهم فى اى القولين اجابوه فهو عليهم ، فحادوا عن جوابه واجتلبوا كلاما من غير ما سألهم عنه فقالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ، فلم يكن هذا جواب مسألته . كتاب الحيدة ص٢٣ .

(٥٦) الحيدة ٥٢ .

فأقبل المأمون على عبد العزيز فقال « قد حاد بشر عن جوابك فتكلم انت يا عبد العزيز فى شرح المسألة » .

وهنا اعاد عبد العزيز المكى الالزامات الثلاثة التى ذكرها فى بداية سؤاله ، وفصلها حسب البيان الاتى :

١ — ان قال بشر ان الله خلق كلامه فى نفسه ، فهذا محال باطل لا يجد للسبيل الى القول به من قياس ولا نظر ولا معقول . لأن الله تعالى عما يقولون علوا كبيرا — لا يكون مكانا للحوادث ولا يكون فيه شىء مخلوق ولا يكون ناقصا بشىء اذا خلقه .

٢ — وان قال خلق كلامه فى غيره فهذا ايضا محال باطل لا يجد السبيل الى القول به من قياس ولا نظر ولا معقول . لظهور الشناعة من قبله لأنه يلزم قائل هذه المقالة فى القياس والنظر والمعقول ان يجعل كل كلام خلقه فى غيره هو كلام الله . فيجعل الشعر وقول الزور والفحش والخنا وكل كلام ذمه الله وذم قائله من كلام الكفر والسحر وغيره لله تعالى عن ذلك .

٣ — وان قال خلق كلامه قائما بذاته ، فهذا هو المحال الباطل الذى لا يجد السبيل الى القول به من قياس ولا نظر ولا معقول ؛ لأنه لا يكون الكلام الا من متكلم . كما لا تكون الارادة الا من مريد . ولا العلم الا من عالم ؛ ولا القدرة الا من قدير . ولا رؤى ولا يرى ابدا كلام قائم بذاته متكلم بنفسه . وهذا ما لا يعقل . ولا يعرف ولا يثبت من قياس ولا نظر ؛ ولا غيره .

فلما استحال القرآن ان يكون مخلوقا من هذه الجهات ؛ ثبت أنه صفة لله عز وجل وصفات الله عز وجل غير مخلوقة ، فيبطل قول بشر من جهة النظر والقياس . كما بطل من الكتاب والسنة .

وهنا قال المأمون « احسنت يا عبد العزيز » . ولكن بشرا انتقل الى موضوع آخر فقال « دع هذه المسألة واسئل من غيرها »(٥٧) .

---

(٥٧) الحيدة ص٥٢ — ٥٣ .

وانتقلا من الحديث عن كلام الله تعالى الى صفاته عز وجل وقد بدأ بالعلم ثم الحديث عن القدرة والفعل ، واختتما المحاورة بالبرهنة بالمنهج القياسي على أن كلام الله تعالى غير مخلوق ، وسنرى كيف التزم عبد العزيز طرقا ثلاثة في محاورته : أي التنزيل والنظر والقياس :

اثبات علم الله تعالى بنص التنزيل

انتقل الحديث الى الصفات الالهية التي اثبتها لله لنفسه ومنها العلم ، وقد تدخل المأمون في هذا الجزء من المحاورة ، فسأل عبد العزيز (أتقول يا عبد العزيز ان الله عالم) ؟ فأجابه (نعم يا امير المؤمنين) ، فسأله ثانيا (فتقول أن الله علما) ؟ فأجاب بالايجاب .

وذهب المأمون بعد ذلك الى ما هو ادق من هذه القضية في الفهم والنظر ، فسأله عبد العزيز (فتقول ان الله سميع بصير ؟ قلت — نعم يا أمير المؤمنين ، قال — فتقول أن له سمعا وبصرا ؟ قلت : لا يا أمير المؤمنين) .

وكان عبد العزيز واعيا لاجابته ، مدعما عقيدته بالمنهج الثابت المنقول من السلف الصالح وما فهمه المسلمون قبله ، فقال :

(يا أمير المؤمنين ، وقد قدمت اليك فيما احتججت به أن على الناس جميعا أن يثبتوا ما أثبت الله ، وينفوا ما نفى الله ، ويمسكوا عما امسك الله عنه ، فأخبرنا الله عز وجل أن له علما ، فقلت أن له علما كما أخبر وأخبرنا انه عالم بقوله (عالم الغيب والشهادة) فقلت انه عالم كما أخبرنا انه سميع بصير ، فقلت انه سميع بصير كما أخبر في كتابه ، ولم يخبر أن له سمعا ولا بصرا) .

فقال المأمون لبشر واصحابه (ما هو بمشبه فلا تكذبوا عليه) (٥٨) .

وهنا أراد بشر احراج عبد العزيز فسأله (قد زعمت يا عبد العزيز أن الله علما ، فأي شيء هو علم الله ؟ وما معنى علم الله ؟) .

وأجاب عبد العزيز بشيء من التفصيل ، مستشهدا بآيات من القرآن

---

(٥٨) الحيدة ص٢٥ — ٢٦ .

الكريم فقال (هذا مما تفرد الله بعلمه ومعرفته ، فلم يخبر به ملكا مقربا ولا نبيا مرسلا ، بل احتجبه من الخلق جميعهم فلم يعلمه احد قبلي ولن يعلمه أحد بعدي ، لأن علمه اكثر واعظم من ان يعلمه احد من خلقه) .

واخذ يذكره بقوله تعالى (ولا يحيطون بشيء من علمه الا بما شاء) : وقوله (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا الامن ارتضى من رسول) ، وقوله (وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها الا هو ويعلم ما في البر والبحر) ، وقوله عز وجل (ولو أن ما في الارض من شجرة اقلام والبحر يمده من بعده سبعة ابحر ما نفدت كلمات الله ان الله عزيز حكيم) .

وسأل بشرا (اتدرى يا بشر ما معنى هذا ؟ واى شيء مما نحن فيه ؟) .

فطلبه المأمون بالاجابة بنفسه على هذا السؤال شرحا وتفسيرا ، فاستكمل ذلك بقوله (يا أمير المؤمنين يعنى بقوله هذا ولو أن ما في الارض من جميع الشجر والخشب والقصب اقلام يكتب بها والبحر مداد يمده من بعده سبعة أبحر ، والخلائق كلهم يكتبون بهذه الاقلام من هذا البحر ، ما نفدت كلمات الله ، فمن بلغ عقله وفهمه وفكره كنه عظمة الله وسعة علمه ؟ !!

وقال سبحانه وتعالى (لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا) فمن يحد هذا او يصفه او يدعى علمه ، وقد عجزت الملائكة المقربون من علم ذلك واعترفوا بالعجز عنه فقالوا (سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم) ؟

وقال تعالى (ان الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الارحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت ان الله عليم خبير) .

وسئل النبي صلى الله عليه وسلم عن علم الساعة فقال (علمها عند ربي في خمس لا يعلمها الا هو وتلا (ان الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الارحام) فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن هذه الخمس مما تفرد الله بعلمها ، فلا يعلمها الا هو ، فاذا كان النبي صلى الله عليه وسلم

لا يعلم من علم الله الا ما علمه ، فكيف يجوز لأحد من أمته ان يتكلف علمـا أو يدعى معرفة) ؟(٥٩) .

ويبـدو من تعليق عبد العـزيز انه غضب بسبب هذا السؤال الذى لا محل للاجابة عنه واضطر الى افحامه بنصوص التنزيل لبيان ان مثل هذا السؤال منهى عنه من قبل الله تعالى ، فقـال عبد العزيز (انك لتأمرنى بما نهانى الله عنـه وحرم على القـول به ، وتأمرنى بما امرنى به الشيطان ، ولست أعصى ربى وارتكب نهيه واطيع الشيطان واتبع أمره و أمرك اذ كنتما قد امرتمانى بخلاف ما أمرنى به ربى ، بل نهانى) !

وكان المأمون يراقب الموقف منصتا باهتمام، ودهش من رد عبد العزيز واراد شرحا له ، فقال (يا عبد العزيز أمرك بشر بما نهاك الله عنه وحرم عليك القول به وامرك به الشيطان ؟!!) فلما اجاب عبد العزيز بالايجاب . طالبه بآيات من كتاب الله بنص التنزيل .

قال عبد العزيز (قال الله عز وجل لنبيه عليه السلام : قل انما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغى بغير الحـق وان تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وان تقولوا على الله ما لا تعلمـون) . وأمرهم الشيطان بضد ذلك ، فقال الله عز وجل (يا ايها الناس كلوا مما فى الارض حلال طيبا ولا تتبعوا خطـوات الشـيطان انه لكم عدو مبين انما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ، فاخبر الله عز وجل ان الشيطان يأمر الناس بأن يقولوا على الله ما لا يعلمون . فنهاهم عن اتباعه وقبول قوله ، فهذا تحريم الله ونهيه لنا بها يا أمير المؤمنين ان نقول عليـه ما لا نعلم ، وهذا أمر الشيطان لنا أن نقول على الله ما لا نعلم . وقد اتبـع بشر يا أمير المؤمنين سبيل الشيطان التى نهاه الله عن اتباعها ووافقه على قوله وأمرنى بمثل ما أمرنى به الشيطان ان اقول على الله ما لا اعلم) .

ويصف عبد العزيز انعكاسات هذه الاجـابة على المأمون بقوله : فكثر

---

(٥٩) الحيدة ص٢٦ ـــ ٢٧ .

تبسم المأمون حتى غطى بيده على فيه واطرق يكتب فى الارض بيـده على السرير)(٦٠) .

ويدهشنا ان تصل المجادلة الى هذا الحد مع اصرار بشر المريسى على موقفه بالرغم من حجج عبد العزيز القوية الواضحة ، ومنهـا يتضـح أن المريسى قد افلس بعناده وعجزه عن مجابهة ادلة عبد العزيز .

كما تعجبه من تصرف المأمون لاتخاذه القضية البالغة الاهمية ذريعـة للتضييق على الناس وكبت آرائهم ، ثـم وقوفه بنفسه على الادلة واقـراره بصحتها فى اكثر من موضع بقوله (احسنت يا عبد العزيز) ، بينما فى مجالسه الخاصة تكون مدعاة لابتسامة وربما ضحكة ! !

اثبات الفعـل والقـدرة بالنظر والقياس

اولا — بالنظر والمعقول :

استهل عبد العـزيز المكى المحـاورة فى هذه القضية بسؤاله لبشر المريسى فساله (يا بشر . تقـول ان الله كان ولا شىء ، وكان ولم يفعـل شىء ، وكان ولم يخلق شىء فلما اقر بشر بهذه المقـدمة ، استخرج منهـا الاقرار بأن الله تعالى هو الذى احدث الاشياء — اى خلقهـا — بقـدرته سـبحانه .

ولكنهما اختلفا بعد الاتفاق على هذه المقـدمة ، ويعبران عن وجهتى النظر المتعارضين . اذ أن المعتزلة ينفون صفات الله تعالى بينما يثبت علماء اهل السنة والجماعة هذه الصفات كما اتضح لنا فيما تقدم من هذا البحث .

اقر بشر بأن الله عز وجل لم يزل قادرا . ولكنه لم يقر بأن الله سبحانه لم يزل يفعل . فانبرى اليـه عبد العـزيز المكى (فـلا ان تقـول انه خلق بالفعل الذى كان عن القدرة ، وليس الفعل هو القدرة ، لان القـدرة صفة من صفات الله ، ولا يقال لصفات اللـه هى الله ، ولا هى غير الله ، وهذا يلزمك القول به) .

---

(٦٠) الحيدة ص٢٨ .

فلما اعترض بشر على هذا التفسير قائلا لعبد العزيز (ويلزمك ايضـــا ان تقول انه لم يزل يفعل ويخلق ، واذا قلت ذلك تبينا ان المخلوق لم يزل مع الخلق) ، هنا اضاف عبد العزيز ايضاحا اكبر ، متوسعا فى شرح العـلاقة بين الخالق والمخلوقات ، ليصل اثبات صفة **الفعل لله تعالى مع القـدرة** ، وبذلك يضع البرهان العقلى لصفات الله تعالى وتغايرها .

قال عبد العزيز (انى لم اقل هذا وليس لك أن تحكم على وتحكى عنى ما الم اقل وتلزمنى ما لم يلزمنى ، انى لم اقل انه لم يزل الخالق يخلق ، ولم يزل الفاعل يفعل فالزمنى ما قلت ، وانما قلت لم يزل الفاعل سيفعل ، ولم يزل الخالق سيخلق لان الفعـل صفة الله يقـدر عليهـا ولا يمنعه منهـا مانع)(٦١) .

وكان عبد العزيز حريصا فى اختيار الفاظه ان يستخدم الفعل بصيغة المستقبل ، لكى يتضح امام السـامع ان الله تعالى هو الاول بالاطلاق وانه سبحانه متقدم قبل الخلق ، كان ولا شىء قبله ولا شىء معه .

ولكن بشرا اصرا على موقفه بالاعتقاد ان الله تعـالى احدث الاشياء بقدرته ولم يقر بالفعل الذى كان عن القدرة .

وهنا اضطر عبد العزيز لاشراك المأمون فى المحاورة ، فقال :

يا أمير المؤمنين ، قد قـال بشر ان الله كان ولا شىء ، وانـه احدث الاشياء بعد أن لم تكن شيئا بقدرته، فقلت انا احدثها بامره وقوله عن قدرته) .

فقال المأمون : قد حفظت عليكما قولكما .

فقال عبد العزيز : يا أمير المؤمنين لن يخلو أن يكون اول خلق خلقـه الله بقوله قاله ، وبارادة أرادها ، وقدرة قدرها) .

واستمر فى شرح معتقده ، اذ ترتب على المقدمة السـابقة ان ههنـا ارادة ومريدا ، وقولا وقائلا ومقولا له ، وقدرة وقديرا ومقدورا عليه ، وذلك

---

(٦١) الحيدة ص٥٣ .

كله متقدم قبل الخلق ؛ وما كان متقدما قبل الخلق فليس هو من الخلق في شيء .

وكان سكوت بشر يدل على انه افحم فلم يحر جوابا فقال عبد العزيز : وقد كسرت والله قول بشر ودحضت حجته باقراره بلسانه بالنظر والمعقول، ولم يبق الا القياس ، وانا اكسره بالقياس ان شاء الله تعالى ، فقال المأمون : هات واوجز قبل خروج وقت الصلاة(٦٢) .

ثانيا — اثبات ان القرآن كلام الله بمنهج القياس :

واستخدم عبد العزيز المكي المنهج القياسي في اثبات ان القرآن الكريم كلام الله تعالى وليس شيئا مخلوقا ، وكانت دوافعه للعودة مرة اخرى الى هذا الموضوع أن يثبت صفة الكلام ، فاذا تم ذلك اثبت باقي صفات الله تعالى قياسا عليه .

وبدأ عبد العزيز بتوجيه كلامه الى المأمون ، فقال :

يا أمير المؤمنين ، لو كان لبشر غلامان وانا لا اجد لهما خبرا من احد من الناس الا من بشر ، ويقال لاحدهما خالد ، وللآخر يزيد ، وكان بشر غائبا مني بحيث لا آراه فكتب الى بشر ثمانية عشر كتابا يقول في كل كتاب منها (ادفع الى خالد غلامي هذا الكتاب) . وكتب الى اربعة وخمسين كتابا يقول (ادفع الى يزيد هذا الكتاب ولم يقل غلامي) .

وبعد هذه البداية ، التي سنفهم بعدها سبب اختيار عبد العزيز لهذه الاعداد بالذات حالا ، استكمل حديثه بقوله : ثم قدم بشر من سفره فسأل لي : الست تعلم أن يزيد غلامي ، فقلت : قد كتبت الى اربعة وخمسين كتابا وقلت ادفع هذا الكتاب الى يزيد ولم تقل غلامي ، وكتبت ولم اسمعك تقول غلامي — وانا لا اجد ذلك الا منك ولا اعرف خبره من احد غيرك . وكتبت الى ثمانية عشر كتابا ادفع الى خالد غلامي هذا الكتاب ، فعلمت بكتابك انه غلامك . ثم كتبت الى كتابا جمعتهما فيه فقلت (ادفع هذا الكتاب الى

خالد غلامي والى يزيد — ولم تقـل غلامي ، من ايـن اعلم أن يزيد غلامك ولست اعلم خبرهما من احد غيرك ؟) .

وسياقا لهذه الواقعة ، وما يترتب على حدوثها من نتائج ، اراد عبد العزيز الوصل الى انها لو حدثت بهذه الكيفية ، ســيتهمه بشر بأنه فـرط حيث لم يعلم أن يزيد غلامه من كتبه ولكن عبد العزيز يلقى المسئوليـة عن كاهله ويرى أن بشرا هو المفرط ، واشرك المأمون فى الشهادة فسأله (فاينا المفرط يا امير المؤمنين) ؟ فاقر المأمون بأن بشرا هو المفرط(٦٣) .

ومع غرابة هذه الواقعة التى يريد عبد العزيز القياس عليها ، ظهـرت دهشة بشر المريسى من غرضه فقال (وايش هذا مما نحن فيه نريد ان تثبت بهذا السؤال على ما لم يكن متى كانت هذه المكاتبة وهذا الكلام) ؟ !!

وحينذاك حسم عبد العزيز الموقف مستخدما القياس فى البرهنة على ما ذهب اليه ، فقال (اسمع حتى تقف على ما اردت) ثم أردف قائلا (يا امير المؤمنين أن الله عز وجل اخبرنا فى كتابه **بخلق الانســان فى ثمانيـة عشر موضعا** ، ما ذكره فى موضع منها الا اخبر عن خلقه . وذكر **القرآن فى اربعة وخمسين موضعا فلم يخبر عن خلقه فى موضع منها** ولا اشار اليه بشىء من صفات الخلق ، **ثم جمع بين القرآن والانسان** فى آية من كتابه فاخبر عن الخلق للانسان ونفى الخلق عن القرآن ، فقال الله عز وجل « الرحمن علم القرآن خلق الانسان علمه البيان ») ففرق بين القرآن والانسان فزعم بشر يا امير المؤمنين أن الله فرط فى الكتاب من شىء . فهذا كسر قول بشر بالقياس) .

فقال المأمون (احسنت يا عبد العزيز)(٦٤) .

الى جانب تناول الجدل حول باقى صفات الله ســبحانه وتعالى من وجهتى النظر المتعارضتين : راى المعتزلة الذى يعبر عنه بشر المريسى وراى علماء السنة الذى يعبر عنه عبد العزيز المكى(٦٥) .

---

(٦٣) الحيدة ص٥٤ .
(٦٤) الحيدة ص٥٥ .
(٦٥) وقد استخلصناه من ابن تيمية نقلا عن « الحيدة » اذ لاحظنا أن الكتاب المتداول والذى استندنا اليه جاء خلوا من هذه المسألة .

الاســـتواء على العــرش :

من محاورات عبد العزيز المكى مع بشر المريسى فى بيان استواء الله عز وجل على عرشه :

فسر الجهمية قوله تعالى (الرحمن على العرش استوى) بأن المعنى استولى كقول العرب استوى فلان على مصر وعلى الشام . ويسال عبـد العزيز المكى عدة اسئلة ليستخلص منها الاجابات الملزمة لها ، فيسأل أولا (أيكون خلق من خلق الله اتت عليه مدة ليس الله بمسئول عليه ؟) فالاجابة الصحيحة بالنفى ، ومن زعم غير ذلك فهو كافر . وبالنظر الى آيات أخرى تتناول العرش ، يلزم المريسى بأن العـرش قد اتت عليه مدة ليس اللـه بمسـتول عليه ، فقد قال تعـالى الذى خلق السموات والارض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش ، الرحمن فاسأل به خبيرا) وقوله (الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم) وقـوله (ثم استوى الى السماء وهى دخان) ويستطرد المكى بعد هذا قائلا (فيلزمك ان تقول : المدة الذى كان العرش فيها قبل خلق السموات والارض ليس الله بمستول عليه ، اذ كان (استوى على العرش) معناه عندك استولى ، فانما استولى بزعمك فى ذلك الوقت لا قبله) .

وبقيت الصعوبة التى يثيرها الجهمية فى كيفية الاستواء ، اذ يستفسر المريسى عنه ، أهو كما يقول (اســتوى فلان على السرير) فيكون السرير قد حوى فلانا وحده اذا كان عليه ؟ ويلزم من ذلك القول أن العرش قد حوى الله وحده اذا كان عليه ، لأنا لا نعقل الشيء الا هكذا .

ويوضح عبد العزيز المكى اجابته على هذا التساؤل ، فيؤكد أولا أن الله تعالى لا يجرى عليه كيف ، فلا مجال اذن للتساؤل (كيف استوى ؟) ، فقد أخبرنا بأنه اسـتوى على العرش ولم يخبرنا كيف استوى ، اذ لم تره العيون فى الدنيا فتصفه بما رأت ، وحرم عليهم أن يقولوا عليه ما لا يعلمون فآمنوا بخبره عن الاستواء ، ثم ردوا علم كيف استوى الى الله تعالى .

بقى بعد هذه الاجابة أن يلزم الجهمى بالزامين يستخرجهما من وصفه

لله تعالى بذاته فى كل مكان ، أولهما فقد زعم ان الله تعالى محدود وقد حوته الاماكن ، لانه لا يعقل شيء فى مكان الا والمكان قد حواه . ويلزمه ثانيا تقليد النصارى فى الاعتقاد بأن الله عز وجل فى عيسى وعيسى بدن انسان واحد ، فكفروا بذلك ، ولكن قول الجهمية اشنع اذ يلزمهم القول انه فى ابدان الناس كلهم ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

وفى ختام المحاورة يضطر المريسى الى الوقوع فى التناقض اذ يصف الله عز وجل بانــه فى كل مكان ، لا كالشيء فى الشيء ، ولا كالشيء على الشيء ، ولا كالشيء خارجا عن الشيء ، ولا مباينــا للشيء . ويسخر المكى من هذا الاعتقاد ، لأن المريسى يدعى أنه يستند الى القياس والمعقــول ، ولكنه دل بالقياس والمعقول على انه لا يعبد شــيئا ، لأن ما لا يكون داخلا فى الشيء ولا خارجا منه فانه لا يكون شيئا ، وان ذلك صفة المعدوم لا وجود له(٦٦) .

وتلقف ابن تيمية بقراءاته المتشعبه مثل هــذا الدليل العقلى ، وزاده ايضاحا ، فبين أولا أن الالفاظ التى لم تنطق الرسل فيها بنفى ولا اثبــات كلفظ الجهة والحيز ونحو ذلك لا يطلق نفيا ولا اثباتا الا بعد بيان المراد ، ثم احصى الادلة المستمدة من القرآن والسنة فرآهــا تقارب الف ، مع تطــابق الانبياء كلهم على أن الله سبحانه وتعالى فى العلو .

ولكن ماذا يعتقــد بالعــلو ؟

يقدم كعادته الآيات القرآنية ، مثل قوله تعالى (أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الارض) . ، (أم أمنتم من فى الســماء أن يرســل عليــكم حاصبا) ، فهو سبحانه العلى الاعلى لا يعلوه شيء من خلقــه ، كما اخبــر الرسل بأن الله تعالى فوق العالم بعبارات متنــوعة ولكن ليس مرادهم أن اللــه فى جوف الســموات او ان الله يحصره شيء من المخلوقات ، بل كلام الرسل كله يصدق بعضــه بعضا ، كما قال تعالى (سبحان ربك رب العــزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين) وثبت فى الصحيح من النبى صلى الله عليه وسلم انه قال (أنت الظــاهر فليس فوقك شيء

---

(٦٦) ابن تيمية — مجموع فتاوى جـ٥ ص ٣١٦ — ٣١٧ ط السعودية .

وأنت الباطن فليس دونك شيء) . ويناقش شيخ الاسلام كافة التصورات المحتملة فينفيها ، ويثبت الصحيح ، فمن التصورات الخاطئة اعتقاد أنيكون الرب محصورا في شيء من المخلوقات أصلا سواء سمي ذلك المخلوق جهة أو لم يسم جهة ، ويخطيء أيضــا من يظن أنه ليس فوق الســموات رب ، ولا على العرش ، ومحمدصلوات الله عليه لم يعرج الى ربه ، ولا تصعد الملائكة اليه ، ولا تنزل الكتب منه ، ولا يقرب منه شيء ، ولا يدنو الى شيء .

الاعتقاد الصحيح اذن انه ليس موجودا الا الخالق والمخلوق ، والخالق بائن عن مخلوقاته ، عال عليها ، فمن سمى ما فوق العالم جهة وجعل العدم المحض جهة وقال هو في جهة بهذا المعنى أي هو نفسه فوق كل شيء فهذا معنى صحيح (٦٧) .

---

(٦٧) ابن تيمية ــ الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ج٣ ص٨٢ .

الفصـــل الثالث :

صلة العقـــل بالشـــرع

- صلة العقل بالشرع .
- ادلة الشرع عقلية .
- تعقيب .

صلة العقل بالشرع :

ولعل ابرز نقاط الخلاف بين شيوخ الحديث والسنة ، والمتكلمين بعامة والمعتزلة بخاصة هي نقطة صلة العقــل بالشرع ، فبينما زعم المتكلمون أن يوســعهم استحداث ادلة مستوحاة من العقل وممزوجة بمصطلحات الفلاسفة والاستناد اليها في الدفاع عن الاسلام . يرى اهل الحديث والسنة ان الادلة الشرعية بذاتها كافية لانها تتفق مع احكام العقل وقوانينه .

وهنــاك أيضا مترادفات فيقــال النقل والعقل او الرواية والدراية السمع والعقل وكان مثار الخلافات الحادثة بين المسلمين أن اهل الكلام ظنوا ان الادلة الواردة بالوحي لا صلة لها بالعقل ، ولهذا حاولوا التوفيــق بين ادلة الشرع وادلة العقــل ظانين انهم بهذا المنهــج يستطيعون الدفاع عن الاســلام وتقريب اصوله الى الاذهان .

وتوطئه لتحليل هذه القضية الهسامة التي تعتبر جوهر الخــلاف بين المتكلمين والمحدثين فسنعرض لبعض المصطلحات التي حددها احد علمــاء الحديث والسنة ليمكننا التمييز بين مناهج علماء الحــديث ومناهج المتكلمين من المعتزلة والاشاعرة واصحاب الفرق الاخرى .

الشرع :

وهو ينقسم الى : —

١ ـــ الشرع المنزل : فالشرع يطلق تارة على ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم من الكتــاب والسنة . هذا هو الشرع المنزل ، وهو الحق الذي ليس لأحد خلافه .

٢ ـــ الشرع المبدل : ويطلق على ما يضيفه بعض النـاس الى الشرع . اما بالكذب والافتراء واما بالتــاويل والغلط ، وهذا شرع مبــدل لا منزل . ولا يجب ، بل لا يجوز اتباعه .

ويضــــع شيخ الاســــلام ابن تيمية في دائرة الشرع المبدل هؤلاء الذين

يناقضونه فى خبره ، فينفـــون ما اثبته أو يثبتون ما نفـساه ؛ كأتباع جهم بن صفوان الذين ينفون ما أثبته من صفات الله ســـبحانه وتعالى . والقدرية النفاة الذين ينفون ما اثبته من قدر اللـــه تعالى ومشيئته وخلقه وقدرته ـــ والقـــدرية المجبرة الذين ينفون ما اثبته من عدل اللـــه تعـــالى وحكمتـــه ورحمته ، ويثبتون ما نفاه من الظلم والعبث والبخل ونحو ذلك عنه (٦٨) .

العقـــل :

مدح اله تعالى مسمى العقل فى القرآن الكريم فى غير آية . كذلك رويت أحاديث نبويه كثيرة عن فضل العقل الانسانى . منها قـسول النبى صلى الله عليه وسلم (ان الرجل ليكون من أهل الصيام وأهل الصـــلاة وأهل الحج وأهل الجهاد فما يجزى يوم القيامة الا بقدر عقله) .

وعن على قال ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (والله لقد سبق الى جنـــات عدن اقوام ما كانوا بأكثر الناس صـــلاة ولا صياما ولا حجـــا ولا اعتمـــارا ، ولكنهم عقلوا عن الله تعالى مواعظـــه فوجلت منه قلوبهم واطمأنت اليه النفوس وخشعت منه الجوارح ففاقوا الخليقة بطيب المنزلة وحسن الدرجة عند الناس فى الدنيا وعند الله فى الآخرة(٦٩) .

ويقرر شيخ الاسـلام ابن تيمية أن القرآن الحكيم مملوء من ذكر الايات العقلية أى التى يستدل بها العقل ،وهى شرعية دل عليها وارشد اليها . ولكن كثيرا من الناس لا يسمى دليلا شرعيا الا ما دل بمجرد خبر الرســـول ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ وهو اصطلاح قاصر (٧٠) .

ويذهب الشيخ/الدكتور دراز الى اننا نستطيع دراسة القرآن الكريم من زوايا جد مختلفة ، ولكنها جميعا يمكن ان تنتهى الى قطبين اســاسيين هما اللغـــة والفكر ، فالقـــرآن كتـــاب ادبى وعقيـــدى فى نفس الوقت وبنفس الدرجة(٧١) .

---

(٦٨) ابن تيمية ـــ النبوات ص ٦٣ ـــ ٦٤ .

(٦٩) ابن تيميـــة : بغية المرتاد فى الرد على المتفلســـفة والقـــرامطة والباطنية ص٦٠ .

(٧٠) ابن تيمية ـــ النبوات ص٥٢ ط المكتبة السلفية ١٣٨٦ هـ .

(٧١) دكتور محمد عبد الله دراز : مقدمة الكتاب (مدخل الى القـــرآن الكريم) .

لكن ما أحدثه المتكلمون من الكلام المبتدع والمخالف للكتاب والسنة بل هو فى نفس الامر مخالف للمعقول ، ومرد ذلك الى ادخال مصطلحات الفلسفة اليونانية والتعبير بهاعن عقائد الاسلام .

والاصل ان الترجمة من اللغات الاخرى جائزة بل حسن وقد يجب احيانا كما أمر النبى صلى الله عليه وسلم زيد بن ثابت ان يتعلم كتاب اليهود لان المعرفة بلغات الناس واصطلاحاتهم نافعة فى معرفة مقاصدهم ، ولكن المحظور هو عدم الدقة فى فهم الفروق بين الكلمات والمعانى من لغة الى أخرى .

وعلى سبيل المثال فان لفظ (العقل) عند فلاسفة اليونان يقصد به جوهرا قائما بنفسه ، وليس الامر كذلك فى اللغة العربية ، كذلك العقل فى الكتاب والسنة وكلام الصحابة والائمة لا يراد به جوهر قائم بنفسه باتفاق المسلمين وانما يراد به العقل الذى فى الانسان .

وبسبب الخلط بين اللغتين فسر بعض الفلاسفة المسلمين — نقلا عن اليونان — الخلق بنظرية الصدور ، فتصوروا خلق العالم وكأنه صدر عن العقول العشرة والنفوس التسعة الى ان انتهى بالعقل الفعال .

عندما رفض المحدثون اذن منهج المتكلمين وردوه ،لم يفعلوا ذلك انكارا لاحكام العقل وقوانينه ، ولا رفضا للجدل المبنى على أسس منطقية برهانية ، ولكن لأن الاصول التى استند اليها علماء الكلام ، اما انها تلبس المعانى الاسلامية ثيابا ليست لها كمصطلحات الجوهر والعرض والقديم والحادث ومثلها من التعبيرات النابعة من الفلسفة اليونانية والتى لا تعبر عن مدلولات مشابهة فى الاسلام ، او انها تشوه الفكرة وتخلط بين التصورات لأن صلة الفكر باللغة صلة وثيقة » ، وقد وضع المتكلمون هذه المصطلحات أولا ثم ارادوا انزال كلام الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم على ما وضعوه من اللغة والاصطلاح) (٧٢) .

---

(٧٢) ابن تيمية — بغية المرتاد فى الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية ص٢٠ لما الحديث المنسوب الى النبى صلى الله عليه —

السبب الثاني انهم اقاموا حججهم على ادلة مخالفة للمعقول ولا تستقيم مع الادلة العقلية بينما يزعمون انها كذلك .

ونضرب على ذلك مثالين : —

أولا — فكرة نظرية الجواهر الفردة التي يفسرونها بها الخلق . وتتلخص أن الاجسام مركبة من الجواهر الصغار التي قد بلغت من الصغر الى حد لا يتميز منها جانب عن جانب وتلك الجواهر باقية تتقلب عليها الاعراض — أو الصفات الحادثة .

وبناء عليه يرى هؤلاء المتكلمون ان الله تعالى أحدث اعراضا كجمع الجواهر وتفريقها فالمادة التي هي الجواهر المفردة باقية باعيانها . ولكن أحدث صورا هي اعراض قائمة بهذه الجواهر(٧٣) .

ويترتب على هذه النظرية اشد النتائج انحرافا لانه لا يختلف عن مذاهب الفلاسفة القائلين بقدم العالم . فتهسارت بذلك الحجج العقلية للمتكلمين الذين ظنوا انهم بأدلتهم يدافعون عن الاسلام . واصبحوا (كمن اراد أن يغزو العدو بغير طريق شرعي فلا فتح بلادهم ولا حفظ بلاده . بل سلطهم حتى صاروا يحاربونه بعد أن كانوا عاجزين عنه)(٧٤) .

أما الحقيقة الماثلة للاذهان ، واظهر ما تكون في خلق الانسان نفسه . انه خلق من تراب وحوله الله تعالى (الذى احسن كل شيء خلقه وبدا خلق الانسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين) السجدة .

= وسلم انه قال (لما خلق الله العقل قال له قم فقام ثم قال له ادبر فادبر ثم قال له اقعد فقعد فقال ما خلقت خلقا هو خير منك ولا اكرم علي منك ولا احسن منك آخذ وبك اعطي وبك اعرف وبك الثواب وعليك العقاب) فقد اجمع علماء الحديث — ومنهم ابن الجوزي — أن هذا الحديث لا يصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم نفس المصدر ص٢٢ .

(٧٣) ابن تيمية — النبوات ص٥٢ ط المنيرية ١٣٤٦ هـ .

(٧٤) ابن تيمية — شرح العقيدة الاصفهانية ص٦٣ .

فقد خلق الله الانسان ولم يك شيئا (وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا) ولا تعني الآية الاخيرة انه خلق من لا شيء لانه قال تعالى (وجعلنا من الماء كل شيء حي) وهذه هي القدرة التي تبهر العقول وتذهلها ، وهو ان يقلب الحقائق الموجودة فيحيل الاول ويفنيه ويلاشيه ويحدث شيئا آخر فأصل الانسان التراب ونسله الماء المهين . فاذا خلق الله الانسان من المني ، فالمني استحال وصار علقة والعلقة استحالت وصارت مضغة والمضغة استحالت الى عظام وغير عظام . فالانسان مخلوق خلق الله جواهره واعراضه كلها من المني — اي من مادة استحالت ، فليست باقية بعد خلقه ويحدث الله فيها صورا عرضية كما يزعم المتكلمون .

وعند افناء الانسان اذا مات وصار ترابا فني وعدم وكذلك سائر ما على الارض كما قال تعالى اكل من عليها فان ، ثم يعيده من التراب كما خلقه ابتداء من التراب ويخلقه خلقا جديدا . ولكن النشأة الثانية احكام وصفات للاولى . فمعرفة الانسان بالخلق الاول وما يخلقه من بني آدم وغيرهم من الحيوانات وما يخلقه من الشجر والنبات والثمار . وما يخلقه من السحاب والمطر وغيرهما من المخلوقات ، هو اصل لمعرفته بالخلق ، بالمبدأ والميعاد .

وهكذا تنهار الاصول العقلية التي استحدثها المتكلمون .

المثال الثاني : طريقة المتكلمين في اثبات الصانع .

وهي الطريقة التي ابتدعها اهل الكلام زاعمين انها طريقة عقلية صحيحة وخلاصتها ان الله تعالى لا يعرف الا بالنظر والاستدلال المفضي الى العلم باثبات الصانع ولا طريق الى ذلك باثبات حدوث العالم . وطريقتهم في اثبات حدوث العالم مبنية على الاستدلال بالاعراض او ببعض الاعراض كالحركة والسكون او الاجتماع والافتراق وهي الاكوان فان الجسم لا يخلو منها وهي حادثة . وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث ، فاضطرهم ذلك الى القول بحدوث كل موصوف فنفوا عن الله تعالى الصفات وقالوا بأن القرآن مخلوق وانه لا يرى في الآخرة(٧٥) .

---

(٧٥) ابن تيمية — شرح العقيدة الاصفهانية ص٧٨ .

وأدى ذلك الى نتائج مشابهة الى الفلاسفة الدهرية القائلين بقدم العالم ، اذ اثاروا الفلاسفة عليهم فقالوا (هذه الطريقة تستلزم كون الصانع كان معطلا عن الكلام والفعل دائما الى ان احدث كلاما وفعلا بلا سبب اصلا ، وهذا مما يعلم بطلانه بصريح العقل(٧٦)) .

وبعد فاننا نرى من وجهة نظر الباحثين فى نظرية المعرفة ، كيف حددها القرآن الكريم منفصلا الحديث عن الاحاسيس والعقل والشعور مثيرا فى الانسان كوامن الفطرة الموحدة بآية الميثاق ، مدلل على صدق النبوه والرسالة والتوحيد وعالم الغيب بأدلة تمتزج بها والخطاب موجه الى الانسان على الحقيقة بفطرته وروحه وقلبه ووجدانه وأحاسيسه وشعوره وعقله ، فكان التوجيه الالهى للانسان بهذا المفهوم والتكوين الذى خلقه به الله تعالى ، وفى الوقت نفسه حض القرآن على التفكير والتعقل والتدبر فى غير آية .

ومن غير المتصور وغير المنطقى والحقيقى ان يأتى الشرع بأدلة مخالفة للقوانين العقلية الفطرية كالتماثل والاختلاف فانها الميزان الذى يزن بها الانسان المعلومات الواردة اليه . وهذا ما يقصده شيوخ الاسلام من وصفهم لحقيقة الآيات السمعية والقولية والعيانية والعقلية .

ولهذا فان التنازع الموهوم بين العقل والنقل او الادلة العقلية والادلة الشرعية أو أصحاب الرواية وأصحاب الدراية لا محل لها فى تراثنا بالصورة التى ظهرت فى تراث اهل الكتاب . كل ما هنالك أن (عالم الغيب) بما يحتويه من أعاجيب تذهل المألوف مما يراه الانسان ويشاهده ويحسه ويتعقله ، جعل البعض يحاول اخضاعه للمقاييس العقلية الانسانية ، فحدث الاضطراب بين المتكلمين والفلاسفة (ابن خلدون وميزان الذهب) .

وتصبح القضية غير ذات موضوع لاسيما فى عصورنا الحديثة التى كشف العلم فيهما عما يحير العقل ويذهله فى عالم المخلوقات كالافلاك والحيوان والنبات .

---

(٧٦) ابن تيمية — الصفدية جا ص٢٧٥ تحقيق د . محمد رشاد سالم . مطابع حنيفة — الرياض ١٣٩٦هـ — ١٩٧٦م .

ادلة الشرع عقلية :

اثبت علماء السلف ان ادلة الشرع عقلية ايضا وليست نقلية فحسب ، فان القرآن الكريم جاء بالادلة العقلية على احسن بيان وأقومه ، واستخلصوا منه الطرق المبينة على البراهين المنطقية التي تخاطب الانســـان اينما كان وحيثما وجد . وكلها دل عليها القرآن الذي وصفه اللـــه تعالى بانه يهدى للتي هو اقوم :

ومن هذه الطرق دلالات الانفس والآفاق التي يدعو القـــرآن الحكيم للنظر فيها والاعتبار بها والتفكر في نظمها .

اما الاولى فهي دلالة الانفس - قال الله تعالى (قتل الانسان ما اكفره من اى شيء خلقه من نطفة خلقه فقدره) .

وقال تعالى (وفي انفسكم افلا تبصرون) .

وقال عز وجل (يا ايهـــا الانســـــان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك في اى صورة ما شاء ركبك) وقال (كيف تكفرون بالله وكنتم اموانا فاحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم اليه ترجعون) وقال سبحانه (اولم ير الانسان انا خلقناه من نطفة فاذا هو خصّيم مبين وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهي رميم قل يحييها الذي انشاها اول مرة .

اما دلالة الآفاق فان القران الكريم يحثنا على تدبر ما يحدث حولنــا في عالمنا الذي نعيش فيه وما يطرأ من تغييرات تتعاقب فيه في اوقات محدودة وازمنة معروفة كطلوع الشمس والقمر والكواكب وغروبها ودوران الافلاك والنجوم والسفن الجاريات في البحار والرياح وتغير احوال الهواء بالغيــوم والصواعق والبروق وانزال الامطار فتسقى الزرع وتنبت الاشجار والفواكه والازهار والثمار وتمد الابحار والانهار والآبار ، وما في اختلاف الليل والنهار والفصول - وقد جمع الله تعالى ذلك في قوله (ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجرى في البحر بما ينفع الناس وما انزل

الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض **لآيات لقوم يعقلون**)(٧٧) .

وقد جمع الله تعالى دلائل النفوس والآفاق فى قوله تعالى (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق) وذلك اننا نعلم بالضرورة وجودنا احياء قادرين عالمين ناطقين سامعين مبصرين متحركين بعد ان لم نكن شيئا وان أول وجودنا كان نطفة قذرة مستوية الاجزاء والطبيعة غاية الاستواء بحيث يمتنع فى عقل كل عاقل ان يكون منها بغير صانع حكيم ما يختلف اجناسا وانواعا واشخاصا .

اما الاجناس فكما نبه عليه قوله تعالى (والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على اربع) .

واما الانواع فنبه عليها بقوله سبحانه (الم يكن نطفة من منى يمنى ثم كان علقة فخلق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والانثى) ومنه (ثم سواك رجلا) .

واما الاشخاص فبقوله تعالى (قتل الانسان ما اكفره من اى شىء خلقه من نطفة خلقه فقدره ثم السبيل يسره) .

فهذا هو الفكر المأمور به ، وهو اى النظر فى هذه الامور وهى طريقة السلف التى اتبعوها مستندين الى كتاب الله عز وجل)(٧٨) .

وقد ظل هذا المنهج موحدا بين علماء الحديث والسنة على مر الاعصار ، فنجد الامام عبد الحميد بن باديس رحمة الله عليه — ينبهنا فى العصر الحديث الى ضرورة اتباع هذا المنهج دون غيره لأنه العاصم من الزلات فيقول (ونحن — معشر المسلمين — قد كان منا للقرآن العظيم هجر كثير فى الزمان الطويل وان كنا به مؤمنين . بسط القرآن عقائد الايمان كلها

---

(٧٧) ابن الوزير اليمانى — ايثار الحق على الخلق ص٤٣ — ٤٩ — ٥٠ .
(٧٨) ابن الوزير اليمانى — ايثار الحق على الخلق ص٤٤ .

بادلتها العقلية القريبة القاطعة فهجرناها وقلنا تلك ادلة سمعية لا تحصل اليقين واخذنا في الطرائق الكلامية المعقدة واشكالاتها المتعددة واصطلاحاتها المحدثة) .

ويرى الامام بن باديس ان الاقيسة العقلية في القرآن كافية للرد على المخالفين ؛ فقد قال تعالى (ولا يأتونك بمثل الا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا) ٢٥ الفرقان .

وتفسير ذلك (ولا يأتيك يا محمد هؤلاء المشركون وامثالهم بكلام يحسنونه ويزخرفونه ويصورون به باطلا أو اعتراضا فاسدا الا جئناك بالكلام الحق الذي يدمغ باطلهم ويدحض شبهتهم وينقض اعتراضهم ويكون أحسن بيانا واكمل تفصيلا)(٧٩) .

وفي قوله تعالى (فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادا كبيرا) ٢٥ الفرقان .

يرى في هذه الآية نصا صريحا في أن الجهاد في الدعوة الى الله تعالى واحقاق الحق من الدين وابطال الباطل من شبه المشبهين وضلالات الضالين وانكار الجاحدين هو بالقرآن العظيم ، ففيه بيان العقائد وادلتها ورد الشبه عنها (٨٠) .

تعقيب :

بعد دراستنا لبعض المشكلات الكلامية التي اثيرت في العالم الاسلامي على صعيد العقيدة والفكر ، انتهت الى الاقتناع بان طريقة القرآن الحكيم تسمو ببراهينها على كافة الطرق ؛ وأن منهج الاقتداء مع الوعي والفهم والتدبر يوصل الى الحق من اقصر طريق لانه الطريق المستقيم .

وعلينا هاهنا ان نقف لنستطلع بنظرة عامة مقارنة ، ما كان عليه السلف وما طرأ على المسلمين من تغييرات — واذا اكتفينا بدليل واحد وهو

---

(٧٩) تفسير الامام عبد الحميد بن باديس جـ١ ص٤٢١ .
(٨٠) نفس المصدر ص٤٢٩ .

الموقف من القرآن الكريم ، فما اشد المفارقة والتباين بين الصحابة وتابعيهم الذين آمنوا بأن القرآن كلام الله ، فخشعت له قلوبهم وخضعت جوارحهم لاحكامه ، فاستغرقهم التدبر فى آياته وتنفيذ احكامه ، وبين القسوى التى اهدرت فى المناقشات والمحاورات والابتلاءات .

ان الموازنة بين الاتجاهين توضح لنا الآثار التى خلفها علم الكلام بحجة استخدام النظر فى الدفاع عن العقيدة الذى نشأ عن أيدى المعتزلة — والنظر فى اصطلاحهم هو الفكر الذى يطلب من قام به علما أو غلبة الظن(٨١) — وليس اليقين . فما الذى ادى اليه هذا الفكر ؟

كان الصحابة رضى الله عنهم — وهم صدور هذه الامة — يعرفون حق القرآن الكريم عليهم ، فوصفهم ابن عمر رضى الله عنهما بقوله (كان القرآن ثقيلا عليهم — اى يقدرونه حق قدره — ورزقوا علما به وعملا ، وان آخر هذه الامة يخف عليهم القرآن حتى يقرأه الصبى والعجمى لا يعلمون منه شيئا) .

ومهما يكن من أمر فى تفسير ظهور المشكلة وآثارها ، فانهما لا شك خلفت مظاهر لا تخفى على عين قارىء التاريخ الباحث عن الحقيقة متجردا من الهوى فقد ارتفع نصيب المناقشات الجدلية على حساب الايمان ، تنقص هذا وزاد ذاك . يقول الانصارى فى كتابه (ذم الكلام) (واوجبوا النظر فى الكلام واضطروا اليه الذين بزعمهم ، فكفروا السلف وسموا الاثبات تشبيها . . . فلا يكاد يرى منهم رجلا ورعا ، ولا للشريعة معظما ولا للقرآن محترما ولا لحديث موقرا ، سلبوا التقوى ورقة القلب وبركة التعبد ووقار الخشوع) (٨٢) .

وبايجاز شديد ، تبين كيف كان الدارمى فى حكمه صادقا ومصيبا فى تعليل ما حدث بالردة ، فبعد أن كان القرآن قد اطلق العرب — بل والناس جميعا — من عقال الجاهلية ، وارتقى بهم الى آفاق حضارة رائعة فى مجال العقيدة والفكر والعلم والاخلاق بفضل الوحى الالهى لانه يفوق طور العقل الانسانى القاصر — عادوا ليصفدوا انفسهم بالاغلال . . داخل اسوار عقولهم !!

---

(٨١) فتاوى ابن تيمية جـ٥ ص٢٣٣ تحقيق مخلوف .
(٨٢) نفس المصدر ص ٢٣٠ — ٢٣٢ .

الباب الخامس

علم الكلام على مفترق الطرق

ـ السلف والاشاعرة .

ـ محنة القرآن ونتائجها المنهجية .

ـ التعريف بابن كلاب .

ـ اثبات صفة العلو لله تعالى شرعا وعقلا .

ـ الامام ابو الحسن الاشعرى والمنهج السلفى

التمييز بين الاشاعرة والسلف عقيدة ومنهجا :

ـ صفات الله سبحانه وتعالى .

ـ نظرية الكسب الاشعرية وتفسير افعال الانسان .

ـ عدل الله وحكمته .

ـ نظرية الجوهر وتفسير الخلق والبعث .

ـ توافق ادلة الكتاب والسنة مع الواقع المشاهد .

ـ صعوبات امام النظرية فى تفسير البعث .

ظهور الحقيقة لائمة الاشاعرة :

ـ تحول ائمة الاشعرية الى طريقة السلف .

ـ تقييم ابن تيمية لشيوخ الاشاعرة .

ـ طريقة السلف اعلم واحكم .

علم الكلام على مفترق الطرق

السلف والاشـاعرة :

تبين لنا مما تقدم أن علماء الحديث والسنة وقفوا طويلا امام علم الكلام نابذين أصحابه ، مبتعدين عن الخوض فيه ، ثم دخلوا الميدان حينما قويت شوكة المعتزلة ، فاضطروا اضطرارا الى مجابهتهم — لاسيما عنـد محنة القرآن — ولكن بمنهج مخالف ، فكانت طريقتهم فى الدفاع عن أصول الدين اتباع منهج السلف أى مراعاة المعانى الصحيحة والالفاظ الشرعـية ، والرد على من تكلم بلفظ مبتدع يحتمل حقا وباطلا ، ومثال ذلك ما مر بنـا من طريقة الامام أحمد فى المحنة ، فقد دأب على الامتنا عن التلفظ بالفـاظ لم ترد بالشرع ، فلما حاول الزامه القول بالجسمية ، امتنـع واجاب (هو أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا احد)(١) .

ورأى المحدثون بعده أن طريقة الامام ابن حنبـل هى كفيلة وحدها بالرد على أهل السنة من المتكلمين وغيرهم ، ومن ثم فلم ينكروا جنس النظر والاسـتدلال فيما يتعلق بأصول الدين ، ولكنهم انكروا الاصطلاحات التى أوردها اهل الكلام وخالفوا بها الاصول الشرعية ، ومنذ ذلك الحين ، يمكن التمييز بين نوعين من الكلام : أحدهمـا كما يذكر السفاريتى — هو العلم المشحون بالفلسفة والتأويل والالحاد والاباطيل وصرف الايـات القرآنيـة عن معانيها الظاهرة والاخبار النبوية عن حقائقها الباهرة ، والثانى : علم السلف ومذهب الاثر وما جاء فى الذكر الحكيم وصحيح الخبر (٢) ويعنى ذلك الاستدلال بالآيات والاحاديث .

وكانت حجة علماء الحديث أن الشارع — صلى الله عليه وسـلم لم يترك شيئا من أصـول الدين وفروعه الا واوضحه ، فكيف نترك آثاره ويستند الى آراء غيره ؟ ومن هذه الوجهة لخص الامام أحمد موقف علماء الحديث جميعا ، اذ لما سئل عن الكوابيس (٢٤٥هـ) — وهو أحد زعمـاء

---

(١) ابن تيمية — موافقة صحيح المنقول مع صريح المعقول جـ١ ص١٥٣

(٢) شرح عقيدة السفاريتى جـ١ ص٩٤ .

المتكلمين — اجاب (انما جاء بلاؤهم من هذه الكتب التى وضعوها تركوا آثار رسول الله صلى الله عليه وسلم واصحابه ، واقبلوا على هذه الكتب(٣) .

كذلك اكتفى علماء السنة والحديث واتباعهم بالحديث النبوى حيث أوضح اصول الدين افضل توضيح ، وبينها احسن بيان بحيث يغنى عن الالتجاء الى غيره مصدرا او طريقا . يقول الخطيب البغدادى فى كتابه (شرف اصحاب الحديث) : (ولو أن صاحب الرأى المذموم شغل نفسه من العلوم ، وطلب سنن رسول رب العالمين ، واقتفى آثار الفقهاء والمحدثين ، لوجد ذلك ما يغنيه عما سواه ، واكتفى بالاثر عن رايه الذى رآه ، لأن الحديث يشتمل على معرفة اصول التوحيد ، وبيان ما جاء من وجوه الوعد والوعيد ، وصفات رب العالمين تعالى عن مقالات الملحدين ، والاخبار عن صفات الجنة والنار ، وما أعد الله تعالى فيهما للمتقين والفجار ، وما خلق الله فى الارضين والسموات من صنوف العجائب وعظيم الآيات ، وذكر الملائكة المقربين ، ونعت الصافين والمسبحين .

وفى الحديث قصص الانبياء ، واخبار الزهاد والاولياء ومواعظ البلغاء وكلام الفقهاء وسير ملوك العرب والعجم ، واقاصيص المتقدمين من الامم ، وشرح مغازى الرسول صلى الله عليه وسلم وسراياه ، وجمل احكامه وقضاياه ، وخطبه وعظاته واعلامه ومعجزاته ، وعدة ازواجه واولاده واصهاره واصحابه ، وذكر فضائلهم ومآثرهم . وشرح أخبارهم ومناقبهم ، ومبلغ اعمارهم ، وبيان أنسابهم(٤) .

اما المنهج الكلامى المعتزلى ، فكانت ابرز معالمه — فضلا عما تقدم من التزامهم بالاصول الخمسة — مخاصمة اهل الحديث والطعن فى الاحاديث النبوية ، اذ تحامل المعتزلة على المحدثين ، واتخذوا من الجدل اساسا للطعن فى النصوص ، واولوا المتشابه من آى القرآن الكريم تأويلا لم

(٣،٤) الخطيب البغدادى — شرف اصحاب الحديث ص٦ ، ٧ — ٨ .
تحقيق د . محمد سعيد خطيب أوغلى طـ دار احياء السنة النبوية — انقره ١٩٧٢م .

يفرهم أهل السلف عليه ، **وكانت مسألة الصفات الالهية من اهم مسائل النزاع بينهما** ، حتى أصبحت علما مميزا بين الطائفتين — أو بين المثبتين والنافين لها ، يقول الشهرستانى (اعلم ان جماعة كبيرة من السلف كانوا يثبتون لله تعالى صفات ازلية من العلم والقدرة والحياة والارادة والسمع والبصر والكلام والجلال والاكرام والجود والانعام والعزة والعظمة . **ولا يفرقون بين صفات الذات وصفات الفعل ، بل يسوقون الكلام سوقا واحدا**(٥) .

ولما كانت المعتزلة ينفون الصفات ، والسلف يثبتون ، سمى السلف « صفاتية » والمعتزلة « معطلة » .

وبلغت ذروة الخلاف بين الاتجاهين عند محنة خلق القرآن التى عرضنا تفاصيلها فى الباب السابق ثم تفجر الموقف بعدها عن اتجاه آخر جديد ، سنعرض له فيما يلى :

محنة خلق القرآن ونتائجها المنهجية :

كانت محنة خلق القرآن بحق — كما يرى أستاذنا الدكتور ابراهيم مدكور — نقطة تحول واضحة فى تاريخ الحياة الفكرية والعقائدية فى تاريخ المسلمين ، ذلك لانها اثارت فى نفوس المسلمين ما اثارت من سخط وغضب ، وعززت النزعة السلفية لمواجهة تيار العقليين الغلاة (٦) .

ومنذ ذلك الوقت تميزت المواقف ازاء أصول الدين فكانت الغالبية العظمى من أهل الحديث والسنة فى موقف المعارضة للقول بخلق القرآن بخاصة ونفى الصفات الالهية بعامة الذى تبناه المأمون والخليفتان من بعده وبالنظر لقانون الفعل ورد الفعل ، كان اظهر ردود الفعل على يد احد ائمة المتكلمين المنتسبين للسنة وهو عبد الله بن سعيد بن كلاب(٧) (وفاته بعد

---

(٥) الشهرستانى — الملل والنحل جـ١ ص٩٥ ط صبيح ١٣٤٧هـ .
(٦) د . ابراهيم مدكور — فى الفلسفة الاسلامية — منهج وتطبيق جـ٢ ص١١٣ .
(٧) كخطاف لفظا ومعنى كما فى (طبقات الشافعية لابن السبكى) .

٢٤٠هـ) ، وأصبح التابعون لآرائه ينسبون اليه باسم (الكلابية) .

وسار على طريقته أبو الحسن الاشعرى (٣٢٤هـ أو ٣٣١هـ) الذى كان منتسبا الى المعتزلة نحـو اربعين سنة ثم أعلن خروجه عليهم ونبـذ عقائدهم وتبنى عقائد الامام احمد بن حنبل .

وينسب الاشعرى الى ابن كلاب لاعتناقه بعض عقائده ــ كما سنرى ــ ثم صارت الشهرة بعد ذلك لابى الحسن الاشعرى ، وصار على نهجه كبار الائمة المنتسبين اليه كالباقلانى ٤٠٢هـ والجوينى ٤٧٨ هـ والغـزالى ٥٠٥هـ والشهرستانى ٥٤٨هـ والرازى ٦٠٦هـ وغيرهم .

ومنذ قيام الاشعرى والاشعرية بعده بالرد على المعتزلة ومعارضتهم ، اصبح هناك تياران يعيشان جنبا الى جنب ، كل منهما ينتهج منهجا متميزا وان كان الاثنان يرتبطان بالسنة والجماعة تميزهما عن الفرق الخارجة عن الجماعة الخوارج والشيعة والمعتزلة والقدرية والجهمية .

والمنهجان ينتسبان الى السنة ويعلنان انهمـا يتمسكان بها ، ولكن المحدثين يرون أن منهجهم وحده الذى يلتزم باتباع طريقة السلف .

وكانت الضربة القاضية للمعتزلة على يد واحـد كان منهم ــ ونعنى بذلك ابا الحسن الاشـعرى ، وتـاريخه الذى يعبـر تعبيـرا صـادقا عن الازمـة النفسـية والاضطرابات التى لاقاها بعد أن عاش سنة على الاعتزال متلمذا على أبى على وولده ابن هاشم الجبـائى ٣٠٣ ، ٣٢١هـ ولكنه عندما عرف طريقة الامام أحمد ومنهجه وعقيدة أهل السنة والجماعة التى امتحن وابتلى بسببها ، عندما عرف ذلك كان شجاعا فى التصريح بنبذه منهج المعتزلة وعقائدهم ، وأخذ يؤلف كتبه للرد عليه ونقض آرائهم ، وتابعه الائمة المنتمون اليه بعده كالباقلانى والجوينى والغزالى وغيرهم .

ولم يكن طعن المنهج الاعتزالى وتأويلاته بالقهـر والقسر كما محـن المأمون وخلفاؤه فى قضية خلق القرآن ، ولكن بمقارعة الحجة بالحجـة ، واستخدام المنهج العقلى سواء بطريقة أبى الحسن الاشعرى واتبـاعه ،

او بالمنهج الذى اصله علماء الحديث والسنة الذى درسنا فكرة عنه ، على لسان الامام احمد بن حنبل وعبد العزيز المكى وغيرهما .

ولكن الصحيح ايضا أنه قامت موجة عارمة بواسطة علماء الحديث لصد موجة الاعتزال ، ولكنها مهما اخذت شكل العنف احيانا او الالتجاء الى أولى الامر ، فانها لم تصل الى ما وصلت اليه على يد المأمون ، الذى شأن (أن يجعل من تعاليمهم عقيدة رسمية . واتخذ موضوع (خلق القرآن ، شعارا لذلك . وجاراه فى هذا الخليفتان التاليان المعتصم والواثق ، وقضى المسلمون ما يقرب من نصف قرن فى قلق فكرى ، وجدل متواصل ، وامتحان لبعض الائمة وقادة الراى ، لم يسلم فيه بعضهم من السجن والتعذيب والقتل(٨) .

وقد اثبت استاذنا الدكتور ابراهيم مدكور فى دراسته عن المحنة أن بطلها بلا منازع كان الامام احمد بن حنبل ابى ان يجارى الحكام فيما ذهبوا اليه ، او أن يجارى الحكام فيما ذهبوا اليه ، او ان يأخذ بالتقية فى امر يمس العقيدة ، لانه كان يرى انه (اذا اجاب العالم تقية ، والجاهل بجهل ، فمتى يتبين الحق ؟) — ولم تسكن هذه العاصفة الا يوم أن تولى المتوكل سنة ٢٣٢ هجرية وأخذ يعالج الموقف فى حذر وحكمة ، واستطاع فى عام ٢٣٧ ان يامر بوقف هذا الصراع ، فهدأت ثائرة ، وسكنت جماهير متحركة ، واحس انصار السلف بتأييد رسمى لهم ، الى جانب تأييد الراى العالم . ولم يلبث هؤلاء ان غلوا بدورهم فى الجمود والمحافظة غلوا ربما زاد على غلو المعتزلة ، فتطرفوا فى ارائهم ، واستمسكوا بحرفية النصوص ، وانتقلنا من غلو عقلى الى غلو آخر نقلى ، وعلى رأس هؤلاء الغلاة جماعة الحنابلة الذين اصبح لهم نفوذ عظيم ببغداد فى آخريات القرن الثالث للهجرة حتى اصبح يهدد الامن والنظام ، وقد امتد بعض الوقت)(٩) .

اضف الى ذلك ان موقف الحنابلة لم يكن طارئا جديدا على مسرح الاحداث ، بل كان امتدادا لمنهج علماء الحديث والفقهاء قبلهم بزمن طويل .

(٨،٩) د . مدكور — فى الفلسفة الاسلامية — منهج وتطبيقه جـ٢ ص١١٤ .

وكان اضطهاد المأمون لمعارضيه شاملا الحنابلة وغيرهم من ائمة السنة والحديث .

ولكننا نرى أن مهما كان نفوذ الحنابلة فى ذلك الحين ، انه لم يبلغ نفس النفوذ المفروض بالقوة الذى بداه بها المأمون واتباعه امثال بشر المريسي وابن أبى دؤاد . أضف الى ذلك انه لم يظهر دور الحنابلة المميز فى ذلك الوقت المبكر لأن الفقهاء والمحدثين واتباعهم كانوا مجتمعين تحت لواء واحدة ولم تظهر الفرقة بين الحنابلة والاشاعرة بشكل مؤثر الا فى عصر متأخر عندما قامت فتنة القشيرى عام ٤٦٩هـ اى بعد المحنة بما يقرب من قرنين ونصف قرن بين الحنابلة والاشاعرة .

وتخبرنا كتب التاريخ عن حوادث عارضة حيث تنازع الفريقان واتباعهم ، مثل ما حدث بين الامام ابن خزيمة واتباعه وابن كلاب واتباعه ، وكان اثبات صفات الله تعالى هو المعروف عند أهل السنة والحديث كالبخارى وأبى زرعة وأبى حاتم ومحمد بن يحيى الذهلى وغيرهم من العلماء الذين ادركهم ابن خزيمة وتابعهم فى العقيدة حيث استقرت على الايمان بأن الله تعالى لم يزل متكلما اذا شاء ، وانه يتكلم بالكلام الواحد مرة بعد مرة . وترتب على ذلك ان صار الناس حينذاك حزبيين ، منهم من وافق ابن خزيمة كالحاكم والسلمى والشهرستانى وابن منده ، ومنهم من وافق ابن كلاب كأبى ذر الهروى وأبى بكر البيهقى (٩ب) .

ولكن صدى هذا الخلاف لم يتعد ان امر ابن خزيمة — فى رواية — ولاة الامر بتأديبهم لمخالفتهم له وكانوا من اتباعه . وفى رواية أخرى — أنه هب مناقشا لآراء الكلابية (فلم يزل يصيح بتشويهها ، ولقن فى الكتاتيب ونقش فى المحاريب ، ان الله تعالى متكلم ... ان شاء الله تكلم وان شاء سكت ..)(١٠) .

وهناك حادثة ثانية كانت بمثابة فصل الخطاب فى النزاع بين الاشعرية

(٩ب) ابن تيمية — موافقة جـ٢ ص٦ — ٧ .
(١٠) نفس المصدر ص٤٢ .

والحنابلة ، ولكنها لم تخرج ايضا عن خلاف بين الفريقين واسفر — كما يذكر ابن كثير فى تاريخه — عن مقتل رجل واحد .

وتسمى هذه الحادثة **بفتنة القشيرى** ، من حوادث عام ٤٦٩هـ بسبب أن ابن القشيرى قدم بغداد فجلس يتكلم فى المدرسة النظامية واخذ يذم الحنابلة وينسبهم الى التجسيم ، وكتب الى نظام الملك يشكو الله الحنابلة ويسأله المعونة عليه ، كما ارسل بعض مؤيديه الى الشريف ابن جعفر شيخ الحنابلة وهو فى مسجده للاعتداء عليه فدافع عنه اتباعه ، واقتتل الناس بسبب ذلك وقتل رجل خياط وجرح آخرون ثم انتهت الفتنة بالمصالحة بين شيوخ الطرفين ، واستدعى الخليفة ابو جعفر شيخ الحنابلة الى دار الخلافة للسلام عليه والتبرك بدعائه .

ولكن يفهم من سياق الحادثة ان البادىء هم اتباع الاشعرية لا الحنابلة ، كما يستخلص منها ايضا ان الاشعرية كانوا اقوى شوكة وانهم استندوا الى قوة الوزير فى اثارة الناس على الحنابلة . وجاء هذا على لسان شيخ الحنابلة الى الشيخ ابى اسحق (.. الا انك لما كنت فقيرا لم تظهر لنا ما فى نفسك ، فلما جاء الاعوان والسلطان .. ونظام الملك — اى الوزير — وشبعت ، ابديت ما كان مختفيا فى نفسك)(١١) .

وتضطر للتساؤل ، اين مثل هذه الحوادث بحجمها ونتائجها مع ضراوة الاساليب التى اتخذها المأمون والخليفتان من بعده !؟ .

وبغير استطراد فى سرد الوان الاضطهاد والتعذيب مما تحشده كتب التاريخ من المحنة — حتى اصبح اللفظ مصطلحا معبرا عن محنة خلق القرآن وحدها !! — سنكتفى بالواقعة المشهورة المذهلة التى تتلخص فى اختبار اسرى المسلمين بقضية خلق القرآن ونفى رؤية الله عز وجل فى الجنة ، فان اجابوا بالايجاب فك اسرهم وان لم يفعلوا اعيدوا الى الاعداء

---

(١١) ابن كثير — البداية والنهاية ج١٢ ص١١٥ .

مرة اخرى !!(١٢) .

قال المسعودي يصف هذه المأساة (وحضر هذا الفداء رجل يكنى ابا رملة من قبل احمد بن ابى دؤاد قاضى القضاة . يمتحن الاسارى وقت المفاداة فمن قال منهم بخلق التلاوة وعلى الرؤية ونفى الرؤية فودى به ، واحسن اليه . ومن ابى ترك بأرض الروم . فاختار جماعة من الاسارى الرجوع الى ارض النصرانية على القول بذلك . وابى أن يسلم الانقياد الى ذلك ، فنالته محن ومهانة الى أن تخلص(١٣) .

. فان ذلك المنهج لم يكن قاصرا على الحنابلة وحدهم اما عن الفكرة الشائعة عن الغلو فى التمسك بالنصوص ، وسنحاول توضيحه فى الصفحات القادمة ، عندما ندرس آراء ابن كلاب والاشعرى فى ضوء مؤلفات لعلماء الحديث والسنة تتضمن المنهج العقلى حيث برهنوا به على أن طريقة المتكلمين لم تخل من ثغرات كبيرة لا يمكن سدها الا بالتأويل الصحيح لنصوص التنزيل .

وبذلك فان وصفهم بـ (التصيين) لا ينطبق بالمعنى الحرفى عليهم ؛ واذا كانت طريقتهم مبنية على تفصيل ادلة الشرع فانهم ما فعلوا ذلك الا بناء على فهمهم لتفسيرها الصحيح ، ومعرفتهم لاساليب اللغة واسرارها واسباب النزول ، واستدلالات الاوائل بهـا ، ولذلك مضى علماء السنة يستدلون بآيات القرآن والاحاديث بناء على ادراكهم العميق لها ، وامتلاكهم لنواصى منهج البحث العلمى كاملا فى قضايا أمور الدين واصوله مما جعلهم فرسانا فى هذا الميدان لا يجاريهم فيه احد فلم يقتصروا على ظاهر النصوص كالظاهرية مثلا .

---

(١٢) ومع هذا يؤسفنا أن نجد باحثا جادا كالدكتور محمد عمارة فى كتاب (تيارات فى الفكر الاسلامى) يغض الطرف عن هذه الحقيقة ويقتصر وصف المحنة على ما حدث لبعض المعتزلة نتيجة خروجهم

(١٣) وقد عدد الاسرى حينذاك بأربعة آلاف وثلثمائة واثنين وستين من ذكر وأنثى وقيل أربعة آلاف وسبعة وأربعين (المسعودى — التنبيه والاشراف ط القاهرة ١٣٥٧هـ ص ١٦١ — ١٦٢ .

وللتعريف بهم وبمنهجهم فى البحث العلمى ، نورد طرفا من وصف امام الحرمين أبو الحسن الكرجى (٥٣٢) لهم ووصف قدراتهم وعلومهم واسباب تفضيلهم على غيرهم(١٤) ، قال :

لانهم اجمع لشرائط (القدوة والامامة من غيرهم واكثر لتحصيل اسبابها وأدواتها — مع جودة الحفظ والبصيرة ، والفطنة والمعرفة بالكتاب والسنة ، والاجماع والسند والرجال والاحوال ، ولغات العرب ومواضعها والتاريخ والناسخ والمنسوخ ، والمنقول والمعقول ، والصحيح والمدخول فى الصدق والصلابة ، وظهور الامانة والديانة ممن سواهم) . واذا فرض ولم يستكمل احدهم هذه الشرائط جميعا جبر تقصيره قرب عصره من الصحابة والتابعين لهم باحسان ،با ينوا هؤلاء بهذا المعنى من سواهم فان غيرهم من الائمة — وان كانوا فى منصب الامامة — لكن اخلوا ببعض ما أشرت اليه مجملا من شرائطها(١٥) .

اسفرت المحنة اذن عن التمييز بين منهجين معارضين للمعتزلة :

احدهما : منهج علماء الحديث المتصل بسلسلة طويلة من الائمة .

---

(١٤) ويقصد بهم ائمة أهل السنة فى انحاء العالم الاسلامى كالشافعى ومالك والثورى والبخارى وسفيان بن عيينة وعبد الله بن المبارك والاوزاعى والليث بن سعد واسحق بن راهويه وغيرهم .

(١٥) ابن تيمية — نقض المنطق ص١٤٣ — ١٤٤ نقلا عن شيخ الحرمين أبو الحسن الكرجى (٥٣٢هـ) بكتابه (فى الاصول من الائمة الفحول) .

ويرى الكرجى انه يلزم كل من يتبع احدا من الائمة فى الفروع ان يتبعه فى الاصول أيضا ، فانتحال مذهبه — مع مخالفته له فى العقيدة — مستنكر شرعا وطبعا . فمن قال : انا شافعى الشرع اشعرى الاعتقاد ، قلنا له : هذا من الاضداد ، لا بل من الارتداد !! اذ لم يكن الشافعى اشعرى الاعتقاد . ومن قال : انا حنبلى فى الفروع معتزلى فى الاصول ، قلنا : قد ضللت اذا عن سوء السبيل فيما تزعمه ، اذ لم يكن احمد معتزلى الدين والاجتهاد !! .

بادئة بعصر الصحـابة والتابعين ، ولكن اصبح الامام ابن حنبـل علما له واشتهر باسمه بسبب مالاقاه وحده فى المحنة من عذاب وابتلاء ، بـ ينما كان موقفه فى الحقيقة معبرا عن طريقة العلماء من معاصريه والسابقين عليـه السائرين على طريق السنة .

الثانى : موقف جديد معارض للمعتزلة ايضا ، ولكن استخدم طريقة علماء الكلام مع محاولة التوفيق — فى رأيهم — بين المنقـول والمعقول وقد بداه ابو الحسن الاشعرى ، موافقا مذهب السنة والحديث فى أصولهم العلمية كاثبات صفات الله تعالى خلافا للنفاة ، واثبات القـدر وأن أعمـال الناس وغيرهم بمشيئة الله وقدرته ، خلافا لنفاة القدر ، واثباته لفضـائل الصحابة لاسيما الخلفاء الاربعة ، وموافقة لاهل السنة فى عقـائدهم فى الشفاعة والصراط والميزان . كما قام بالرد على المعتزلة والشيعة والجهمية مبينا تناقضهم(١٦) .

ولما كان الاشعرى بعد رجوعه عن الاعتزال قد سلك طريقـه ابن كلاب ، فاننا سنعرض أولا لعقيدة ابنكلاب ، قبـل الحـديث عن الشيخ الاشعرى لمعرفة الصلة بينهما ، لاسيما فى موقفهما من موضـوع كلام اللـه تعالى .

التعريف بابن كلاب :

تروى كتب الفرق أن أبا الحسن الاشعرى لما رجع عن الاعتزال سلك طريقة أبى محمد بن كلاب ، الذى قام مدافعـا عن عقيـدة أهل السنة فى مواجهـة المعتزلة مبينا فساد قولهم بنفى علو الله تعالى ، ونفى صفاته وصنف كتبا كثيرة فى أصل التوحيد والصفات ، وبين أدلة كثيرة عقلية على فساد قول الجهمية ، وبين فيها أن علو الله على خلقـه ، ومباينته لهم من

---

(١٦) ابن تيمية : مجموع فتـاوى جـ٤ ص١٣ ط الرياض ١٣٨١هـ وفى موضع آخر يدافع عن الاشعرى بحرارة مقررا أنه بين من تناقض اقوال المعتزلة وفسـادها ما لم يبينه غيره حتى جعلهم فى قمـع السمسمة !! (شرح حديث النزول ص١٧٢) .

المعلوم بالفطرة والادلة العقلية القياسية ، كما دل على ذلك الكتاب والسنة ، اذ كان الجهمية النفاة المعطلة للصفات فى عصره يقولون : ان الله لا يرى ولا له علم ولا قدرة وانه ليس فوق العرش رب ، ولا على السموات اله ، وان محمدا صلى الله عليه وسلم لم يعرج به الى ربه . وقد انصفه ابن تيمية فاقر بما كان له من فضل وعلم ودين ودافع عنه ازاء من يرمونه بأنه ابتدع ما ابتدعه ليظهر دين النصارى فى المسلمين وراى انه كذب عليه(١٧) ، وانما افترى هذا عليه المعتزلة والجهمية الذين رد عليهم لانهم يزعمون ان من اثبت الصفات فقد قال بقول النصارى ، بينما كان ابن كلاب اقرب الى السنة من الجهمية والمعتزلة(١٨) .

ولكن وجه الخطأ فى تأويل ابن كلاب ومن وافقه ظنه انه لا يمكن رد قول الجهمية فى القرآن الا اذا قيل ان الله تعالى لم يتكلم بمشيئته وقدرته ، ولا كلم موسى حين اتاه ، ولا قال للملائكة اسجدوا لآدم بعد ان خلقه . ولا يغضب على احد بعد ان يكفر به ، ولا يرضى عنه بعد ان يطيعه .

---

(١٧) شرح حديث النزول ص١٧١ .

(١٨) ويذلك طعن ابن تيمية فى الرواية التى يحكيها خصوم ابن كلاب . وتتلخص فى الادعاء بأنه كان نصرانيا فأسلم وفارق قومه ، وكانت له اخت أكبر منه عالمة بدين النصرانية ، لها عندهم قدر عظيم فهجرته حين اسلم وابعدته من المحلة ، لانها كانت راهبة للنصارى مقبولة القول عندهم ، يصدرون عن رايها فتحيل عليها كل احد من المسلمين والنصارى من الجيران ، فى ان تمكنه من الدخول اليها فلم تفعل فاحتال حتى تسلق عليها من بعض بيوت الجيران . فلما رأته صاحت فقال لها : يا سيدتى اسمعى منى كلمة واحدة ، ثم افعلى ما بدا لك . فقالت : هات . فقال : اعلمى انى وجدت هذا الاسلام ينتشر ويزداد كل يوم ظهورا ، والنصرانية تضمحل آثارها،فوضعت فصولا وعملت مسائل — ذكرها لها — اودعتها معنى النصرانية ، ولسستها فى الاسلام ، وشوشت عليهم اصولهم . فلما سمعت ذلك منه طابت نفسها .

* (عيساس بن منصور السكسكى الحنبلى (متوفى ٦٨٣هـ) — البرهان فى معرفة عقائد أهل الاديان ص١٩ تحقيق خليل احمد ابراهيم الحاج ، دار التراث العربى ١٤٠٠ هـ — ١٩٨٠م) .

ولا يجبه بعـد أن يتقرب اليـه بالنوافل ، ولا يتكلم بكلام بعد كلام فتكون كلماته لا نهاية لها .

وكانت هذه العقيدة التى اتخذها ابن كلاب واتباعه بمثابة رد فعـل لما زعمه الجهمية بأن القرآن مخلوق ، فظنـوا أن دفع هذا القـول والرد عليه يقتضى الاعتقـاد بأن كلام الله تعـالى معنى واحد قائم بذاته ، وبذلك خالفوا سلف الامة وجمهورها القائلين بأن كلام الله بعضـه افضـل من بعض ، كما بين ذلك الكتاب والسنة وآثار الصحابة والتـابعين من غير خلاف يعرف فى ذلك عنهم(١٩) .

لذلك انكر بعض اصحاب مالك والشافعى على ابن كلاب هذا الاصل وامر احمد بن حنبل وغيره بهجر الكلابية ، حتى هجر الحـارث المحاسبى لانه كان صاحب ابن كلاب ، وكان قد وافقه على هذا الاصـل ، ثم روى عنه أنه رجع عن ذلك ، وكان الامام احمد يحذر من الكلابية(٢٠) .

والصحيح فى راى ابن تيمية أن القرآن الكريم — وأن كان كله كلام الله تعالى وكذلك التوراة والانجيل والاحاديث القدسية (أو الالهية) التى يحكيهـا الرسول صلى الله عليه وسلم عن الله تبارك وتعـالى ككقوله (يا عبادى ، انى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا) — وكقوله (من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى) وامثال ذلك ، فهى وأن اشتركت فى كونها كلام الا أن بعضها افضل من بعض ، وشرح ذلك يحتاج الى بيان أن الكلام له نسبتان :

نسبة المتكلم به ، ونسبة الى المتكلم فيـه . فهو يتفـاضل باعتبـار النسبتين وباعتبار نفسه أيضا ، فان (قل هو الله احد) و (تبت يدا أبى لهب) كلاهما كلام الله تعالى ، وهما مشتركان من هذه الجهـة ، لكنهما متفاضلان من جهة المتكلم فيه ، المخبر عنه ، فالآيات الاولى كلام الله وخبره الذى يخبر به عن نفسـه ، وصفته التى يصف بها نفسـه ، وكلامـه الذى

---

(١٩) ابن تيمية — جواب أهل العلم والايمان ص٥٢ — ٥٣ .
(٢٠) نفس المصدر ص٥٥ .

يتكلم به عن نفسه تعالى . والآيات الثانية كلام اللـــه الذى يتكلم به عن بعض خلقه ، ويخبر به ويصف به حاله ، وهما فى هذه الجهــة متفاضــلان بحسب تفاصيل المعنى المقصود بالكلامين(٢١) .

ولكن ، لا ينكر ابن تيمية فضل ابن كلاب عندما قام فى وجه المعتزلة مثبتا صفات الله تعالى ، ومنها صفة العلو ، وهى بايجاز تتلخص فيما يلى :

اثبات صفة العلو لله تعالى شرعا وعقلا :

نقد ابن كلاب بشدة رأى المعتزلة القائل بأن الله سبحانه وتعــالى لا هو فى العالم ولا خارج منه لأن هذا النص يتساوى مع وصف العــدم . وعلى هذا فان دعواهم هى النفى الخالص بدعوى التوحيد الخالص ، مع انهم عقليــون قياسيون وعرض آرائهم على العقــل تكشف أخطــاءهم . وفيما يلى رأى ابن كلاب بايجاز :

يستند ابن كلاب فى ايراد حجته لاثبات استواء الله على العرش الى حجج عقلية وشرعية ، فمن الحجج **العقلية** ، ان المعتزلة اذا وصفوا الله عز وجل بأنه ليس فوق ولا تحت ، فانهم بذلك يصفون العدم . وهم يعتقدون أن الله فى الامكنة كلها ، فيتساءل ابن كلاب متعجبا (وان كنتم تذهبون الى خلوه من استوائه عليها كما استوى على العرش ، فنحن لا نحتشم أن نقول استوى الله على العرش ونحتشم أن نقول استوى على الارض واستوى على الجدار ، وفى صدر البيت) .

وأيضا يلزمهم بالفوقية ، لانهم يعنون بها القدرة والعزة ، وليس هذا اجابة عن سؤاله لهم ، لانهم من ناحية أخرى يصفونه بأنه ليس هو فوق وليس هو تحت — ويلزمهم بالتناقض — لأن ما كان لا تحت ولا فوق فعدم ، ويتناقضون أيضا بقولهم هو تحت وهو فوق ، فساووا بين الجهتين ، وهذا تناقض .

---

(٢١) ابن تيمية : جواب أهل العلم والايمان ص٥٧ .

أما التفسير فهو فى جانب اثبات صفة العلو لله تعالى ، فاذا تعمقنا فى غور الفطرة الانسانية ، لوجدنا من المفروض فيها معرفة ربها فى السماء ، ومعارف الآدميين هنا لا شىء أبين منه ولا أوكد ، فلا تسال أحداً من الناس عربيــــا ولا عجميــــا ولا مؤمنــــا ولا كافرا — أين ربك ؟ لأجاب بأنه فى السماء ، ولا رأينا أحدا اذا دعا الا رافعا يديه الى السماء ، فكيف يضــل الناس جميعا ويهتدى جهم وأتباعه ، ويدعون أنهم أفضل الناس كلهم ؟ !!

ويضيف ابن كلاب الى ذلك الدليل الشرعى فى الحــديث النبوى عن سؤال الرسول صلى الله عليــه وسلم جارية (أين الله) ؟ فأجابت (فى السماء) ، فأجاز اجابتها الرسول ، وأنه صواب ، ومن أجله شهد لهــا بالايمــان(٢٢) .

وبعد فان وقوف ابن كلاب فى وجه المعتزلة واثباته للصفات الالهيــة كان بمثابة تمهيد لآراء أبى الحسن الاشعرى بعده ، ولهذا عده صــاحب (الفهرست) من الكلابية(٢٣) .

ويرى الاشاعرة بعامة — حينما يذكر ابن عساكر المتكلم بلسانهم — فى ظهور آراء امامهم أبى الحسن الاشعرى حسما للمشاكل الكلامية المثاره حينذاك على مسرح الفكر الاسلامى من الوجهين المنهجى والموضوعى ، فقد استطاع منهجيا استخدام نفس أسلوب المعتزلة لدحض آرائهم مستخدما المنهج الكلامى الجدلى ، كما استطاع موضوعيا ايجاد الحلول للمســائل المتنازع عليها بين طائفتى أهل الحديث والسنة والمعتزلة ، وأهمها الصفات الالهية والقدر ورؤية الله عز وجل فى الآخرة . يقول حمودة غرابة (وعلى يديه وحده تمت هزيمة المعتزلة بعــد أن نازلهم بنفس ســلاحهم وناقشهم

---

(٢٢) ابن تيمية — مجموع فتاوى جـ٥ ص٣١٨ — ٣٢٠ . ط السـعودية

(٢٣) ابن النديم : الفهرست ص١٨١ ط فلوجل ليبك ١٨٧١م .

بأسلوب يعتمد على العقل والمنطق(٢٤) .

ويقرر ابن عساكر أن الاشعرى لم يكن أول من تكلم بلسان أهل السنة ، ولكنه جرى على سنة غيره ، مناصرا المذهب فزاد حجة وبيانا (ولم يبتدع مقالة اخترعها ولا مذهبا انفرد به .. وليس له فى المذاهب اكثر من بسطه وشرحه وتأليفه فى نصرته(٢٥) .

وسنعرض فيما يلى لاهم القضايا الكلامية من وجهة نظر الامام الاشعرى ، ثم نتبعهما بآراء شيخ الاسلام ابن تيمية باعتباره ممثلا للمذهب السلفى ومدافعا عنه .

الامام ابو الحسن الاشعرى والمنهج السلفى :

هو أبو الحسن على بن اسماعيل أبى بشر الاشعرى ، من اهل البصرة ، وكان معتزلى النشأة والعقيدة ، ثم رجع عن القول بآرائهم . واعلن فى المسجد الجامع بالبصرة فى يوم الجمعة مناديا باعلى صوته (من عرفنى فقد عرفنى ، ومن لم يعرفنى فانا اعرفه نفسى .. أنا فلان بن فلان .. كنت اقول بخلق القرآن ، وأن الله لا يرى بالابصار ، وأن افعال الشر انا افعلها ، وانا تائب مقلع)(٢٦) .

ولن نخوض فى الدراسة التفصيلية لآراء الاشعرى وائمة المذهب

---

(٢٤) د . حمود غراب : أبو الحسن الاشعرى ص٥٩ من مطبوعات مجمع البحوث الاسلامية ١٣٩٣هـ — ١٩٧٣م .

(٢٥) ابن عساكر — تبين كذب المفترى على الامام أبى الحسن الاشعرى ص١١٨ .

(٢٦) ابن النديم — الفهرست ص١٨١ ليبسك ١٨٧١م تحقيق فلوجل وكان الاشعرى شديد المعارضة للمعتزلة بعد خروجه عن صفوفهم ومن مظاهر ذلك انه كتب مدللا على كفر النظام — فروى البغدادى فى كتابه (الفرق بين الفرق) ذلك بقوله (ولشيخنا أبى الحسن الاشعرى رحمه الله فى تكفير النظام ثلاثة كتب) ص١٣٢ بتحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ط مكتبة محمد على صبيح بالازهر .

بعده ، فان المؤلفات العديدة قديما وحديثا قد كفتنا مؤونة ذلك ، ولكننا سنشغل أنفسنا ببيان أهم الموضوعات التى كانت مثار مناقشة بين الاتجاهين البارزين فى دائرة علم الكلام عبر قرون طويلة ممتدة حتى عصرنا الحاضر ، وهو السبيل لتوضيح المنهج عند كل منهما — ونعنى بذلك الاتجاهين :

المذهب الاشعرى بامامة أبى الحسن الاشعرى ، والسلفى بامامة شيخ الاسلام ابن تيمية ، وبالرغم من أنهما ليسا متعاصرين ، الا أنهما استأثرا بجذب علماء المسلمين وعامتهم منهجيا وعقائديا ، ولكن الفرق بينهما أن الاول كما قلنا نشأ فى بيئة الفكر الاعتزالى ثم خرج عليه مفضلا التأويل فى أغلب آرائه — ثم روى أنه رجع فى نهاية حياته الى اعتناق مذهب الامام أحمد بن حنبل — ولكن الثانى ، أى ابن تيمية ، وان عاش فى العصور المتأخرة — خلال القرن السابع — الثامن الهجرى (مولده ٦٦١هـ ووفاته ٧٢٨هـ) ، الا أنه استمسك بمنهج الاوائل منذ الصحابة والتابعين — فضلا عن أدلة الكتاب والسنة — مدافعا عن الاسلام بصرامة وأصوله بخاصة بأسلوب الحجاج العقلى ، مؤكدا اتفاق الادلة العقلية مع الادلة الشرعية ، وظهر أثره الايجابى فى كثير من رجال الفكر والدعوة فى العصر الحديث كمحمد بن عبد الوهاب والافغانى ومحمد عبده وابن باديس ومحمد اقبال وغيرهم .

أما منهج الاشعرى ، فقد كان نتاجا للنزاع العميق الذى تفجر بين المعتزلة وعلماء الحديث والسنة فى عصره ، وبدا محاولاته الجدلية الكلامية بعد انفصاله عن صفوف المعتزلة ، وكان يظن بحكم ثقافته ونشأته وتكوينه بافتراق طريقى العقل والنقل ، وأن دوره يقتضى الجمع بينهما ، وكان حريصا على الارتباط بأهل السنة والحديث فى شخص امامهم أحمد بن حنبل ولذلك ذيل مقالتهم فى كتابه (مقالات الاسلاميين) بقوله (وبكل ما ذكرنا من قولهم نقول ، واليه نذهب ، وما توفيقنا الا بالله ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، وبه نستعين ، وعليه نتوكل ، واليه المصير)(٢٧) .

---

(٢٧) مقالات الاسلاميين جـ٢ ص ٣٢٥ .

وظل المذهب الاشعرى ينتقل من طور الى آخر بواسطة شيوخ المدرسة ، كالباقلانى والجوينى والشهرستانى والغزالى والامدى والرازى : ومازال يلقى قبولا وتاييدا لدى الغالبية العظمى من المسلمين ، فلسنا بازاء قضايا تاريخية انقطعت صلتنا بها ، بل مازالت تلقى اهتماما فى دوائر الفكر الاسلامى المعاصر ايضا . ويقابلها الاتجاه السلفى المتصل بابن تيمية .

ويقول الاستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق :

(اما النهضة الحديثة لعلم الكلام تقوم على نوع من التنافس بين مذهب الاشعرية ومذهب ابن تيمية .

وانا لنشهد تسابقا فى نشر كتب الاشعرية وكتب ابن تيمية وتلميذه ابن القيم ، ويسمى انصار هذا المذهب الاخير انفسهم بالسلفية ، ولعل الغلبة فى بلاد الاسلام لا تزال الى اليوم لمذاهب الاشاعرة)(٢٨) .

ومع تقديرنا البالغ لعلمائنا الذين بذلوا الجهد الكبير وافنوا اعمارهم فى خدمة الاسلام عقيدة وشريعة ، ورغبتنا فى التوحيد والتآلف بين الصفوف ، نرى أن اسهامنا فى توضيح مذهب اهل السنة والحديث — وابن تيمية واحد من ابرزهم — يعبر عن اقتناع بتفضيل منهج السلف لاتصاله الوثيق بالقرآن والكشف عن الطرق العقلية بهما ، وهما لا شك باقيان ابدا . وينبغى أن يكونا دائما جامعين للمسلمين .

ولعل الدور الذى قام به شيخ الاسلام ابن تيمية يوضح اكثر من الامام الاشعرى التقاء المعقول ، بل التحامهما ، وذلك بسبب بيئته الثقافية وتكوينه العلمى ومواهبه الذهنية والقضايا المثارة فى عصره . فقد عاش فى زمن انقسمت فيه الفرق الاسلامية انقساما كبيرا وتضخمت المشكلات

---

(٢٨) الشيخ مصطفى عبد الرازق — تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية ص٢٩٥ ط لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ١٣٦٣هـ — ١٩٤٤م .

الكلامية والفلسفية ، وتوقفت الاجتهادات الفقهية فشاع التقليد والتعصب للمذهبية الضيقة ، كذلك عانى المسلمون الامرين بسبب آثار حروب طاحنة متوالية بسبب الحروب الصليبية وغزوات التتار ، فتنبه الشيخ السلفي الى صلة العقيدة بالواقع الثقافي والاجتماعي والسياسي ، بل أرجع هذه الحروب الى تراخي العلاقة بين المسلمين وعقيدتهم ، وبسبب تفرقهم وتنازعهم .

وكان نفوذ الاشعرية هو السائد آنذاك ، فأثاروا مع ابن تيمية عده مناقشات تتعلق بأصول الدين ، واجتاز بسببها المحن تلو المحن ، وكانت دوافعه تنبيه المسلمين الى منهج السلف ، بعد أن قام بدراسة نتاج شيوخ الاشاعرة ، وهاله أن يجد اختلاط الكلام بالفلسفة اليونانية ، واستخدام الحدود والاقيسة المنطقية الارسطاطالية ، فوقف ابن تيمية ليدافع بشدة عن قضية موافقة الشرع للعقل ، ولم يدع لنفسه تجديداً — مع انه كذلك — وعكف على قراءة واستيعاب مئات المؤلفات لعلماء الحديث والسنة قبله ، وأخذ يدعم منهجهم ويشرحه لمعاصريه ، مستخدما اصطلاحات المتكلمين والفلاسفة ايضا ، معالجا لكافة القضايا المثارة ، ناعيا بعمق للمنهج السلفي ومدافعا عنه بكافة الاساليب المتاحة ، فضلا عن ابرازه لأحد سمات الاسلام البارزة بشموله وسعة دائرته لامور الدين والدنيا ، ولا بأس هنا من الاشارة بصفة عاجلة لاهم القواعد التي استند اليها ، قبل أن ننتقل لعرض منهجه بالتفصيل ، وهي :

أولا — أن أن أصول الدين وفروعه قد بينها الرسول صلى الله عليه وسلم .

ثانيا — أصحاب القرون الاولى هم الافضل مستندا الى قول الله تعالى (والسابقون الاولون من المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم باحسان) التوبة ١٠٠ ، وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم (خير القرون الذى بعثت فيهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم) ، وتفسير ذلك انه رضى عن السابقين مطلقا ورضى عمن اتبعهم باحسان ، وذلك متناول لكل من اتبعهم الى يوم القيامة(٢٩) .

---

(٢٩) النبوات ص١٦١

ثالثا — ان الاولى استخدام طرق القرآن فى الحجـاج والجـدل . والتعبير عن حقائق الايمان بكلمات القرآن افضل ، سيما انه اراد اساليب الرسل فى مناقشة الامم الذين بعثوا اليهم(٣٠) ، والامثلة كثيرة : منهـا ان الله تعالى قد اخبر عن قوم نوح وابراهيم ومجادلتهما للكافرين (قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنـا) هود ٣٢ وعن قوم ابراهيم (وحاجة قومه — الى قوله — وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه) الانعام ٨٠ كما قصت محاجة ابراهيم عليه السلام للنمروز . وايضا فان الدارس للقرآن المتدبر لآياته يلتقى مع مناظرات متعددة للكفار والاحتجاج عليهم بالادلة العقليـة الكافيـة الشافية ، وان الله تعالى امر بالجـدل بالتى هى احسن فقـال (ولا تجـادلوا أهل الكتـاب الا بالتى هى أحسن الا الذين ظلموا منهم) العنكبوت ٤٦ وقال سبحانه (وجادلهم بالتى هى احسن) النحل ١٢٥ .

رابعا — ان آيات الله السمعية والعقلية والعيانية كلها متوافقـة . فلا تعارض اذن بين ادلة الشرع وادلة العقل(٣١) .

وربما كان اكثر ما اثار شيخ الاسلام ان تيمية هو اعتبار المنهج الذى اختطتـه الاشـاعرة لانفسـهم افضـل من منهـج السلف ، فاعتبروا طريقـة السلف اسلم وطريقتهم هم اعلم واحكم ، ولا شك ان مثـل هذا الشعار يؤدى الى تفضيل الخلف على السلف فى العلم والبيان والتحقيق والعـرفان ، ويصف السلف بالنقص فى ذلك والتقصير فيسه ، او الخطـأ والجهل ، ويؤدى الى الزعم ايضا بان (اهل القرون المفضولة فى الشريعة اعلم وافضل من اهل القرون الفاضلة)(٣٢) .

لذلك بذل ابن تيمية المحاولات تلو الاخرى فى كتبه ومناقشاته لاثبات ان السلف كانوا اهل نظـر ودراية الى جانب كونهم اهل نقـل ورواية . وانهم آثروا عدم تضييع جهودهم واوقاتهم فى محاولات عقيمة ، اذ راوا فى كتـاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليـه وسلم ، واقاموا البنـاء

---

(٣٠) نفس المصدر ص١٥٧ .
(٣١) ن . م . ص٣٠٣ .
(٣٢) ابن تيمية — نقض المنطق ص١٢٨ .

كاملا فى العقيدة والشريعة والعبادات والنظم والاخلاق جميعا ، فاذا ارادت الامة أن تأخذ بزمام أمورها من جديد بين الامم ، فعليها باتباع طريقتهم ، وهذا معنى قول عبد الله بن مسعود (من كان منكم مستنا فليستن بمن قد مات ، فان الحى لا تؤمن عليه الفتنة ، أولئك أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم : كانوا أبر هذه الامة قلوبا ، وأعمقها علما ، وأقلها تكلفـــا ، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه واقامة دينـــه ، فاعرفوا لهم حقهم ، وتمسكوا بهديهم ، فانهم كانوا على الهـــدى المستقيم) ويمضى الشيخ فى شرح ذلك فيصف الصحابة بالمقارنة بغيرهم بأنهم كانوا أقل الناس تكلفا ، يصدر عن أحدهم الكلمة والكلمتان من الحكمة أو من المعارف ، ما يهدى الله بها أمة ؛ وهذا من منن الله على هذه الامة ، ونجـــد غيرهم يحشـــون الاوراق من التكلفات الشطحات(٣٣) .

ونرى ابن تيمية محقا فى نظرته . واذا كان المجال هنـــا غير مناسب للكشف عن درايته العميقة بأصول التفسير التاريخى ، أو ما يسمى بفلسفة التاريخ ، الا انه كثيرا ما كان يعالج فى مؤلفاته أسباب هزائم المسلمين وطمع أعدائهم فيهم ويعللها بسبب التفرق والاختلاف ، وقد أصـــاب فى تفسيره اذ شغلوا أنفسهم بالبحث فى حقائق توقيفية مصدرها الوحى ، فانصرفوا من العمل والتنفيذ ، وكان بوسعهم المضى قدما فى مجالات العلوم والمعارف النافعة ، وكان لعلمائهم جهود لا تنكر فى هذه الميادين كما أسفرت عنـــه الدراسات الحديثة المصنفة .

والآن ، نتسـاءل : هل وفق الاشاعرة فى التمييز عن أئمة السلف عقيدة ومنهجا ؟(٣٤) .

---

(٣٣) نفس المصدر ص١١٣ ـــ ١١٤ .

(٣٤) سبقنا الى طرق هذا البحث أستاذنا الدكتور محمد على أبو ريان بكتابه (تاريخ الفكر الفلسفى فى الاسلام) ، وانتهى الى أن البون شاسـع بين موقف السلف ومذهب الاشـاعرة من حيث أنه لم يثبت أن السلف قد استخدموا الكلام فى شرح العقيـــدة ، أو مالوا الى التأويل فى تفسيرها ص٢٢٣ .

مع العلم بأن السلف يرون أن هنـــــاك نوعين من الكلام : مذموم وممدوح ، وقد نقدوا الاول واستخدموا الثانى كما بينا .

تقتضى الاجابة دراسات متشعبة يضيق عنها نطاق هذا الكتاب مما اضطرنا الى اختيار بعض القضايا التى دار حولها النقاش لكى نعرف بالمقارنة مدى التمايز بين المنهجين ، وهى كما يلى :

اولا ــ صفات الله سبحانه وتعالى :

فرق الاشاعرة بعامة بين صفات الذات وصفات الافعال الالهية قال الامدى (مذهب اهل الحق : أن الواجب بذاته مريد بارادة ، عالم بعلم ، قادر بقدرة ، حى بحياة ، سميع بسمع ، بصير ببصر ، متكلم بكلام ، وهذه كلها معان وجودية ازلية زائدة على الذات)(٣٥) .

وقد تعرض هذا الموقف للنقد بواسطة شيخ الاسلام ابن تيمية لانهم اقتصروا على هذه الصفات وحدها ، مؤكدا أن الكتاب تضمن الاسماء والصفات التامة الكاملة لله سبحانه وتعالى ، مثل قوله سبحانه (والهكم اله واحد) ، وقوله عز وجل (رفيع الدرجات ذو العرش يلقى الروح من امره على من يشاء لينذر يوم التلاق يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شىء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار) وقال تعالى (الله لا اله الا هو الحى القيوم) وقوله (وعنت الوجوه للحى القيوم) .

ومما يدل على دقة الشيخ فى النقد انه مع اقراره بالمعنى الصحيح لصفتى **مريد ومتكلم** الا انه باحصاء الآيات القرآنية يتبين أن هذين الاسمين لم يردوا فى القرآن الكريم ولا فى الاسماء الحسنى المعروفة ، ولكن معناهما حق .

ويقرر ابن تيمية أن صفات الله عز وجل ثابتة بالشرع والعقل ، ويعجب من موقف الاشاعرة وغيرهم من الصفاتية الذين اثبتوا الصفات السبع لانها عندهم قد دل عليها العقل ، ويرى أن وجه القصور فى هذا المنهج يرجع الى انهم لم ينتبهوا الى أن هناك من الاسماء والصفات المقدسة

---

(٣٥)سيف الدين الامدى (٥٥١ ــ٦٣١هـ) ــ غاية المرام فى علم الكلام تحقيق د . حسن عبد اللطيف ص٣٨ المجلس الاعلى للشئون الاسلامية بالقاهرة ١٣٩١هـ ــ ١٩٧١م .

ما هو ثابت بالشرع — ولكن يلـزم من عدم الدليـل المعين عـدم المدلول فلا يلزم نفى ما سوى هذه الصفات اذ ان السمع قد اثبت صفات اخرى . واستطرد مثبتا الاسماء والصفات التى تدل على الرحمة والمحبة وغيرهما ؛ ثم ميز بين نوعى الفعل : المتعدى واللازم ، واتخذ من آيات الله تعـالى ادلة على الجمع بين صفات الانفـعال بمثل قوله سبحانه (هو الذى خلق السموات والارض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش) ، واخذ فى تدبر الآيات الاخرى واحصائها مثبتا ان هذا الاصل ورد فى القـرآن فى أكثر من مائة موضع(٣٦) .

كذلك لا يرى سببا يدعو الى انكار صفات الافعال مستندا الى دليل عقلى مقتضاه (ان دلالة السمع على علم الله تعالى وقدرته وارادته وسمعه وبصره ، كدلالته على رضاه ومحبته وغضبه واستوائه على عرشه ونحـو ذلك) .

ويصبح التسـاؤل هنـا رفى موضـعه تماما ، اذ اين الصفات السبعة التى اقتصر عليها الاشاعرة من الاسماء والصفات التى اثبتها الله تعـالى لنفسـه !! لقد اخبرنا فى كتابه انه حى ، قيـوم ، حكيم ، غفور ، رحيم ، سميع ، بصير ، عظيم ، خلق السموات والارض وما بينهما فى سـتة أيام ثم استوى على العرش ، وكلم موسى ، وتجلى للجبل فجعله دكا ، يرضى عن المؤمنين ، ويغضب عـلى الكافرين ، الى امثـال ذلك من الاسـماء والصفات .

هذا من حيث اثبات الصفات والافعال .

اما من حيث النفى ، فان اللـه تعالى يصف نفسه بانه (ليس كمثله شىء) (ولم يكن له كفـوا احد) (هل تعلم له سميا) ؟ (فلا تجعلوا لله أندادا) فنفى بذلك ان تكون صفاته كصفات المخلوقين .

وبعد هذه المقارنة التى عقدها الشيخ ، لفت نظرة اختلاف طريقـة

---

(٣٦) ابن تيمية — شرح العقيدة الاصفهانية ص٣ — ٤ ، ٨ ، ٢٣ .

الانبياء والرسل وطريقة المتكلمين في التحدث عن صفات الله تعالى وبينهما . فان القارىء للقرآن يتضح له أن الله سبحانه وتعالى بعث أنبياءه ورسله باثبات مفصل لاسمائه وصفاته . ونفي مجمل لمسا اى نفوا عنه مماثلة المخلوقات كقوله تعالى (ليس كمثله شيء) . ولكن جاء النظار (اى اهل النظر من المتكلمين النفاة والفلاسفة وغيرهم) فعكسوا القضيه فجاءوا بنفي مفصل واثبات مجمل ، اى يقولون (ليس كذا .. ليس كذا) . والقارىء الذى يراجع هذا الحكم يجده صحيحا تماما ، وخير شاهد على ذلك معتقد المعتزلة في صفات الله تعالى(٣٧) .

اما الرسل صلوات الله عليهم ، فطريقتهم طريقة القرآن ، وطريقة القرآن النفى المجمل والاثبات المفصل ، وقد رد الله تعالى على كل المخالفين لهذه الطريقة بقوله (سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين(٣٨) .

ويلح ابن تيمية دائما في مؤلفاته على قاعدة اصلية يجب الاستناد اليها في توضيح اصول الدين ، وهي ان الاولى بيان الحق الذى جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم مستخدما الاقيسة العقلية والامثال المضروبه ، لانها طريقة الكتاب والسنة وسلف الامة .

والآيات القرآنيــة كثيرة تدل على ضرب الامثال كما قال تعالى (ولا يأتونك بمثل الا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا) ، كما بين سبحانه بالبراهين العقلية توحيده وصدق رسله والبعث وغيرها من قضايا أصول الدين مجيبا بها على معارضة المشركين ، اذ لما سئل النبى صلى الله عليه وسلم عن احياء الموتى ضرب له المثل باحياء النبات كما في سورة (يس) وغيرها .

---

(٣٧) ينظر مقالات الاسلاميين جـ١ ص٢٣٥ — ٢٣٦ وكلها بتضمن النفى في وصف الله تعالى .

(٣٨) ابن تيمية — اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة اصحاب الجحيم ص٤٦٦ — ٤٦٧ .

والاحاديث مملوءة ايضا بذكر صفات الله تعالى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ما منكم من احد الا سيخلو به ربه ، كما يخلوا احدكم بالقمر ليلة البدر) ، فسأله أبو زين العقيلي : كيف يا رسول الله وهو ونحن كثير ؟! فأجابه الرسول صلى الله عليه وسلم ضاربا المثل ، قال (سأنبئك بمثل ذلك في آلاء الله ، هذا القمر من آيات الله كلكم يراه مخليا به ، فالله أعظم) .

ولكن التشبيه هنا تشبيه للرؤية لا للمرئي بالمرئي !! فان الله تعالى ليس كمثله شيء .

وكانت طريقة الصحابة أيضا ، فقد روى عن ابن عباس أنه لما اخبر بالرؤية عارضه السائل بقوله (لا تدركه الابصار) ، فقال له (الست ترى السماء ؟) فقال : بلى فسأله مرة ثانية : اتراها كلها ؟ اجاب: لا ، وبهذا بين ابن عباس للسائل أن نفي الادراك لا يقتضي نفي الرؤية(٤٠) .

ومضى ائمة الحديث والسنة على نفس الطريقة ، اذ عندما اثيرت صفات الله تعالى أيام المحنة ، ومنها صفة العلو لله عز وجل ، بين الامام احمد دلالة القرآن على علوه تعالى واستوائه على عرشه ، وأنه مع ذلك عالم بكل شيء ، كما دل على ذلك قوله تعالى (هو الذى خلق السموات والارض في ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج في الارض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم اينما كنتم والله بما تعملون بصير) ٥٧ — ٤ ، وفسر الامام ابن حنبل المراد بذكر المعية في الآية انه عالم بهم ، وكما افتتح الآية بالعلم وختمها بالعلم ، وأنه سبحانه بين أنه مع علو على العرش يعلم ما الخلق عاملون ، كما في حديث العباس بن عبد المطلب الذى رواه أبو داود وغيره ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال فيه (والله فوق عرشه وهو يعلم ما انتم عليه) .

---

(٤٠) ابن تيمية — موافقة صحيح المنقول جـ١ ص١٤٢ ، ص١٥٢ .

وقد شرح الامام احمد هذا الحديث بالقياس العقلي وضرب مثلين . ولله المثل الاعلى ، فقال (لو ان رجلا في يده قوارير فيها ماء صاف ، فان بصره قد احاط بما فيها ، مع مباينته له ، فالله — وله المثل الاعلى — قد احاط بصره بخلقه ، وهو مستو على عرشه) . والمثال الثاني : لو ان رجلا بنى دارا لكان مع خروجه عنها ، يعلم ما فيها . فالله الذي خلق العالم يعلمه مع علوه عليه ، كما قال تعالى (الا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) ؟ ٦٧ — ١٤ (٤١) .

ثانيا — نظرية الكسب الاشعرية وتفسير افعال الانسان :

نشأ الاشعري كما علمنا في بيئة الاعتزال ، ومن اصولهم العدل ومؤداه ان العدل الالهي في رايهم يقتضي أن الله سبحانه وتعالى لم يخلق افعال العباد ، فالارادة الانسانية حرة ، والانسان نفسه هو خالق افعاله ، ومن ثم يستحق الثواب والعقاب(٤٢) وكان موقفهم هذا بمثابة رد فعل للجبرية القائلين بعدم قدرة العبد على احداث الفعل .

ومن هنا وصف المعتزلة أنفسهم بأنهم اهل العدل . لانهم يستهدفون باثبات الفعل للانسان ، نفي الظلم عن الله سبحانه التي تتجه افعاله نحو قصد وغاية ، وتتفق مع ما يقتضيه العقل من التمييز بين الحسن والقبيح والخير والشر ، فاجمعوا — كما يذكر الشهرستاني على ان العبد قادر على الافعال خيرها وشرها ، مستحق على كل ما يفعله ثوابا وعقابا في الدار الآخرة والرب تعالى منزه أن يضاف اليه شر وظلم . وفعل هو كفر ومعصية(٤٣) .

واستدل المعتزلة ببعض الآيات القرآنية التي تثبت نفي الظلم والشر والقبح عن الله سبحانه وتعالى ، مثل قوله (وما الله يريد ظلما للعباد) وقوله (وما انا بظلام للعبيد) وقوله (ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء

---

(٤١) ابن تيمية — موافقة صحيح المنقول جا ص١٤٣ .
(٤٢) د . ابو ريان — تاريخ الفكر ص١٦٧ .
(٤٣) الشهرستاني — الملل والنحل جا ص٣٦ — ٤٠ ط بدران .

ذي القـربى وينهى عن الفحشـاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون) وغيرها من الايات الدالة عـلى أن اللـه لم يجبر احد على الخير أو الشر أو الحسن أو القبيح ، بل ترك لكل انسان حرية الاختيار فيما يفعل(٤٤) .

ثم جاء الاشعري فاختط طريقـا وسطا بين فـكرة المعتزلة ورأى الجبرية ، فاثبت الحرية الالهية الغير خاضعة للمعيـار الانساني ، فليس لاحد أن يوجب عليه سبحانه فعل الصلاح او الاصلح لعباده ، كمـا أراد اثبات حرية الانسـان وقدرته على الفعل فميز في الانسـان بين حركات الرعدة والرعشـة ، وبين حركات الاختيار والارادة ، الذي يجد الانسـان في نفسـه تمييزا واضحا بينهما ، فالتفرقة راجعة الى أن الحركات الاختيارية حاصـلة تحت القدرة ، متوقفة على اختيار القادر ، ويسمى هذا الفعـل « كسبا » فيكون خلقا من الله تعالى ، ابداعا واحداثا وكسبا من العبد ، حصولا تحت قدرته(٤٥) .

فاذا عدنا للنظرية الجبرية عن الفعـل الانساني ، لما وجدناها تختلف عن فكرة الكسب الاشعرية ، فالجبرية ينفون الفعل حقيقة عن العبد ويضفونه الى الله تعالى ، ولا يختلف ذلك في جوهره عن قول ابي الحسن الاشعري أن الفعل الحاصل اذا اراده العبد وتجرد له سمى هذا الفعل كسبا ، فيكون

---

(٤٤) يذكر الاشعري المقالات المختلفة في فكرة (الكسب) فيقـول : عنـد المعتزلة الانسـان فاعل محـدث ومخترع ومنشيء عـلى الحقيقة دون المجاز . وكثير من اهل الاثبات يقولون : ان الانسان فاعل في الحقيقة بمعنى مكتسب ويمنعون أنه محدث . مقـالات الاسلاميين ج٢ ص٢١٩ .

ثم يذكر رايه (والحق عندى أن معنى الاكتساب هو أن يقـع الشيء بقدرة محدثة ، فيكون كسبا لمن وقع بقدرته) (نفس المصدر ص٢٢١) .

والحق أن مؤدى الفكرة يتفق مع الجبرية المحضـة بطريقة غير مباشرة ،

(٤٥) الملل والنحل ج١ ص٨٨ — ٨٩ .

خلقا من الله تعالى — وابداعا واحداثا — وكسبا من العبد — حصولا تحت قدرته(٤٦) .

وربما أحس الشهرستانى نفسه — باعتباره اشعريا — بهذا المأزق ، فتراه عرضه للمذهب الجبرى، يفرق بين ما سماه بالجبرية الخالصة التى لاتثبتللعبد فعلا أو قدرة على الفعل اصلا،والجبريةالتىيسمهاالمتوسطة — وهى التى تثبت للعبد قدرة غير مؤثرة ، ثم اضطر الى اصطناع موقف الدفاع عن فكرة الكسب فقال (فاما من اثبت للقدرة الحادثة اثرا ما فى الفعل ، وسمى ذلك كسبا ، فليس بجبرى)(٤٧) .

ولم يكن ابن تيمية متعسفا ازاء الاشعرى ، عندما أظهر تناقضه بين الجبريين والقدريين . وهذا يفضى بنا الى بيان النقد التفصيلى الذى يوجهه شيخ الاسلام الى فكرة الكسب الاشعرية . ونقطة البداية فى شرح المسألة انه ينبغى التمييز فى الارادة الالهية بين نوعين : ارادة تتعلق بالامر المتضمنه للمحبة والرضا وهى الارادة الدينية ، وارادة تتعلق بالخلق وهى المشيئة ، اى الارادة الكونية القدرية(٤٨) لاثبات ان كل الافعال خاضعة لقدرة اللـه تعالى ، فى مثل قوله (الذى احسن كل شىء خلقه وبدأ خلق الانسان من طين) وقوله عز وجل (صنع الله الذى اتقن كل شىء) . فاذا نظرنا الى افعال العباد من الطاعات لوجدناها موافقة **للامر الالهى** ، لا موافقة **للارادة الالهية** .

وينتقل الى نقطة اخرى ، فيؤكد ان الله سبحانه وتعالى خالق افعال العباد بارادته ، ولكنه لم يأمر بالكفر والفسوق والعصيان ، كما لا يحب

---

(٤٦) ن . م . الصفحة (٨٩) .
وينظر أيضا نشأة الفكر للدكتور النشار ص٧٨ حيث يحكم على هذا المذهب بانه جبرى خالص ط مكتبة النهضة لسنة ١٩٥٤م

(٤٧) ن . م . ص٧٩ .

(٤٨) ابن تيمية — منهاج ج٢ ص٢٨ — ٢٩ .
واستند ابن تيمية الى قواعد اللغة العربيـة فى شرح وبيان ما قد يغمض على البعض فهمه فى هذه الفكرة .

الفساد ولا يرضى لعباده الكفر ، وهذا ما فهمه السلف الصالح ، كقول أبى بكر وعمر وابن مسعود رضى الله عنهم (اقول برايى فان يكن صوابا فمن الله ، وان يكون خطأ فمنى ومن الشيطان)(٤٩) — ففهموا — اى السلف جميعا — أن الشر مخلوق لحكمة ، ولكنه لا ينسب الى الله تعالى مفردا ، ولكن اما يدخل فى العموم كقوله تعالى (خالق كل شىء) أو يضاف الى السبب (قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق) ، أو يحذف فاعله كقوله فيما حكاه من الجن (وانا لا ندرى اشر أريد بمن فى الارض أم أراد بهم ربهم رشدا) .

يشرح ابن تيمية ضمن أبحاثه اللغوية التى يستقيها من البخارى فى (خلق أفعال العباد) ، لكى يؤكد انه لا تقوم بالله سبحانه وتعالى أفعال العباد ولا يتصف بها ولا تعود اليه أحكامها ، ولهذا قال أكثر المثبتة للقدر بأن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى ، وهى فعل العبد ، فاذا قيل هى فعل الله ، فالمراد أنها مفعولة له لا أنها هى الفعل الذى هو مسمى المصدر ، وأكثر الائمة يفرقون بين الخلق والمخلوق(٥٠) والمسلمون جميعا ينزهون الله تعالى من الظلم ، فليس كل ما كان ظلما من العبد يكون ظلما من الرب ، ولا ما كان قبيحا من العبد يكون قبيحا من الرب ، فان الله ليس كمثله شىء ، لا فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله .

ويعتمد شيخ الاسلام فى نفى الظلم عن الله تعالى على دليل عقلى ، لأن من قوانين الفطرة الانسانية الا يعتبر الانسان مقابلة الظالم على ظلمه بمثابة الظلم له ، فالله تعالى أولى أن لا ينسب الى الظلم ، فاذا أخذ الله العبد بما فعله ، فلا يتم باختياره . ولكن مرد خطأ المعتزلة ونفاة القدر بمسألة ، أنهم قاسوا أفعال الله على أفعال خلقه ، وعدله على عدلهم ، وهو قياس ظاهر الفساد — وسنعود لشرح رايه من عدل الله وحكمته . وعلى النقيض من ذلك غلاة المثبتة للقدر اى الجبرية ، الذين سلبوا العبد قدرته ، زاعمين أن حركته كحركة الاشجار بالبلح ، واشد الطوائف اقترابا منهم — فى راى ابن تيمية — الاشعرى ومن وافقه ، اذ يظهر اضطرابه بين اثباته للعبد

---

(٤٩) منهاج جـ٢ ص٢٥ .
(٥٠) نفس المصدر ص٢٦ .

قدرة محدثة واختيارا ، وان الفعل كسب للعبد ؛ وبين نفيه لتأثير قدرة العبد في ايجاد المقدور ، فخالف بذلك قول **اهل الاثبات** - بأن العبد فاعل لفعله حقيقة ، وله قدرة واختيار ، وقدرته مؤثرة في مقدورها ، كما تؤثر القوى والطبائع . ولهذا قال من قال (ان هذا الكسب الذي اثبته الاشعري — معقول)(٥١) .

بقيت النقطة المشار اليها في السياق ، وهي تتصل بقضية العدل والظلم ، ولهذا سنفرد لها الحديث من **وجهة نظر ابن تيمية** حيث يرى ان فكرة الكسب في جوهرها جبرية ، والجبريون لا ينزهون الله تعالى عن الظلم .

عدل الله تعالى وحكمته :

كانت حجة المعتزلة في نفي القدر اثبات العدل الالهي كما رأينا . ولكن اهل الحديث والسنة مع اثباتهم لعدل الله تعالى يؤمنون بالقدر ايضا . ولا يتنافى هذا مع ذلك ، ولما رأوا ان فكرة (الكسب) تؤدي للجبرية ، عارضوها موضحين الموقف الصحيح فان الله تعالى منزه عن الظلم ، ولا يفعل السوء ولا السيئات — مع انه سبحانه خالق كل شيء : افعال العباد وغيرها .

وقد يحدث الالتباس في فهم البعض بسبب الخلط بين نسبة الفعل الى العبد ونسبته الى الله تعالى ، فان الانسان اذا فعل القبيح المنهي عنه اصبح شرا وظلما بالنسبة اليه ، ومع ان الرب قد جعله فاعلا لذلك - بناء على اختياره ، الا ان ذلك منه سبحانه عدل وحكمة ووضع للاشياء مواضعها ، فهو منه عدل وحكمة وصواب وان كان في المخلوق عيبا .

ويضرب ابن تيمية لذلك مثلا لتقريبه للاذهان - لأن مثل هذا يحدث في الفاعلين المخلوقين ، فان الصانع اذا اخذ الخشبة المعوجة ، والحجر الردي ، واللبنة الناقصة فوضعها في موضع يليق بها ويناسبها ، كان ذلك منه عدلا واستقامة وصوابا وهو محمود ، وان كان في تلك عوج وعيب عن

---

(٥١) نفس المصدر ص١٦ .

به مذمومة ، ومن آخذ الخبائث فجعلها في المحل الذي يليق بها كان ذلك حكمة وعدلا ، وانما السفه والظلم ان يضعها في غير موضعها(٥٢) .

وله المثل الاعلى ، فانه سبحانه لا يضع شيئا الا موضعه ، فلا يكون الا عدلا ولا يفعل الا خيرا ، وهو سبحانه له الخلق والامر ، فأمر بتحصيل المصالح وتكميلها وبتعطيل المفاسد وتقليلها ، واذا تعارض أمران رجح احسنهما ، وليس في الشريعة امر بفعل الا ووجوده للمأمور خير من عدمه ، ولا نهي عن فعل الا وعدمه خير من وجوده وهو فيما يأمر به قد اراده ارادة دينية شرعية واحبه ورضيه ، فلا يحب ويرضى شيئا الا ووجوده خير من عدمه ، ولهذا أمر عباده ان يأخذوا بأحسن ما أنزل اليهم من ربهم فان الاحسن هو المأمور ، وهو خير من المنهي عنه .

والقارىء لمؤلفات ابن تيمية ، يلحظ انه كثيرا ما يعالج قضايا متشابكة في مؤلف واحد او رسالة واحدة ، ولكن وراءها ضابط يمسك بزمامهما فاذا ما وجه الباحث عنايته اليها ظهر الحل واضحا جليا .

وقضية كهذه — اي قضية الايمان بالقضاء والقدر وصلتها بأفعال العباد — من إهم القضايا وأعمقها ، وقد حارت فيها العقول والافهام ، ولهذا نجد ابن تيمية يعالجها من مداخل عدة : مدخل الايمان بأن الله تعالى ربكل شيء ومليكه ، وانه سبحانه خالق العباد وافعالهم ، واثبات صفات الله تعالى من الحكمة والعدل والرحمة كما يفضل احيانا عرض آرائه من خلال التمييز بين الارادة الكونية القدرية والارادة الدينية الشرعية .

ويرى ابن تيمية ان سوء الفهم والاعتقاد بين القدرية والجبرية راجع الى الخلط بين خلق الله تعالى وتقديره ، وأمره وتشريعه ، **فان امره وتشريعه** مقصوده بيان ما ينفع العباد اذا فعلوه ، وما يضرهم ، بمنزلة امر الطبيب المريض بما ينفعه وحميته مما يضره . فأخبر الله على السن رسله

---

(٥٢) ابن تيمية — رسالة في معنى كون الرب عادلا وفي تنزهه عن الظلم ص١٣٠ — ١٣١ بكتاب (جامع الرسائل) المجموعة الاولى — تحقيق الاستاذ الدكتور محمد رشاد سالم مطبعة المدني ١٣٨٩هـ — ١٩٦٩م .

بمصير السعداء والاشقياء ، وأمر بما يوصل الى السعادة ، ونهى عما يوصل الى الشقاوة . وأما خلقه وتقديره فيتعلق به وبجمله المخلوقات ، فيفعل ما له فيه حكمة متعلقة بعموم خلقه ، وان كان فى ضمن ذلك مضرة للبعض . مثال ذلك انه ينزل الغيث رحمة وحكمة ، وان كان فى ضمن ذلك ضرر للبعض بسقوط منزله او انقطاعه عن سفره او تعطيل معيشته . ويرسل الرسل رحمة وحكمة وان كان فى ضمن ذلك اذى قوم وسقوط رياستهم . فاذا قدر على الكافر كفره قدره لما فى ذلك من الحكمة والمصلحة العامة ، وعاقبه لاستحقاقه ذلك بفعله الاختيارى ولما فى عقوبته من الحكمة والمصلحة العامة(٥٣) .

وهناك عاملان آخران يسهمان فى سوء الفهم والخلط فى هذه المسألة احدهما — قياس افعال الله تعالى على افعالنا وهو خطأ ظاهر . ولزيادة ايضاح ذلك فان السيد يأمر عبده بأمر لحاجته اليه ولغرضه ، فاذا اثابه على ذلك كان من باب المعارضة ، وليس هو الخالق لفعل العبد المأمور . ولله المثل الاعلى فانه سبحانه غنى عن العباد، انما امرهم بما ينفعهم ونهاهم عما يضرهم أمر ارشاد وتعليم ، فان اعانهم على فعل المأمور فقد تمت نعمته ، وان خذل ولم يعن العبد حتى فعل الذنب كان له فى ذلك حكمة اخرى ، وان كانت مستلزمة . تألم هذا فانما يألم بافعاله التى من شأنها ان تورثه نعيما او عذابا ، وان ذلك الايراث بقضاء الله وقدره ، فلا منافاة بين هذا وهذا .

العامل الثانى — موقف الناس من حكمة الله تعالى الكلية ، فليس على الناس معرفتها وقد تكون فوق مداركهم القاصرة المخلوقة ، ويكفيهم التسليم لمن قد عرفوا وآمنوا بحكمة الله تعالى ورحمته وقدرته . فمن المعلوم ما لو علمه كثير من الناس لضرهم علمه ، فحكمته سبحانه اكبر من المعقول . لذلك قال تعالى (لا تسألوا عن اشياء ان تبدلكم تسؤكم) المائدة ١٠١ .

ونختم ذلك كله فى كلمات قليلة ولكنها تلخص المسألة وتشرحها بما فيه الكفاية . قال ابن تيمية (وهذه المسألة مسألة غايات افعال الله تعالى ونهاية حكمته ، ولعلها اجل المسائل الالهية ، وما ضلت القدرية الا من

---

(٥٣) ابن تيمية — منهاج السنة جا ص٢٧١ — ٢٧٢ .

جهة قياس الله بخلقه فى عدلهم وظلمهم ، كما ضلت الجبرية الذين لا يجعلون لافعال الله حكمة ، ولا ينزهون عن ظلم ، ودين الله بين الغالى فيه والجافى عنه)(٥٤) .

نظرية الجوهر الفرد وتفسير الخلق والبعث :

تنسب النظرية الذرية العامة الى ديمقريطس من فلاسفة اليونان ، وتتلخص فى تقسيم الوجود الى عدد غير متناه من الوحدات المتجانسة غير المنقسمة غير المحسوسة لتناهيها فى الدقة ، تتحرك فى الخلاء ، ويحدث بتلاقيها وافتراقها الكون والفساد .

واحدها الجوهر الفرد او الجزء الذى لا يتجزأ ، وهى متشابهة الطبيعة تمام التشابه ، وليست لها أية كيفية ، ولا تتمايز بغير خاصيتين : وهما الشكل والمقدار(٥٥) .

ولكن ثمة نقاطا كثيرة هامة فى النظرية لم تعالجها مثل مسألة ما اذا كانت الذرات ذات ثقل ومسألة المصدر الاصلى للحركة ومسألة الضرورة ، فمازالت موضعا للتخمين(٥٦) .

هذه هى النظرية الذرية فى وضعها الاصلى ، صدرت فى محيط فلسفى يونانى ، وبيئة وثنية لا تعرف الها ولا كتابا ولا نبيا . ولعل الفكرة نشأت بسبب التخبط فى تفسير خلق العالم . وكل ما هنالك ان الفلاسفة القائلين بالصورة والهيولى القديمتين زعموا ازلية العالم وحركته عندهم دائرية ولهذا فهى قديمة مثلها فى ذلك مثل مادته ولكن أصحاب النظرية الذرية خالفوهم فاعتقدوا أن الحركة فى هذه الجواهر مستقيمة فهى ليست أزلية ولا أبدية(٥٧) .

---

(٥٤) نفس المصدر السابق .
(٥٥) يوسف كرم — تاريخ الفلسفة اليونانية ص ٣٨ — ٣٩ لجنة التاليف والترجمة والنشر ١٣٧٨هـ — ١٩٥٨م .
(٥٦) الموسوعة الفلسفية المختصرة ص١٤٦ مكتبة الانجلو المصرية سنة ١٩٦٣م .
(٥٧) د . محمد لعى أبو ريان — تاريخ الفكر الفلسفى فى الاسلام ص١٩٧ دار الجامعة المصرية بالاسكندرية .

واقتبس المتكلمون — المعتزلة والاشاعرة — هذه النظريه (ما عدا النظام)(٥٨) مع اختلاف فى التفاصيل ، ولكن الاشاعرة حولوا هذه النظريه الى القول بالمناسبات فى الفعل الالهى ، اى انكار خاصية الاشياء وفاعليتها . فالنار لا تحرق عند التقائها بالخشب مثلا ، ولكن الله تعالى يخلق الاحتراق عند التقائهما لا بسبب النار انها محرقة .

وتنسب النظرية الى الباقلانى (٤٠٢هـ) — وترتيبه الثانى فى المذهب الاشعرى بعد أبى الحسن شيخه — فقال بأن العالم مؤلف من جواهر فردة لا حصر لها ولا تتجزأ ، والعقل هو الذى يضفى على هذه الجواهر الكيفيات التى ليست من طبيعتها وانما هى من العقل فقط ، والجواهر متغيرة محدثة وكذلك اعراضها ، وليست لها خواص أو صفات فعالة بذاتها . اذ ان الله تعالى هو الخالق للجواهر وأعراضها ، وهو سبحانه الذى يحدث فيها خصائصها ، مثال ذلك أن الله تعالى يخلق فعل الاحراق ، وما اجتماع النار والخشب الا مناسبة للاحتراق .

وجاء الغزالى (٥٠٥هـ) بعده فانكر قانون السببية او العلية وارجعه الى مبدأ العادة والتكرار(٥٩) .

ويبدو من سياق النظرية فى صياغتها العامة اثبات قدرة الله تعالى فى المخلوقات ، وانه سبحانه وتعالى هو وحده الفعال لما يريد . ان شاء خلق فى الاشياء خصائصها وان شاء لم يخلقها .

ولكننا مادمنا فى مجال الدفاع عن اصول الدين بالادلة العقلية . فان حسن النوايا لا يكفى ، بل لابد أن يتوافر معها الاقوال المتفقه مع ادلة العقول ، وما يتفق مع المشاهد المجرب المتفق عليه بين البشر . فضلا عن اتفاقه مع النصوص الشرعية المتوافقة مع الادلة العقلية التى تثبت ان الله تعالى سننا فى خلق العالم وحركته .

---

(٥٨) ولكن النظام يرى انه لا جزء الا وله جزء ، ولا بعض الا وله بعض ، ولا نصف الا وله نصف وان الجزء جائز تجزئته أبدا ، ولا غاية له من باب التجزؤ (مقالات الاسلاميين للاشعرى ج٢ ص١٧) .

(٥٩) د . أبو ريان — تاريخ الفكر الفلسفى .. ص٢٠٥ — ٢٠٦ .

من هذه الزاوية ، نقد شيخ الاسلام ابن تيمية هذه النظرية مقدما الادلة الكثيرة من الكتاب والسنة المتوافقة مع المعقولات وما يعلمه الناس بالفطرة والتجربة العملية والمشاهدات العيانية .

ونقطة البداية فى معارضته للنظرية تتلخص فى اثباته ان المتكلمين الآخذين بها لا يجعلون الله تعالى خلق شيئا بسبب ، ولا لحكمة ، ولا يجعلون للانسان قدرة تؤثر فى مقدورها ، ولا لشيء من الاجسام طبيعة ، ولا غريزة بل يقولون (**فعل عنده لا به**) . وخالفوا بذلك الكتاب والسنة ، واجماع السلف والائمة ، وصرائح المعقول(٦٠) .

وسنلخص فيما يلى الادلة التى قدمها ابن تيمية وهى مستمدة من الكتاب والسنة ، ومن آراء العلماء والفلاسفة نتيجة التجارب والنظر والمعقول .

توافق ادلة الكتاب والسنة مع الواقع المشاهد :

اختيار ابن تيمية من النصوص ما يبرهن على اثبات الاسباب ، مثل قوله تعالى (ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما انزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون) البقرة ١٦٤ وقال سبحانه (وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته حتى اذا اقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فانزلنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون) الاعراف ٥٧ .

وقال عز وجل (ونزلنا من السماء ماء مباركا فانبتنا به جنات وحب الحصيد) ق٩ .

وهناك آيات كثيرة اخرى فى كتاب الله تعالى حيث يذكر سبحانه انه فعل هذا بها ، كما ذكر انه انزل الماء بالسحاب ، وانه احيا الارض بالماء .

---

(٦٠) ابن تيمية — الرد على المنطقيين ص٢٧٠ .

أما ما ورد فى السنة ، فكثير ايضا ، فقد ثبت فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال (ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله . لا تنكسفان لموت احد ولا لحياته ، ولكنهما آيتان من آيات الله يخوف الله بهما عباده . فاذا رايتموهما فافزعوا الى الصلاة) .

وامر صلى الله عليه وسلم عند الكسوف بالصلاة ، والذكر ، والدعاء ، والصدقة ، والعتاقة ، والاستغفار ، . وكذلك عند سائر الآيات التى يخوف الله بها عباده .

وقوله صلى الله عليه وسلم (لا تنكسفان لموت احد ولا لحياته) رد لما كان قد توهمه بعض الناس من ان كسوف الشمس كان لأجل موت ابراهيم ابن النبى صلى الله عليه وسلم وكان قد مات وكسفت الشمس ، فتوهم بعض الجهال من المسلمين أن الكسوف كان لاجل هذا . فبين لهم النبى صلى الله عليه وسلم ان الكسوف لايكون سببه موت أحد من اهل الارض ، ونفى بذلك ان يكون الكسوف معلولا عن ذلك .. وبين أن ذلك من آيات الله التى يخوف بها عباده(٦١) .

ومما يثبت ايضا أن التخويف انما يكون سببا للشر وعلة له ، ما قاله تعالى فى سورة الاسراء (وما نرسل بالآيات الا تخويفا) آية ٥٩ وقياسا على ذلك فلو كان الكسوف وجوده كعدمه بالنسبة الى الحوادث ، لم يكن سببا لشر ، وهو خلاف نص الرسول صلى الله عليه وسلم .

ويدعم ذلك ماورد فى السنن — الترمذى والنسائى واحمد — أن النبى صلى الله عليه وسلم نظر الى القمر وقال لعائشة (يا عائشة . تعوذى بالله من شر هذا فان هذا هو الغاسق اذا وقب . وتفسير الحديث ايضا يدل على ان الاستعاذة انما تكون مما يحدث عنه شر .

اضف الى ذلك انه صلى الله عليه وسلم امر عند انعقاد أسباب الشر بما يدفع موجبها بمشيئة الله تعالى وقدرته من الصلاة والدعاء ، والذكر ، والاستغفار ، والتوبة ، والاحسان بالصدقة والعتاقة . فان هذه الاعمال

---

(٦١) ابن تيمية — الرد على المنطقيين ص٢٧٠ — ٢٧١ .

الصالحة تعارض الشر الذى انعقد سببه . كما فى الحديث (أن الدعاء والبلاء ليلتقيان بين السماء والارض فيعتلجان) . ومثل ذلك مثلما جاء عدو فانه يدفع بالدعاء ، وفعل الخير ، وبالجهاد له . ومثلما يفعله المرء اذا هجم البرد ، يدفعه باتخاذ الدفء ، فكذلك الاعمال الصالحة والدعاء .

واذا كانت الحكمة ضالة المؤمن ، فان ابن تيمية لا يكتفى بهذه الادلة فيضيف اليها اتفاق أهل الملل وأساطين الفلاسفة ، مؤيدا ذلك بما ذكر عن بطليموس انه قال (وأعلم أن ضجيج الاصوات فى هياكل العبادات بفنون اللغات يحلل ما عقدته الافلاك الدائرات !!) .

من هذا يتضح خطأ تفسير الخلق — او النشأة الاولى — بنظرية الجواهر الفردة كما فعل المتكلمون — من المعتزلة والاشاعرة — فالثابت أن كل ما سوى الله تعالى محدث وأنه سبحانه خلق الاسباب والمسببات ، وبذلك ينتظم الكون وفق نواميس ثابتة منتظمة .

أما الاعادة والبعث ، فان النظرية ايضا تقصر عن تفسيره والبرهنة عليه ، فادى الى تقوية شبهات الفلاسفة المنكرين لمعاد الابدان ، ونتج عنها صعوبات لن تجد حلا الا بالادلة الشرعية والعقلية ، سنعرض لها كما يلى :

صعوبات امام النظرية فى تفسير البعث :

لما كان أصل رأيهم فى ابتداء الخلق اثبات الجوهر الفرد ، جعلوه ايضا فى الميعاد والبعث ، ولكن اختلفوا بين رأيين :

أحدهما — تعدم الجواهر ثم تعاد .

الثانى — تتفرق الاجزاء ثم تجتمع .

ولكن هذين الرأيين اثارا صعوبات أمامهم فى مواجهة الفلاسفة المنكرين لبعث الابدان حيث تساءل هؤلاء الفلاسفة عن الآتى : —

(أ) الانسان الذى يأكله حيوان ، وذلك الحيوان أكله انسان آخر ، فان الاجزاء فى هذه الاجساد قد اختلطت .

---

(٦٢) ابن تيمية — الرد على المنطقيين ص٢٧٢ .

(ب) ان الانسان يتحلل دائما ، فما الذى يعاد ، أهو الذى كان وقت الموت ؟

فان اجيب بالايجاب ، لزم أن يعاد على صورة ضعيفة ، وهو خلاف ما جاءت به النصوص . وان كان غير ذلك فليس بعض الابدان بأولى من بعض ، أى انها تتفاوت فى القوة والضعف .

واضطر المتكلمون أمام هذه الصعوبات الى القول بأن الله تعالى يخلق بدنا آخر تعود اليه الروح ، فالمقصود تنعيم الروح وتعذيبها سواء كان فى هذا البدن أو فى غيره . وهذا أيضا يخالف النصوص الصريحة باعادة هذا البدن ، كما يخالف عقائد السلف وجمهور العقلاء والفقهاء والفلاسفة والاطباء اذ يجمعون على القول فى خلق الله للاجسام التى يشاهد حدوثها انه يقلبها ويحيلها من جسم الى جسم ؟

وتفصيل ذلك أن الفقهاء يبحثون فى النجاسة مثلا ، هل تطهر بالاستحالة أم لا ؟ كما تستحيل العذرة رمادا والخنزير وغيره ملحا ونحو ذلك .

والاطباء كذلك يقررون بأن المنى الذى فى الرحم يقلبه الله تعالى علقة ثم مضغة ، وهذا التحول يسرى على بنى آدم .

اما آدم عليه السلام فقد خلق من طين ، فقلب الله سبحانه وتعالى حقيقة الطين فجعلها عظما ولحما وغير ذلك من اجزاء البدن ، والمضغة ايضا يقلبها عظاما وبغير عظام . قال الله تعالى (ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ١٢ ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ١٣ ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم انشأناه خلقا آخر فتبارك الله احسن الخالقين ١٤ ثم انكم بعد ذلك لميتون ١٥ ثم انكم يوم القيامة تبعثون) ١٦ المؤمنون .

وكذلك الثمر يخلق بقلب المادة التى يخرجها من الشجرة من الرطوبة مع الهواء والماء الذى سقى به او نزل عليها وغير ذلك من المواد التى يقلبها

---

(٦٣) ابن تيمية — تفسير سورة الاخلاص ص٢٤ — ٢٥ .

ثمرة بمشيئته وقدرته ، والحبة أيضا يفلقها وتتقلب المواد التي يخلقها منها سنبلة وشجرة وغير ذلك .

... وكذلك النار يخلقها بقلب بعض أجزاء الزناد نارا كما قال تعالى (الذى جعل لكم من الشجر الاخضر نارا) يس .

ويجمع ابن تيمية هذه الامثلة لما يربط بينها من حقيقة التحول الخاضعة للمشاهدة والتجربة ، فيقول (نفس تلك الاجزاء التي خرجت من الشجر الاخضر ، جعلها الله نارا من غير ان يكون كان في الشجرة الاخضر نار أصلا ، كما لم يكن في الشجرة ثمرة أصلا ، ولا كان في بطن المراة جنين أصلا بل خلق هذا الموجود من مادة غيره ، بقلبه تلك المادة إلى هذا ، وبما ضمه الى هذا من مواد أخرى)(٦٤)

ويرى شيخ الاسلام أن عقيدة السلف وما أجمع عليه العقلاء وما اتفق عليه الاطباء أن الاجسام تنقلب من حال الى حال ، ويؤيد هذا الاطباء بصفة خاصة في تناولهم لخلق الانسان وأطوار نموه ، فالله تعالى يقلبه ويجعله من جسم الى جسم . وايضا فان معنى الاعادة يدل على أن الله سبحانه

(٦٤) ابن تيمية — تفسير سورة الاخلاص ص٢٥ .
ويختار شيخ الاسلام من بين الاقوال المختلفة في الجوهر الفرد أن الجسم يقبل القسمة الى غاية ، من غير أثبات الجوهر الفرد ، مدللا على ذلك بأن الجسم — كالماء مثلا — يقبل انقسامات متناهية الى أن تتصاغر أجزاؤه ، فاذا تصاغرت استحالت الى جسم آخر ، فلا يبقى ما ينقسم الى غير غاية ، بل يستحيل عند تصاغره ، فلا يقبل الانقسام بالفعل مع كونه في نفسه يتميز منه شيء عن شيء ، وليس كل ما تميز منه شيء عن شيء لزم أن يقبل الانقسام بالفعل ، بل قد يضعف عن ذلك ولا يقبل البقاء مع فرط تصاغر الاجزاء ، لكن يستحيل ، اذ الجسم الموجود لا بد له من قدر ما ولابد له من صفة ما فاذا ضعفت قدره على اتصافه بتلك الصفة انضم الى غيره ، اما مع استحالته أن ذلك من غير جنسه واما بدون الاستحالة ان كان من جنسه كالقطرة الصغيرة من الماء اذا صغرت جدا فلابد أن تستحيل هواء أو ترابا أو تنضم الى ماء آخر (كتاب الصفدية ص١٠٨) .

وتعالى يعيد الجسم بعد أن يبلى (ولهذا يقال هو مثله ، ويقال هذا هو هذا ؟ فان فعل مثل فعل غيره ، ولا يقال أعادة ، وانما يقال : حذاه وشابهه ، بخلاف ما اذا فعل ثانيا مثل ما فعل اولا ، فانه يقال أعاد فعله ، مثلما هدم بيت ثم أعيد بناؤه .

وبعبارة اخرى ، فان الله عز وجل يعيد الخلق بعدما استحالت الأجسام الى غيرها ، فيعيدها من تلك الاجزاء التى انقلبت واستحالت اليها ، والنشأة الاولى خلقة فساد وبناء ملائمة للحياة الدنيا وطبيعتها الفانية بينما الثانية للبقاء فهما يتشابهان من وجه ويتنوعان من وجه آخر ، ولهذا جعل المعاد هو المبدى وجعل مثله ايضا ، فباعتباره اتفق المبدأ والمعاد فهو هو ، وباعتبار ما بين النشأتين من الفرق فهو مثله .

فلا بد اذن من الاستناد الى الحقيقة القرآنية الممثلة فى خلق الله ، منها قوله تعالى (أولا يذكر الانسان انا خلقناه من قبل ولم يك شيئا) وهو أمر للانسان بان يتذكر خلقه من نطفة ، فاذا ما فسر الانسان المخلوق في ضوء نظرية الجواهر الفردة ، فان جواهر الانسان عندهم مازالت باقية وحدث لها الاعراض ، ومعلوم أن تلك الاعراض وحدها ليست هي الانسان ، فان الانسان مأمور ، منهي ، حى ، عليم ، قدير ، متكلم ، سميع ، بصير ، وموصوف بالحركة والسكون ، وهذه صفات الجواهر ، والعرض لا يوصف بشيء لاسيما وهم يقولون العرض لا يبقى زمانين(٦٥).

وهكذا يبرهن شيخ الاسلام ان فكرة الجوهر الفرد لا تفسر لنا المشاهدة العيانية فى الخلق ، ولا تتفق مع حقيقته الثابتة بالآيات القرآنية والمرئية فى أطوار الانسان كما يثبت ذلك الاطباء ايضا ، فانه يتحول فى مراحل خلقه ، فيخلق الله الانسان من المنى ، فالمنى استحال وصار علقة والعلقة استحالت مضغة ، الى استواء الانسان بشرا سويا ، ويستشهد بهذا المثال ليقوض دعائم تفسير المتكلمين ، اذ يعدون الاجسام متماثلة لانها مركبة من الجواهر المتماثلة ، وانما اختلفت باختلاف الاعراض . ويستدل بها حقيقة الخلق والبعث القرآنية المتفقة مع ادلة العقول وتجارب البشر .

---

(٦٥) ابن تيمية تفسير سورة الاخلاص (٥٤ — ٥٦) .

بعد هذا العرض الموجز ، يتضح أن طريقة الاشاعرة، مع اخلاصهم في الدفاع عن النصوص لم تقو على الوقوف ازاء النقد الذي وجه اليهم من شيوخ السنة كابن تيمية وغيره حيث ناقشوا وفندوا بالحجج والبراهين .

ويبدو أن ائمة الاشاعرة انفسهم قد ظهرت لهم الحقيقة ، ولكن بعد طول بحث وبعد افناء الاعمار .

ومن هنا نجد انهم قد فضلوا طريقة السلف في نهاية حياتهم واعلنوها صراحة .

والى القارىء بيان ذلك :

تحول ائمة الاشعرية الى طريقة السلف :

لا شك ان الرغبة في الدفاع عن عقيدة اهل السنة بخاصة والاسلام بعامة هي التي دفعت ائمة الاشاعرة الى علم الكلام ظنا منهم انه المنهج الصحيح لهذا الغرض ، ثم تبين لهم بعد التجربة غير ذلك ، فتحولوا عنه ، ولعل أول المتحولين الى طريقة السلف هو الامام ابو الحسن الاشعري نفسه ، وقصة تحوله من الاعتزال الى عقيدة الامام احمد بن حنبل تبرهن على ذلك كما اسلفنا .

ومن الثابت عن الذين ترجموا للاشعري — وابرزهم ابن عساكر في كتابه (تبيين كذب المفترى) ان كتاب (الابانة) من اواخر كتبه وهو دليل على استقراره على طريقة الامام احمد ومنهجه وعقيدته متابعة لطريقة السلف .

ويمكن تقسيم حياته العلمية الى ثلاثة اطوار — الاول عندما كان معتزليا — والثاني عندما بدأ يعيد النظر في معتقدات المعتزلة ويخط لنفسه منهجا جديدا يلجأ فيه الى تأويل النصوص بما ظن انه يتفق مع احكام العقل ، ثم الطور الاخير الذي كتب فيه (الابانة) وعبر فيه عن تفضيله لعقيدة السلف ومنهجهم والتي كان الحامل لوائها حينذاك الامام احمد بن حنبل(٦٦) ، وكرر أيضا مضمون عقيدته في كتابه (مقالات الاسلاميين) ناسبا اياها لاهل السنة والحديث .

---

(٦٦) ينظر تعليق الاستاذ محب الدين الخطيب على كتاب (المنتقى) للذهبي ص٤٣ ط السلفية ١٣٧٤هـ .

وجاء بعده الامام الباقلانى فكان حريصا على الانتساب الى الامام ابن حنبل أيضا حتى كان يكتب فى بعض اجوبته محمد بن الطيب الحنبلى(٦٧) .

وائمة الاشعرية بعده اتخذوا موقفا مشابها ايضا يثير الانتباه ويدعو لبحث هذه الظاهرة التى — ان دلت على شيء — فانها تدل على الاخلاص فى البحث عن الحقيقة من جهة ، كما يدل من جهة أخرى على انه لا سبيل الى معرفة أصول الدين الا من مصادره فى الكتاب والسنة .

فهاهو امام الحرمين الجوينى فى كتابه (الرسالة النظامية) يشير الى اختلاف مسالك العلماء فى هذه الظواهر ، فراى بعضهم تأويلها ، والتزم ذلك فى آى الكتاب وما يصح من السنن . وذهب ائمة السلف الى الكف عن التأويل ، واجراء الظواهر على مواردها ، وتفويض معانيها الى الرب . ثم يصرح بأن الذى يرتضيه رأيا ، ويدين لله به عقدا ، اتباع سلف الامة ، مبرهنا على ذلك بأن الدليل السمعى القاطع فى ذلك ان اجماع الامة حجة متبعة ، وهو مستند الشريعة وقد درج صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم على ترك التعرض لمعانيها ودرك ما فيها وهم صفوة الاسلام . والمستقلون بأعباء الشريعة وكانوا لا يألون جهدا فى ضبط قواعد الملة ، والتواصى بحفظها ، وتعليم الناس ما يحتاجون اليه منها . فلو كان تأويل هذه الظواهر مشروعا أو محتوما لأوشك أن يكون اهتمامهم بها فوق اهتمامهم بفروع الشريعة . واذ ثبت عنهم الاضراب عن التأويل كان ذلك هو الوجه المتبع فحق على كل ذى دين ان يعتقد تنزيه البارى عن صفات المحدثين . ولا يخوض فى تأويل المشكلات . ويكل معناها الى الرب فليجر آية الاستواء ، والمجيء ، وقوله (لما خلقت بيدى) (ويبقى وجه ربك) وقوله (تجرى بأعيننا) وما صح من أخبار الرسول — صلى الله عليه وسلم — كخبر النزول وغيره على ما ذكرنا .

---

(٦٧) ابن تيمية — موافقة .. جـ٢ ص٩ ، ٥١ .

ويعضد ذلك ما ذهب اليه في كتابه (غياث الامم) فبالرغم من ان الكتاب مخصص لعرض الفقه السياسي الاسلامي وآرائه فى منصب الخلافة او الامامة ، فقد حرص فى باب (تفصيل ما الى الائمة والولاة) على أن ينص على احد مهام الخليفة على صرف المسلمين من الخوض فى المشكلات الكلامية وتوجيههم الى طريقة السلف فقال فى هذا الصدد (والذى اذكره الآن لائقا بمقصود هذا الكتاب ، ان الذى يحرص الامام فيه جمع عامة الخلق على مذاهب السلف السابقين ، قبل أن نبغت الاهواء وزاغت الآراء ، وكانوا رضى الله عنهم ، ينهون من التعرض للغوامض والتعمق فى المشكلات .. الى ان يقول وما كانوا ينكفون رضى الله عنهم عما تعرض له المتأخرون عن عي وحصر ، وتبلد فى القرائح هيهات ! قد كانوا اذكى الخلائق اذهانا وأرجحهم بيانا ..(٦٨)

ورأى الغزالى أيضا فى علم الكلام مدون فى كتبه معروف مشهور لاسيما (الاحياء) فقد قال فيه (وأما منفعته فقد يظن ان فائدته كشف الحقائق ومعرفتها على ما هى عليه ، وهيهات فليس فى الكلام وفاء بهذا المطلب الشريف ، ولعل التخبيط والتضليل فيه اكبر من الكشف والتعريف ..) والى نفس المعنى يذهب فى كتابه (المنقذ من الضلال) فذم علم الكلام ايضا وقال بأن أدلته لا تفيد اليقين . وفى كتابه (التفرقة بين الايمان والزندقة) ، صرح بتحريم الخوض فيه فقال (لو تركنا المداهنة لصرحنا بأن الخوض فى هذا العلم حرام) .

ومات الغزالى على خير احواله ، مات على الصحيحين : صحيح البخارى وصحيح مسلم ، طالبا علم الحديث ، فتحول من الكلام الى طلب السنة من مصادرها الصحيحة .

أما الرازى — وهو المعبر عن المذهب الاشعرى فى مرحلته الاخيرة حيث خلط الكلام بالفلسفة — فقد نبه فى أواخر عمره الى ضرورة اتباع منهج

---

(٦٨) الجوينى — غياث الامم فى التياث الظلم ص ١٤٠ — ١٤١ تحقيق د . مصطفى حلمى ود . فؤاد عبد المنعم ط دار الدعوة بالاسكندرية سنة ١٤٠٠ هـ .

السلف ، واعلن انه اسلم المناهج بعد أن دار دورته فى طرق علم الكلام والفلسفة ، فقال فى النهاية (لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفى عليلا ولا تروى غليلا ، ورأيت اقرب الطرق القرآن اقرأ فى الاثبات (الرحمن على العرش استوى) (واليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) واقرأ فى النفى (ليس كمثله شىء) (ولا يحيطون به علما ، (هل تعلم له سميا) ثم قال (ومن جرب مثل تجربتى عرف مثل معرفتى ». وكان يتمثل كثيرا الابيات التالية :

نهاية اقدام العقول عقال	واكثر سعى العالمين ضلال
وارواحنا فى وحشة من جسومنا	وحاصل دنيانا اذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا	سوى ان جمعنا له فيه قيل وقالوا(٦٩)

وقال فى وصيته (احمد الله بالمحامد التى ذكره بها افضل ملائكته فى اشرف أوقات معارجهم ، ونطق بها اعظم انبيائه فى اكمل اوقات مشاهدتهم . بل اقول ذلك من تاريخ الحدوث والامكان ، فاحمده بالمحامد التى يستحقها لالهيته ويستوجبها لكمال الاهيته ، عرفتها او لم اعرفها . لانه لا مناسبة للتراب مع جلال رب الارباب) .. الى قوله (ولقد اختبرت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيت فيها فائدة تساوى الفائدة التى وجدتها فى القرآن العظيم ، لانه يسعى فى تسليم العظمة والجلال بالكلية لله تعالى ويمنع من التعمق فى ايراد المعارضات والمناقضات ، وما ذلك الا للعلم بأن العقول البشرية تتلاشى وتضمحل فى تلك المضايق العميقة والمناهج الخفية ، وذكر فى وصيته ايضا انه يدين لله تعالى بدين محمد صلى الله عليه وسلم ، ويسأل الله تعالى أن يقبل منه هذه الجملة ولا يطالبه بالتفصيل(٧٠) .

---

(٦٩) ابن الوزير اليمانى ـ الروض الباسم فى الذب عن سنة أبى القاسم جـ٢ ص١٦٨ المطبعة السلفية بالقاهرة سنة ١٣٨٥هـ .

(٧٠) ابن الوزير اليمانى ـ الروض الباسم .. جـ٢ ص١٦٨ .
وقد أورد نصوصا كثيرة أخرى تثبت رجوع ائمة الكلام الى طريقة السلف، فنقل عن القرطبى فى (شرح مسلم) ايضا أن =

ونكتفى بهذا القدر لبيان النتائج التى توصل اليها اكبر ائمة المتكلمين فى المدرسة الاشعرية ، اذ تأكدوا بعد رحلة طويلة مع الكلام والخوض فى قضاياه الى نتائج محسمة حيث وجدوا — كما ذكر الرازى — ان طريقة القرآن كافية شافية ، وان طريقة أهل الحديث موصلة الى اليقين ، داعية الى الاطمئنان وثبات الايمان .

تقييم ابن تيمية لشيوخ الاشاعرة :

يرى ابن تيمية ان شيوخ الاشاعرة اقرب الى الامام احمد تحقيقا وانتسابا . أما تحقيقا ، فان الاشاعرة اقرب الى مذهب السلف وأهل الحديث فى مسألتى القرآن والصفات . كذلك فان انتساب الاشعرى وأصحابه الى احمد بن حنبل والمحدثين عموما ظاهرة واضحة فى كتبهم(٧١). ويقول (ولهذا لما كان ابو الحسن الاشعرى وأصحابه منتسبين الى السنة والجماعة كان منتحلا للامام احمد ذاكرا انه مقتد به متبع سبيله . وكان بين أعيان أصحابه من الموافقة والمؤالفة لكثير من أصحاب الامام احمد ما هو معروف)(٧٢) .

أما عن موقفه من الامام أبى الحسن ، فان القارىء لكتبه يلمس احيانا

— الجوينى كان يقول لاصحابه : يا أصحابنا لا تشتغلوا بالكلام ، فلو عرفت أن الكلام يبلغ بى ما بلغ ما تشاغلت به . واوصى الكرابيسى قبل موته واتباعه بقوله (عليكم بما عليه أهل الحديث ، فانى رأيت الحق معهم) . وأورد قول أبى الوفاء بن عقيل لاصحابه (لقد بالغت فى الاصول طول عمرى ثم عدت القهقرى الى مذهب المكتب — يعنى الذين يكتبون الحديث ويشتغلون به) . وأيضا قول الشهرستانى (عليكم بدين العجائز ، فانه أسنى الجوائز) .
(المصدر السابق ص١٦٨ — ١٦٩) .
وينظر أيضا نص الوصية التى أوردها الدكتور على محمد حسن العمارى فى كتابه (الامام فخر الدين الرازى — حياته وآثاره ص٧٥) ط المجلس الاعلى للشئون الاسلامية بالقاهرة ١٣٨٨هـ ١٩٦٩م) .

(٧١) ابن تيمية — شرح العقيدة الاصفهانية ص٦٨ .
(٧٢) ابن تيمية — نقض المنطق ص١٣٧ .

رقة في نقده ، وذلك بسبب أقوال الاشعرى المؤيدة لمذاهب اهل الحديث والسنة في عدة مواضيع كالصفات والقدرة والامامة ، وردوده على المعتزلة والشيعة والجهمية . ولهذا يرى انه ينبغى ان يعرف لهذا الامام حقه وقدره عملاً بقول الله تعالى (قد جعل الله لكل شيء قدرا) ، كذلك فان قيامه بنصرة مذهب أهل السنة في وجه أهل البدع وقهره للمخالفين يضعه في مرتبة المجاهدين(٧٣) .

ومع أن شيخنا لا يعد اتباع المدرسة الاشعرية سلفيين خلصا لأن المذهب السلفي بالمعنى الدقيق يلفظ علم الكلام سواء على منهج المعتزلة أم بدفاع شيوخ الاشاعرة ، الا انه يقر بوجود تقارب بين المذهبين كما قلنا ، ويرأه يكاد يلتحم عند المحدثين منهم خاصة : كابن عساكر (٥٧١هـ) . والبيهقي (٤٥٨هـ) ، والنووى (٦٧٦هـ) حيث غلب عندهم جانب الحديث عن الاتجاه الكلامي . من جهة اخرى ، ينتسب الى الحنابلة أيضا من المتأخرين من يذهب الى شيء من التأويل كابن عقيل (٥١٣هـ) وابن الجوزي (٥٩٧هـ) (٧٤) . كذلك فقد شذت منهم قلة ــ شأنهم في ذلك اتباع المذاهب والفرق جميعا ــ حيث اتفقت مع ابن حنبل في الفروع وخالفته في بعض الاصول قائلين بالجهة والجسمية ولكن (لأحمد برئ منهم ولأهل السنة والجماعة من الحنابلة لا يعدونهم منهم)(٧٥) .

وفي نقده للمحدثين ، يرى ان ما يعيب بعض علماء الحديث يرجع الى الحشو الناجم عن الاحتجاج بأحاديث ضعيفة أو موضوعة ، أو ما لا يصح الاحتجاج به . اما القاعدة السليمة التى ينبغى على المحدثين التقيد بها حتى يسلم منهجهم من الاخطاء والحشو ، فهي تتلخص في ضرورة توافر عاملين : احدهما التثبت من صحة الحديث ، والثاني : فهم معناه(٧٦) .

---

(٧٣) ن . م ١٦ .
(٧٤) صفي الدين الحنفي ــ القول الجلي في ترجمة شيخ الاسلام . . ص٢٥٣ .
(٧٥) ن . م ١٢٧ .
(٧٦) ابن تيمية ــ نقض المنطق ص٢٢ .

وهكذا استطاع مفكرنا باستخدامه لمنهج (المعـادلة والموازنة) ان يحدد مدى الاقتراب والابتعـاد عن طريقة السـلف ، محاولا البرهنة على ان المحدثين الذين تنسحب الشروط السالف الاشـارة اليها عليهم — هم الممثلون الحقيقيون للمدرسـة السلفية لانهم (اعتمدوا فى دينهم على استنباط النصوص لا على خيـال فلسفى ، ولا رأى قيـاسى ولا غير ذلك من الآراء المبتدعات)(٧٧) .

أما سبب ذيوع المذهب الاشعرى فى رأى شيخ الاسلام فيرجع الى العوامل الآتية :

أولا — كثرة الحق الذى يقولونه وظهور الآثار النبوية عندهم .

ثانيا — لبسهم ذلك بمقاييس عقلية — ظنوا انها صحيحة بينما هى فى الواقع موروثة من تيار خارجى من الفلسفة وغيرها — وظنوا ايضا انه لم يمكن التمسك بالآثار النبوية فى مواجهة المعتزلة بهذا الوجه .

ثالثا — ضعف الآثار النبوية فى عصورهم الموضحة لسبيل الهدى .

رابعا — تقصيـر المنتسبين للسنة . ويحملهم ابن تيمية مسـئولية ما حدث ناقدا لبعضهم بقوله (انهم تارة يروون ما لا يعلمون صحته وتارة يكونون كالاميين الذين لا يعلمون الكتاب الا أمانى ويعرضون عن بيان دلالة الكتاب والسنة على حقائق الامور)(٧٨) .

طريقـة السـلف اعلم واحكم :

وبعد ، فان الغـالب على القضايا المتنـازع أصبحت لهـا الصيغة التاريخية لأن الاهتمامات الثقافية والعلمية والدينية حينذاك هى الدافعـة لجعلها الاولى بالبحث والمناقشة ، ولكن لهذه القضايا نفسها جانبا مازال يستحق الاهتمام والدراسة باعتباره تلقى الضوء على الصلة بين الاتجاهين النصى والعقلى ، ولا يمكن تجاهل النقـاش الدائر بينهما ، فان الانسـان

---

(٧٧) ن . م ٨١ .
(٧٨) ابن تيمية — فتاوى ج١٢ ص٢٢ .

بكوناته العقليه والنفسية وثقافته المصطبغة احيانا بصبغة العصر الذى يعيش فيه ، كل ذلك قد يؤثر عليه تأثرا كبيرا عند تطلعه فى البحث عن الحقيقة التى ينشدها . واذا خصصنا المسلم المعاصر بالحديث ، فاننا نراه يقف أمام القرآن الكريم والسنة النبوية أحد موقفين : الاول التأثر بالفلسفات السائدة والمناهج التى تجعل من العقل المكانة الاولى فى نظرية المعرفة ، ومن ثم يميل الى المنهج الاعتزالى ، وان توسط فى موقفه اختار المنهج الاشعرى .

والثانى — واما البحث عن المنهج الصحيح للعقيدة موقنا بانه من الخطأ العلمى والدينى الانصراف عن الاصل الثانى للاسلام وهو الحديث وتحرى الصحيح منها فى مصادرها ، وما اكثرها واوثقها . وهنا ينبغى أيضا الاسترشاد بطريقة علماء الحديث والسنة ومعرفة منهجهم فى النظر والاستدلال لاثبات صحة اصول الدين .

وفى بحثنا هذا محدود الهدف وموحد المنهج ، رأينا توضيح التباين والتمايز بين الاتجاهين : المعتزلى والاشعرى من ناحية ، والسلفى من ناحية أخرى .

وقد تبين لنا ان المعتزلة اعتزلوا السنة والجماعة ووضعوا لانفسهم اصولا خمسة .

اما الاشاعرة — فانهم دافعوا عن عقيدة أهل السنة والجماعة واعلنوا الانتماء اليهم — ولكنهم التزموا فى منهجهم بصفة عامة بالمنهج الكلامى ، بحجة التوفيق بين النصوص الشرعية والاحكام العقلية ، وغلب عليهم تأويل النصوص الشرعية لتطويعها للاصول التى وضعها أهل الكلام قبلهم .

واذا كانت دراستنا قد أوصلتنا الى انتهاء أغلب أئمة الاشاعرة سلفيين ، فان ذلك يدل على اكتشافهم أن طريقة السلف هى الاعلم والاحكم ، وعلينا الاستفادة من تجاربهم التى أمضوا فيها السنوات الطوال بحثا وتفكيرا وتأملا ودراسة ، ويصبح من السرف أيضا فى الوقت والجهد ، اتباع

طريقتهم الكلامية قبل رجوعهم عنها ، لاسيما ولدينا مؤلفات علماء الحديث والسنة بعدهم ، اخلصوا فى اظهار المنهج السلفى والدفاع عنه وبيان انه يستند الى الادلة الشرعية العقلية .

وفى مقدمة هؤلاء يقف شيخ الاسلام ابن تيميـــة ، وسنحاول عرض منهجه بايجاز فى الباب التالى .

الباب السادس

موقف ابن تيمية من القضايا الكلامية :

- حياته وعصره .
- منهجه .
- هدم المنطق الارسططاليسى .
- الفطرة الانسانية وطرق المعرفة .
- الهدى والنبوات .

موقفه ازاءالقضايا الكلامية :

- الصفات الالهية .
- اثبات صفات الله تعالى وافعاله بالادلة العقلية والقاطعة .
- الميزان القرآنى
- قياس الاولى .
- من طرق الميزان القرآنى — اللزوم والاعتبار .
- النبوة .
- براءة ابن تيمية من تهمة التجسيم .

موقف ابن تيمية من القضـــايا الكلاميـــة

مقـــدمة :

ولد تقي الدين بن تيمية يوم الاثنين عاشر من شهر ربيــع الاول سنه ٦٦١هـ في حران ونشأ في بيت علم اتاح له الاطلاع على التراث الاســلامي واستيعاب علوم المسلمين ، تميز علماء زمنه لتفرده بالاحاطة الشاملة دونهم بأغلب هذه العلوم — كالتفسير واللغة وحفظ السنن والآثار ، وعلم الفقه . والتاريخ ، والفلسفة وعلم الكلام وغيرها . وقد ساعدته مواهبه العقلية على بلوغ مرماه اذ كان يتمتع بذكاء حاد وحافظة ممتــازة استطاع بهما ان يفهم ويسبر من أعوص المسائل في الفلسفة والمنطق.وعلم الكلام واصــول الفقه بحيث ارتفع انتاجه العلمي الى مصاف المتخصصين في هذه الفـروع كلها.كما يذكر مترجموه . الى جانب خصــائص أخلاقيــة تتمثـل في النهم والتشوق للمعـــرفة وقوة الجلد والصبر على قراءة ما يشبه الموسوعات : بحيث مكنته من استحضار النصوص وقت الحاجة والاستشهاد بها وتأييد صحة آرائه . ويضاف الى ذلك انقطاعه للعلم انقطــاعا تاما فلم تشغله صاحبة ولا ولد ؛ ولم يحل دونه منصب أو يعوقه سعي لطلب مال او جاه لزهده وتقلله في معيشته . .وعنــدما اضطهد وسجن بسبب آرائه الجريئة التي ساقته اليها اجتهاداته المدعمة بالادلة ، انتهز فرصة سجنه واستمر في القراءة والبحث الى أن اجبر في فترة سجنه الاخيرة عن التخلي عن ادوات الكتابة . ومن اخلاقه الشخصية الدقة والامانة في رواية النصوص المنقولة من مصادرها المختلفة فحفظ لنا صفحات كاملة من كتب تعد في حكم المفقودة. مع شــجاعته في اعلان رأيه مهمــا كلفه من صنوف الاضطهاد بسببها ؛ وخوضه المعارك الحربية في مواجهة التتار وقيامه بحث الامراء على مقاومة حروبهم مهما كلفهم ذلك من نفوس وأموال .

لقي العنت بسبب خصومته لعلوم الكلام والطعن في شيوخ الصوفية وتسفيه آراء بعض الفقهاء ، كما انتقد مظاهر الاضطـراب والضعف في عصره ,لانه عاش وسط جو صاخب مليء بالحــروب الخارجية ومظــاهر التشتت والاختلاف في الداخل بعد انهيار الخلافة العباسية في بغداد ســنة

٦٥٦هـ وانقسام الدولة الاسلامية الكبرى الى ولايات متعددة ، فقامت بمصر والشام حينذاك دولة المماليك التى عاش فى ظلها ابن تيمية ، وقد كتب لها أن تقوم بالنصيب الاوفى فى خدمة الاسلام ودفاع المعتدين من المغول فى الشرق والصليبيين فى الشمال(١) .

ولم يأل ابن تيمية جهدا فى شن الغارة على النصيرية والباطنية فى الشام ، لأن السواحل الشامية انما استولت عليها النصارى من جهتهم وهم دائما مع كل عدو للمسلمين ، كما قام ابن تيمية بالسفارة لدى ملك المغول غازان .

وجمع فى شخصيته صفات العالم المجاهد الذى ضحى — كما يصفه الشيخ المراغى — بمتع الدنيا لنصرة دعوته ، فانتقد انتقاد الرجل المسلم الذى كان يرى الا حكم الا الله ، وان الجماعة يجب أن تكون على النحو الذى شرعه الله ، فله فى الدين رأى ، وله فى الدولة رأى ، وله فى الصوفية رأى ، وله فى رجال الكلام رأى ، وله فى النصرانية رأى ، والباطنية رأى(٢) .

ومضى حياة حافلة فى التأليف والجدل والجهاد بنفسه ضد التتار والافتاء ومحاربة البدع .

ومثل هذه الشخصية الفذة لابد أن تتعرض للابتلاءات والمحن ، ولذا فقد استطاع خصومه ادخاله السجن أكثر من مرة فى حياته ، فكان موته بسجن قلعة دمشق عام ٧٢٨هـ(٣) .

والآن يحسن بنا أن نفصل هذه المقدمة : —

---

(١) المراغى — ابن تيمية ص٩٥ ط الحلبى (سلسلة اعلام الاسلام) .
(٢) المراغى — ابن تيمية ص٣٧ — ٣٨ .
(٣) ينظر كتاب المستشرق الفرنسى هنرى لاووست (نظريات شيخ الاسلام فى السياسة والاجتماع) ترجمة الاستاذ محمد عبد العظيم وتقديم وتعليق د . مصطفى حلمى دار الانصار ١٣٩٦هـ — ١٩٧٧م

حياته وعصره :

ولد الشيخ كما قلنا في بيت ثقافة اسلامية سلفية ؛ فان جده كان محدثا مشهورا ، وكذلك كان ابوه . يصف ابن تيمية جده بقوله (كان جدنا عجبا في حفظ الاحاديث وسردها وحفظ مذاهب الناس بلا كلفة ، ويصفه بانه كان معدوم النظير في زمانه ، راسا في الفقه واصوله)(٤) .

اما ولده فانه (اتقن العلوم وافتى وصنف وصار شيخ البلد بعد ابيه .. وكان محققا كثير الفنون ، وكان من انجم الهدى ، وانما اختفى من نور القمر وضوء الشمس . ويشير الذهبي في هذا الوصف الى كل من ابيه وابنه)(٥) .

وتلقى شيخنا الفقه والحديث والتفسير والعلوم الاخرى . وكان مضرب المثل في قوة الحفظ والذكاء . كما استطاع أن يستوعب ثقافة العصر كما قلنا ويجيدها ويحاجج أهلها عن مقدرة ودراية . يصفه تلميذه الذهبي بانه (برع في الرجال ، وعلل الحديث وفقهه ، وفي علوم الاسلام وعلم الكلام ، وغير ذلك . وكان من بحور العلم والاذكياء المعدودين والزهاد الافراد . وسارت بتصانيفه الركبان ، لعلها ثلاثمائة مجلد)(٦) .

وكان عصره يموج بالتيارات السياسية العنيفة ، فان حروب التتار التي بدأت تغزو البلاد منذ عام ٦١٦هـ — ١٢٢٩م ، وظلت امواجها تتلاحق دفعة وراء الاخرى عبر السنوات الطويلة حتى سنة ٦٨٠هـ — ١٢٨١م حيث

(٤) ابن تيمية — جلاء العينين في محاكمة الاحمدين ص١٨ .
(٥) ن . م ١٩ .
(٦) الذهبي — تذكرة الحفاظ ج٤ ص٢٨٨ . وقد لاحظ لاوست وحدة النظرة الدينية عند ابن تيمية في قوتها ودوامها (حيث كانت الافكار التي عرضها في مطلع فجر تأليفه هي نفس الافكار التي تناولها شرحا وتفصيلا في سائر تواليفه المتأخرة) ص٨٣٥ من كتاب اسبوع الفقه — ابن كثير — البداية ج١٣ ص٨٢ .

وصلت الى حماه ، واشترك ابن تيمية بنفسه فى أحد المعارك ، الى جانب صراع المماليك على السلطة فى الداخل .

وكان سقوط بغداد عام ٦٥٦هـ — ١٢٥٧م على أيدى التتار هو النتيجة الطبيعية التى تمخض عنها ضعف الدولة العباسية ، لأنها بدأت منذ أواخر القرن الرابع ، وأوائل القرن الخامس (وكأنها جدار يريد أن ينقض وكان لابد لها ان ينتهى الى احدى النهايتين : الى الانحلال التام والفناء أو اليقظة والاحياء)(٧) . ولكن مع الاسف انتهت الى ما نعرفه من انقسام الدولة الاسلامية الكبرى الى دويلات عديدة ، وعاصر ابن تيمية دولة المماليك .

وكان للشيخ دور بارز فى مقاومة الغزو التتارى وهذا يعطينا فكرة عن ارتباط العقيدة بالعمل عنده . وقد افرغ ما فى جعبته من آيات واحاديث لحث المسلمين على الجهاد ، وتخليصهم من روح اليأس والهزيمة التى دفعت بجموع كبيرة منهم الى الفرار هربا من جحافل الجيش التتارى ، الذى شرب من كأس النصر حتى الثمالة ، وانتشى بروح السيطره والتفوق .

وفى مقابل الحرب والغزو الخارجى الذى ملأ التاريخ بصفحات عديدة للمآسي والكوارث التى أصابت العالم الاسلامى ، كانت هنالك فى الداخل تيارات عدائية تتمثل فى روح الهزيمة ، وبث روح اليأس ، وترويج الاشاعات التى تروع القلوب وتخلعها لكى يسلم الناس دون قتال . يقول ابن كثير (وأشاع المرجفون بأن التتر وصلوا الى حلب ، وأن نائب حلب تقهقر الى حماه ، ونودى فى البلد بتطييب قلوب الناس واقبالهم على معايشهم)(٨) .

ومما زاد الامر سوءا فى هذا العام — أى عام ٧٠٠هـ — ١٣٠٠م حيث بدأ التتار يقصدون بلاد الشام — ان هذه البلاد شهدت شتاء قارسا مما ادى الى صعوبة الهجرة (حيث جعلوا يحملون الصغار فى الوحل الشديد

---

(٧) د . جمال الدين الشيال — تاريخ الدولة العباسية ص ٨٩.
(٨) ابن كثير — البداية والنهاية ج١٤ ص٩٥ .

والمشقة على الدواب والرقاب ، وقد ضعفت الدواب من قلة العلف ، مع كثرة الامطار والزلق والبرد الشديد والجوع وقلة الشيء)(٩) .

رأى ابن تيمية هذه الظروف العصيبة التي تضافرت فيها توالى انتصارات الاعداء ، مع ضعف المسلمين ويأسهم ، ومما زاد الطين بلة الاحوال الجوية التي جرت على غير المألوف . وهنا يتجلى ايمان الشيخ ، وتظهر آثار التشبع بالروح السلفية فعالة قوية ، في الوقت الذي كان بعض الفقهاء غيره يتركون دمشق فرارا بأنفسهم وعائلاتهم اذ (كان قد خرج جماعة من بيوتات دمشق ، كبيت ابن صصرى ، وبيت ابن فضل الله وابن منجا وابن سويد وابن الزملكاني وابن جماعة)(١٠) .

وبذل الشيخ جهدا كبيرا ليقف في وجه كل العوامل التي تدعو الى الهزيمة واليأس ، معلنا على الملأ آراءه الكفيلة بتحويل الهزيمة الى نصر . فأخذ يحرض الناس على القتال بدلا من الفرار (وساق لهم الآيات والاحاديث الواردة في ذلك ، ونهى عن الاسراع في الفرار ، ورغب في انفاق الاموال في الذب عن المسلمين وبلادهم واموالهم ، وأن ما ينفق في اجرة الهرب اذا انفق في سبيل الله كان خيرا)(١١) .

كذلك سافر بنفسه الى مصر لحث السلطان على الدفاع عن الشام ، واقنعه بضرورة تجهيز الجيش لهذا الغرض . وجاء ضمن اقواله للسلطان في هذا الصدد (لو قد انكم لستم حكام الشام ولا ملوكه ، واستنصركم أهله ، وجب عليكم النصر ، فكيف وأنتم حكامه وسلاطينه ، وهم رعاياكم وانتم مسئولون عنهم !!)(١٢) .

وعندما حان اوان المعركة المرتقبة بأرض الشام ، ووصلت جحافل التتار الى حمص وبعلبك ، ولم يكن جيش مصر قد وصل للنجدة بعد ،

---

(٩) ن . م ١٥ .
(١٠) ابن كثير — البداية والنهاية ج١٤ ص١٤ .
(١١) ن . م والصفحة .
(١٢) ن . م ص١٥ .

تخبط الناس ومسهم الفزع والذعر ، وعادوا يتحدثون عن التقهقر ، ولكن ابن تيمية عاد ينفث من قوة ايمانه فى صدور الامراء والجنــد ، مؤكدا لهم النصر ، متأولا قوله تعالى (ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغى لينصرنه الله ان الله لعفو غفور — الحج — ٦٠) ، واذا ما طلبوا منه ذكر مشيئة الله ، اجابهم (ان شاء الله تحقيقا ، لا تعليقا)(١٣) .

أما من تردد بعض المسلمين فى حرب التتار لانهم أعلنــوا الاســلام تظاهرا ، فقد أوضح لهم شيخنا هذا اللبس ، اذ أن التتار عنده كالخوارج الذين خرجوا على على ومعاوية ، زاعمين انهم أحق بالرياسـة منهما . وكذا يفعل التتار ، فبينما هم متلبسون بالمظالم والمعاصى (يزعمســون أنهم أحق باقامة الحق بين المسلمين) .

وحتى لا يدع مجالا للشك فى صحة رأيه لادخال الطمأنينة والثبــات فى قلوب المترددين ، أعلن لهم فى وضوح قاطع (اذا رأيتمونى من ذلك الجانب — يقصد التتار — وعلى رأسى مصحف فاقتلونى) (١٤) .

وقاتل الشيخ مع الجند ، حاثا اياهم على الافطار فى شهر رمضان ، لأن الفطر اقوى لهم ، وذلك تشبها بالمسلمين حين افطروا عام الفتــح تنفيــذا لنصيحة الرسول صلى الله عليه وسلم(١٥) .

خلقــه :

اتصف الشيخ بمكارم الاخلاق . أما عن حدة الطبع التى يوصف بها كتاباته وشدته فى نقد المذاهب والطوائف المخالفة للسنة .

فالواقع أن الرجوع الى مراحل حيــاة الشيخ ، والاطلاع على التهم

---

(١٣) ن . م ص٢٣ .
(١٤) ابن كثير — البداية والنهاية ج١٤ ص ٢٤ .
(١٥) ن . م ٢٦ .

التي كيلت اليه ظلما ، وما نسب اليــه زورا وبهتــانا(١٦) . كل هذا دعم بالشيخ الى الثورة على المظالم التي أحدقت به .

ويزيد الامر ايضاحا ، ما يحدثنــا به من نفسه فيقول (فان النــاس يعلمون أنى من اطول الناس روحا وصبرا على مر الكلام ، واعظم النــاس عدلا فى المخاطبة لاقل الناس)(١٧) . فبم اذن يفسر ثورته وغضبه ؟

هنا يجيب قائلا (فمتى ظلم المخاطب ، لم نكن مأمورين ان نجيبه بالتى هى أحسن ، بل عنف ابو بكر الصديق رضى الله عنه عروة ابن مســعود بحضرة النبى صلى الله عليه وسلم لما قال — انى لأرى أوباشا من النــاس خليقا ان يفروا ويدعوك ، واجابه بحدة باللغــة الشدة (أنحن نفر عنــه وندعــه) ؟!(١٨) .

وفيما عدا هذا ، فقد كان الشيخ متسامحا ، مطبقا لاخلاقيات الاسلام فى العفو وتصفية قلبه من الاحقــاد والضغائن ، اذ لما انقلبت الاوضــاع السياسية وحل الملك محمد بن الملك المنصــور قلاوون ، بدلا من المظفــر الجاشنكير بيبرس — وكان يكن للشيخ المحبة والتقدير فى بداية حكمه — طلب منه أن يفتى بقتل بعض القضــاء — الذين افتــوا بعــزله عن الملك ابان الجاشنكير — فأبى ، بل دافع عنهم بقــوله (اذا قتلت هؤلاء ، لا تجــد بعدهم مثلهم !!(١٩) ، فلما ذكره الملك بانهم سبق ان آذوه ، وارادوا قتله مرارا ، اجاب (من آذانى فهو فى حل)(٢٠) !!

وازاء هذا التصرف ، اضطر ابن مخلوف قاضى المالكية الى الاعتراف بأنه لم ير مثل ابن تيمية ، لانه حرص عليه فلم يقدر عليه ، فلما قدر عليهم

---

(١٦) يقول ابن تيمية (وكان قد بلغنى انه زور على كتــاب ... ويقول (انا اعلم ان اقواما يكذبون عــلى) ص٢٠٧ من كتــاب العقــود الدرية لابن عبد الهادى .

(١٧) محنة الشيخ ص٤٤ .

(١٨) ن م . والصفحة ٢٠،١٩ ابن كثير ص٥٤ ج١٤ .

جميعا صفح عنهم ، وحاجج عنهم(٢١) . وهذا صحيح . لاننا لو عقدنا مقارنة بين حديث هذا القاضي بعد ان زال عنه الصولجان ، ووصف ابن تيمية له في السجن ، لظهر الفرق بين الرجلين ، اذ يقول عنه (وابن مخلوف ولو عمل مهما عمل — والله ما اقدر على خير الا واعمله معه .. فاني اعلم ان الشيطان ينزغ بين المؤمنين ، ولن اكون عونا للشيطان على اخواني المسلمين(٢٢) !!

فاذا ما انتقل من هذه العلاقة الخاصة مع خصمه القاضي ونظر الى المسلمين بعامة ، فانه يدعو لهم بالخير في دينهم ودنياهم ، ويجب أن يراهم وقد اختلت من بينهم بذور الفتن والخلاف ، فلن (ينطمس الدور وتزول الحيرة ، الا بالانابة الى الله والاستغفار والتوبة ، وصدق الالتجاء ، فانه سبحانه لا ملجا منه الا اليه ، ولا حول ولا قوة الا بالله)(٢٣) .

كذلك يعلن انه لا يهدف الى تحقيق غرض دنيوى ، ولا يطمع في تحقيق منصب ، أو جاه ، أو الحصول على اموال ، فانه (لم يقبل من احد شيئا من النفقات السلطانية ، ولا من الكسوة ، ولا من الادارات ولا غيرها ، ولا تدنس بشيء من ذلك)(٢٤) ، فهو يسعى الى تحقيق ما يحبه الله ورسوله ، فاذا ما قابلته بعض الخصومات ، فانه لا ينظر اليها نظرة شخصية خاصة ، وانما يتحمل كل المصاعب في سبيل هدفه السام الذى عاش من أجله (نحن انما ندخل فيما يحبه الله ورسوله والمؤمنون ، ليس لنا غرض مع احد ، بل نجزى بالسيئة الحسنة ، ونعفو ونغفر)(٢٥) .

وكانت حياة الشيخ برهانا على صدق قوله ، واقتران العلم بالعمل . انه تمكن من خصومه كما بينا فلم يصبهم بأذى ، وعندما سجنه الملك الناصر ، أصبح ذلك دليلا على انه انه لم يحاول أن يستمد قوته من الامير ،

---

(٢١) ابن كثير — البداية والنهاية جـ١٤ ص٥٤ .
(٢٢) محنة الشيخ ص٥٩ .
(٢٣) ن . م والصفحة .
(٢٤) ابن كثير — البداية والنهاية جـ١٤ ص٤٣ .
(٢٥) محنة الشيخ ص٥٨ .

بل كان يعلن ما يراه حقا (ولو كان يسندها من الناصر ما القاه في غيابه السجن ، فكان هذا هو الدليل القاطع على انه متبوع لا تابع ، وحر مسدد نفسه ، وليست نفسه ولا فكره ملكا لاحد(٢٦) وبذلك نراه يتخلق باخلاق العالم المسلم .

منهجـــه :

تكاد تنحصر معسالم المنهج لدى ابن تيميـة في مميزات ثلاثة — احدها اثبات اتفاق الدليل العقلي مع الدليل النقلي ، والثانية رفضه لمصطلحات المتكلمين والفلاسفة واخضاعها للمعاني الاسلامية قبل البت في قبول استخدامها او رفضها لان التعبير عن حقائق الايمان بعبارات القرآن اولى من التعبير عنها بالفاظ محدثه فيها اجمال واشتباه ونزاع ، الثالثة هدمه للمنطق الارسططاليسي واستبعاده .

فبالنظر الى الدليلين العقلي والنقلي فان التعارض يأتي بسبب ضعف احدهما او كليهما أما الدليلان القطعيان فلا يجوز تعارضهما سواء كانا عقليين او سمعيين او احداهما عقليا والآخر سمعيا ، لان القرآن دل على الادلة العقليـة وبينها ونبه عليها ونستطيع ان نستدل بالآيات العديدة على الامر بالتدبر والفهم والتعقل . ولكن ابن تيمية يشترط الا نقدم العقل بالاطـلاق يرى أن الجـزم تقـديم الدليـل العقلي ظـاهر الفسـاد بالضرورة لان وجود الله سبحانه وتعالى لا يتوقف على وجود الانسـان بلا عقله المخلوق ، وقد جاءت آيات الله السمعية والعقلية العيانية والسماعية كلها متوافقة متصادقة لا يناقض بعضها بعضا .

واذا تكلم أهل الكلام فيما يسمونه بـ (اصـول الدين) كمسائل التوحيد والصفات الألهية والنبوة والقدر والمعاد وغيرها ، فلابد أن يكون المبين الاول والشارح لهما هو الرسـول صلى اللـه عليه وسلم مادامت باعترافهم اصولا في الدين ، ولا حجة لهم بالاستمساك بدعوى (الادلة العقلية)

---

(٢٦) محمد أبو زهرة — التعريف بابن تيمية ص٦٩٠ من كتاب أسبوع الفقه الاسلامي .

لأنه كان (صلى الله عليه وسلم) يتمتع بأكثر العقول وأعلاهم ذكاء وفطنة ، وهو — كغيره من الانبياء الذين خاطبوا عقول البشر وتسلحوا بأدلتها المتوافقة مع الفطرة فاخبروا الامم التى بعثوا اليها بمجيزات العقول لا بمحالات العقول .

وقبل استخدام المصطلحات الكلامية والفلسفية كان على ابن تيمية توضيح مدلولاتها لاسيما ما تردد كثيرا بحكم القضايا المعروضة للبحث والمناقشة كالتأويل مثلا ، فالتأويل لغة ما يؤول الامر اليه ان كان موافقا لمدلول اللفظ ومفهومه فى الظاهر ، او تفسير الكلام وبيان معناه وان كان موافقا له . او صرف اللفظ من الاحتمال الراجح الى الاحتمال المرجوح . ويظهر معنى التأويل الذى استأثر الله بعلمه وهو الحقيقة التى لا يعلمها الا هو كصفة النزول والاستواء والمجيء والاتيان فلا نعرف كيفيتها — فان ذات الله سبحانه ليست كذوات المخلوقين وكذلك صفاته وافعاله ليست كصفات المخلوقين وافعالهم .

وعارض الفلسفة التى اعتبرها اسلامية مجازا لانها فى أصلها يونانية . وكان يشير دائما الى أن الرومان واليونان مشركين كانوا يعبدون الهياكل والاصنام الارضية ومنهم أرسطو وأمثاله من الفلاسفة المشائين .

كذلك فى مناقشاته مع المتكلمين ، عارض الالفاظ والمصطلحات التى استخدمها علماء الكلام لانها لا تعطى مدلولات اسلامية صحيحة ، ولكنه لم يعارض استخدام الادلة العقلية ، بل ذهب الى خطأ القول بان الادلة الواردة بالكتاب والسنة مجرد ادلة نقلية ، فذهب الى أنها عقلية أيضا — اى ان العقول تجيزها فتزنها مستندا لآيات القرآن المنوهة بشأن العقل كقوله تعالى (أن فى ذلك لآيات لاولى النهى) اى العقول وقوله عز وجل (هل فى ذلك قسم لذى حجر) لذى عقل وقوله عز وجل (فاتقون يا أولى الالباب) وقوله سبحانه وتعالى (ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون) فان الله سبحانه وتعالى مدح واثنى على ذوى العقول وبالعكس

ذم غيرهم ممن لا يسمع أو يعقل فى قوله تعالى عن أهل النار (وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير)(٢٧) .

وسيأتى بيان ذلك كله عند حديثنا عن طرق القرآن .
الواجب اذن أن يجعل ما أنزله الله من الكتاب والحكمة أصلا فى جميع أصول الدين فان القرآن جعله الله تعالى شفاء لما فى الصدور . ومن هنا عارض كافة البدع التى يعارض بها الكتاب والسنة التى يسميها أهل كلاميات وعقليات وفلسفات أو ذوقيات ووجديات وحقائق وغير ذلك لابد أن تشتمل على لبس حق بباطل وكتمان حق .

ويعلل ابن تيمية ظهور البدع الكلامية والصوفية والفلسفية بسببين أحدهما ذاتى والآخر خارجى : —

فالأول : ابتداع ألفاظ ومعانى جعلوا هى الأصل المعقول المحكم وساروا فى طريق التأويل تبعا لما اعتقدوه صحيحا وفقا لأحكامهم العقلية .

والخارجى : وموجزه أنه قد تخفى آثار الرساله فى بعض الأمكنة والأزمنة حتى لا يعرفون ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم : فاما أن لا يعرفوا اللفظ واما أن يعرفوا اللفظ ولا يعرفوا معناه .

أما طريقة القرآن الحكيم فى الجدل فقد تضمنتها الآية الكريمة فى قوله تعالى (ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن) حيث أنها راعت حال المخاطبين حسب أحوالهم لأن الانسان له ثلاثة أحوال : —

اما أن يعرف الحق ويعمل به فيدعى بالحكمة ، واما أن يعرفه ولا يعمل به ، اذ تخالفه نفسه فهذا يوعظ الموعظة الحسنة ، فهاتان هما الطريقان — الحكمة والموعظة . وعامة الناس يحتاجون الى هذا وهذا .

---

(٢٧) مجموع فتاوى شيخ الاسلام ج١٠ ص٤٣٥ — ٤٣٦ .

من النفس لها هوى يدعوها الى خلاف الحق وان عرفته فالناس يحتاجون الى الموعظة الحسنة والى الحكمة . فلابد من الدعوة بهذا وهذا .

ولكن النوع الثالث من الناس لا يعرف الحق فحسب بل يعارضه . ولهذا فلا يدعى بالجدل بل هو من باب دفع الصائل فاذا عارض الحق معارض جودل بالتى هى احسن ولهذا قال (وجادلهم) فجعله فعلا مأمورا به مع قوله (ادعهم) فأمره بالدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة وأمره أن يجادل بالتى هى احسن وقال فى الجدال بالتى هى احسن ولم يقل بالحسنة كما قال فى الموعظة لأن الجدال فيه مدافعة ومغاضبة فيحتاج أن يكون بالتى هى احسن حتى يصلح ما فيه من الممانعة والمدافعة .

وهكذا فان مقصود القرآن بيان الحق ودعوة العباد اليه لا الجدال بغير علم ، فهذا مما ذمه الله تعالى بقوله (ها انتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم)(٢٨) .

كذلك من سمات منهجه — الاكتفاء بالقرآن والسنة — ففيهما بيان كاف لما يحتاج اليه الانسان فى معرفة الدين وتنظيم المعاش فى الدنيا ، واستلزم منه هذا التصور ان يجمع فى مؤلفاته بين المباحث التى شغلت المتكلمين والفلاسفة والصوفية . فأخذ يناقش كل طائفة مستدلا على صحة اقواله بالآيات والاحاديث ، مثبتا ان فى هذين المصدرين وحدهما كافة ما يحتاج اليه من معارف فى أمور الدين ، وانهما يعبران من ذاتية الاسلام فى مواجهة كل الآراء والنظريات والفلسفات التى ابتدعها البشر على اختلاف طرقهم فى البحث والاستدلال .

قال شيخ الاسلام فى هذا الصدد (ومن تأمل ما تكلم به الاولون والآخرون فى أصول الدين والعلوم الالهية وامور المعاد والنبوات والاخلاق والسياسات والعبادات وسائر ما فيه كمال النفوس وصلاحها وسعادتها ونجاتها ، لم يجد عند الاولين والآخرين من اهل النبوات ومن اهل الراى كالمتفلسفة وغيرهم الا بعض ما جاء به القرآن . ولهذا لم تحتج الامة مع رسولها وكتابها الى نبى آخر وكتاب آخر ، فضلا عن ان تحتاج الى شيء

---

(٢٨) الرد على المنطقيين ص٤٦٨ لابن تيمية .

لا يستقل بنفسه غيره ، سواء كان من علم المحدثين والملهمين او من أرباب النظر والقياس الذين لا يعتصمون مع ذلك بكتاب منزل من السماء(٢٩) .

وسنعرض فيما يلي بالترتيب لتفاصيل منهج شيخ الاسلام الذي يرمي به على ضرورة الاكتفاء بطرق القرآن وادلته العقلية المتفقة مع الفطرة الانسانية .

وكانت عنـاية الشيخ الفائقة متجهة الى هدم المنطق الارسطاطاليسي واستبعاده ونقض حدوده وقضاياه والى القارىء فكرة مختصرة عن ذلك .

وكان يحاول ايضا التقريب بين وجهات النظر مادامت الاصول المتفق عليها واحدة ، اذ بالرغم من الخصومات العنيفة الحادثة بين الفرق والمذاهب في عصر شيخ الاسلام ، فانه حاول التقريب بين الاتجاهات المتقاربة اذ وجد مواضيع الالتقاء كثيرة ، فاظهر الاتفاق في الاصول واغضى عن الخلافات في دقائق المســائل التي تخفى على الكثير فان الكلام في مســائله هو قول أكثر الانام ونواقصــه في ذلك ان اللـــه تعــالى أمرنا بالجماعة والائتلاف ونهانا عن الفــرقة والاختلاف فقال لنــا في القــرآن (واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا) .

وقال (ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء) .

وقال (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات) .

وكان يبرز امام مخالفيه الاصول الكبار المتفق عليها فيذكرهم بأن ربنا واحد وكتابنا واحد ونبينا — صلى الله عليه وسلم — واحد ، وأن هذا الدين لا تحتمل التفرق والاختلاف(٣٠) .

وفي احدى مرات النقاش والجدل قال لمخالفيه :

---

(٢٩) ابن تيمية — جواب اهل العلم والايمان ص٤٤ — ٤٥ ط دار الكتب العلمية بيروت ١٣٩٤هـ — ١٩٧٤م .

(٣٠) ابن تيمية — شرح العقيدة الاصفهانية ص٦٣ .

لا شك أن الناس يتنازعون ، يقول هذا (أنا حنبلي) ، ويقول هذا . أنا أشعري) ويجري بينهم تفرق وفتن واختلاف على أمور لا يعرفون حقيقتها .

ثم شجب هذا الاختلاف والتفرق آتيا بما يثبت اعتناق الاشعري بعد رجوعه من الاعتزال عقيدة الامام احمد بن حنبل مؤيدا ذلك بما أعلنه أبو الحسن الاشعري نفسه في كتابه (الابانة) وما حكاه عنه ابن عساكر في كتابه (تبيين كذب المفتري فيما ينسب الى الشيخ أبي الحسن الاشعري) .

وقال :

وأنا قد أحضرت ما يبين اتفاق المذاهب فيما ذكرته ، ولم يصنف في أخبار الاشعري المحمودة كتاب مثل هذا ، وقد ذكر فيه لفظه الذي ذكره في (الابانة)(٣١) .

هدم المنطق الارسطاليسي واعلاء الميزان القرآني :

لعل من أبرز معالم منهج شيخ الاسلام ابن تيمية هو هدمه للمنطق الارسطاليسي وتقويضه من أساسه ، فقدم بذلك خدمة لا تقدر — لا للعقيدة والفكر الاسلامي فحسب — بل أسهم في انتشال فلسفة أوربا وحضارتها من عقم المنطق الصوري وعرقلته للعقل البشري ، بها الى المنهج الحقيقي الوحيد الصحيح للتقدم العلمي والمعارف الصحيحة الا وهو المنهج التجريبي. ويرى أستاذنا الدكتور النشار — رحمه الله — انه ليس هناك في الحقيقة من تكلم — فيما قبل العصور الحديثة — بما تكلم به ابن تيمية . لقد وصل الى أوج الدرج في فلسفة المنهج التجريبي ، بنقده للمنطق اليوناني القياسي وبدعوته الى المنطق الاسلامي التجريبي وعبر عن روح الحضارة الاسلامية الحقة . ويصف الى ذلك رأي الشيخ مصطفى عبد الرازق بقوله

---

(٣١) أبو المعالي السلامي : غاية الاماني في الرد على النبهاني ج١ ص٢٨٩ .

(ان الدراسات المنطقية لو سارت منذ عهد ابن تيمية على نهجه و... بعد الشرح والتعمق ، لكنا بلغنا بها من ارتقى مبلغا عظيما »(٣٢) .

وقد نقد ابن تيمية بشدة المنادين بتطبيـــق المنطق الرسطاطاليسي والمعجبين به فى العالم الاسلامى باعتباره القانون الذى يعصم الذهن من الوقوع فى الخطأ ، فظهر بكتاباته ومناقشاته العميقة لحدود هذا المنطق وطرق استدلالاته — أظهر انه لا يجوز لعاقل ان يظن ان الميزان العقلى الذى انزله الله هو منطق اليونان للاسباب الآتية : —

أولا — أن الله تعالى أنزل الموازين مع كتبه قبل أن يخلق اليونان فى عهد نوح وابراهيم وموسى عليهم السلام وغيرهم ، وهذا المنطق اليونانى وضعه أرسطو قبل المسيح بثلاثمائة سنة فقط ، فكيف كانت الامم المتقدمة تزن به ؟ ويثبت بذلك ان الله تعـــالى خاطب الامم بالميزان العقلى ، فإن الوحى المنزل قائم على أدلة العقول(٣٣) .

ولما كان القرآن الكريم هو الكتـاب الالهى الاخير للبشريه ، فقد عظم من شأن العقل ، وجعله أساسا للتكليف فان مسلوب العقـل أو المجنون غير مكلف وقد رفع عنه العقاب ، ولا يصح ايمانه ولا صـــلاته ولا صومه ولا شىء من أعماله ، فان الاعمال كلها لا تقبل الا مع العقل فمن لا عقل له لا يصح شىء من عباداته — لا فرائضه ولا نوافله — ومن لا فريضـــة له ولا نافلة ليس من أولياء الله تعالى .

ولهذا قال تعالى (ان فى ذلك لآيات لاولى النهى) اى العقول . وقال تعالى (هل فى ذلك قسم لذى حجر) أى لذى عقل ؟ . وقال تعالى : فاتقون يا أولى الالباب) وقال تعالى (انا انزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون .

ويتضح من آيات قرآنية أخرى أن الله تعالى قد مدح وأثنى على من كان له عقل فأما من لا يعقل فان الله لم يحمده ولم يثن عليه ولم يذكره بخير

---

(٣٢) د . على سامى النشار — مناهج البحث عند مفكرى الاسلام واكتشاف المنهج العلمى فى العـــالم الاســـلامى ص٢٨٩ ، ٣٠٢ ط دار المعارف ١٩٦٥م .

(٣٣) السيوطى — صون المنطق جـ٢ ص١٥٥٧ .

غلظ ، بل قال تعالى عن أهل النار (وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير) وقال (ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون) . وقال سبحانه (ولقد ذرانا لجهنم كثيرا من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم اعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالانعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون) . وقال (أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ان هم كالانعام بل هم أضل سبيلا)(٣٤) .

ثانيا — كان السلف من هذه الامة يستخدمون الموازين العقلية التى بينها القرآن الكريم ولم يلجأ احد منهم الى المنطق اليونانى الذى لم يعرف فى العالم الاسلامى الا بعد الترجمة فى عهد دولة المأمون أو قريبا منه .

وقد لجأ ابن تيمية لاستخلاص طرق الحجاج العقلى من القرآن الحكيم مستندات الى مواقف الرسل والانبياء عليهم السلام مع الكافرين ، فقد ذكر الله تعالى فى كثير من السور القرآنية المناقشات التى دارت بين الملوك والعلماء التابعين لهم من ناحية والرسل من جهة أخرى ، ولذلك فقد اعلمنا القرآن بما دار مع المعاندين ، فذكر فى كتابه فى غير موضع قصص فرعون والذى حاج ابراهيم فى ربه لما آتاه الله الملك ، والملأ من قوم نوح وعاد وغيرهم من المتكبرين المكذبين للرسل ، اخبرنا بردود علمائهم ، كقول الله تعالى (فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ، فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التى قد خلت فى عباده وخسر هنالك الكافرون)(٣٥) .

وقال ابن عباس رضى الله عنهما (كل سلطان فى القرآن فهو حجة) وقد قصت لنا سورة (غافر) أحوال مخالفى الرسل من الملوك والعلماء ، مثل أقوال الفلاسفة وعلمائهم ومجادلتهم واستكبارهم مما يشكل عبرة لمن أتى بعدهم .

---

(٣٤) ابن تيمية — مجموع فتاوى شيخ الاسلام ابن تيمية المجلد العاشر ط الرياض ص٣٥٤ .

(٣٥) السيوطى — صون المنطق ج١ ص١٥٧ — ١٥٨ .

وكذلك في سورة الانعام وعامة السور المكية وطائفة من السور المدنية ، فانها تشتمل على خطاب هؤلاء وضرب **الامثال والمقاييس** لهم . وذكر قصصهم وقصص الانبياء واتباعهم معهم . فقال سبحانه (ولقد مكناهم فيما مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعا وابصارا وافئدة فما اغنى عنهم سمعهم ولا افئدتهم من شيء اذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون)(٣٦) .

فكيف يعقل أن يترك المسلمون هذه الحجج العقلية ويلجأون الى منطق اليونان ؟ لقد أغناهم الله عز وجل **بالميزان** التي انزلها الله مع الكتاب حيث قال (الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان) وقال عز وجل (لقد ارسلنا رسلنا بالبينات وانزلنا معهم الكتاب والميزان) وهي ميزان عادلة تتضمن اعتبار الشيء بمثله وخلافه ، فيسوى بين المتماثلين ويفرق بين المختلفين بما جعله الله في فطر عباده وعقولهم من معرفة التماثل والاختلاف .

ويضاف الى القرآن الحديث أيضا ، وبهما تتبين الحقائق بالمقاييس العقلية والامثال المضروبة ، ويتبين طريق التسوية بين المتماثلين والفرق بين المختلفين ، ويتبين الانكار على من يخرج عن ذلك ، كقوله تعالى (أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون) وقوله سبحانه وتعالى (افنجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون)(٣٧) ؟

يتبين اذن مما تقدم أن حجج القرآن وادلته ميسرة مفهومة للناس وفقا للفطرة التي فطرهم الله تعالى عليها ، وبها يعرفون ويستدلون .

ويقتضي التوضيح المامنا أولا بنظرية ابن تيمية في المعرفة ثم شرح الاصطلاحات التي استقراها من القرآن الكريم وهي على الترتيب :

١ — الميزان القرآني .
٢ — قياس الاولى
٣ — دليلا اللزوم والاعتبار .

---

(٣٦) فتاوى ابن تيمية ج٩ ص٣٨ — ٣٩ .
(٣٧) ابن تيمية — الرد على المنطقيين ص٣٨٢ — ٣٨٣ .

أولا — الفطرة الانسانية وطرق المعرفة :

لا يمكن فهم عملية المعرفة الانسانية الا بالنظر الى الانسان ومكوناته ، ذلك ان تضخيم احد جوانبه على الجوانب الاخرى يؤدى الى أخطاء فى التصورات ناشىء عن انحراف الفهم .

ويعد تعريف ابن تيمية للانسان مدخلا للنظر الى تفسير كيف تتم عملية المعرفة ، لأن الاختلاف الاساسى فى رايه بين الفلاسفة والمتكلمين من ناحية والصوفية والفقهاء من ناحية أخرى يرجع الى تجزئة القدرات الانسانية وعدم التصور الصحيح للانسان كما خلقه الله تعالى . ومن ثم فان الاسلام جاء مخاطبا الفطرة الانسانية كما خلقها الله تعالى باعتبار الانسان حى حساس متحرك بالارادة — أو انه علم وعمل ، عقيدة وعبادة ، معرفة وسلوك ، فاثبت ابن تيمية ان الاسلام جاء موافقا لهذه الثنائية فى خلقة الانسان ، فيعلمه بكل ما هو حق ويأمره باتباع المعروف ، ويلفت أنظاره الى الايات الكثيرة الدالة على وجود الله عز وجل ، وعلى حكمته وعدله ورحمته وقدرته وسائر الصفات والاسماء الكاملة له سبحانه ، كما انه لا يأمره الا بمعروف ، ولا ينهاه الا عن المنكر .

ويهتم ابن تيمية ببيان الصلة التى ينبغى أن تكون بين العبد وربه حتى تستقيم الحياة ويسعد الانسان فيقول (أما النفس فان لهـا قوة الارادة مع الشعور وهما متلازمان ، والنفس تتقوم بمرادها ، وهو المعبود ، والله سبحانه هو المقصود المعبود وحده لا بمجرد ما تشعر به)(٣٨) .

ويستند ابن تيمية الى النصوص يفسرها ويشرحها ، فالانسان قد سماه النبى صلى الله عليه وسلم بقوله (أصدق الاسماء حارث وهمام) فهو دائما يهم ويعمل ، لكنه لا يعمل الا ما يرجو نفعه او دفع مضرته . وينطبق ذلك الوصف على من صحت فطرته ، فالفطرة السليمة تعرف الحق وتحبه وتطمئن اليه وتكذب بالباطل وتبغضه وتنكره ، كما قال تعالى (يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر)(٣٩) .

---

(٣٨) ابن تيمية — النبوات ص٩٠ — ٩١ .
(٣٩) ابن تيمية — نقض المنطق ص٢٩ .

ولكن المشاهد فى أحوال كثيرة أن من الناس من يعلم أن شيئا يضره ومع ذلك يفعله ، ويعلم أن شيئا ينفعه ومع ذلك يتركه ، فما تعليل ذلك ؟

يرى شيخ الاسلام أن ذلك عارضة ما فى نفسه من طلب لذة أخرى أو دفع ألم آخر ، فأصبح جاهلا ، حيث قدم هذا على ذاك ولهذا قال أبو العالية (متوفى ٩٠هـ وهو من كبار التابعين) سألت أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى (انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب) . (٤٠)

واذا عدنا الى مبدأ الثنائية فى خلق الانسان ، وعرفنا حقيقة العداء بينه وبين الشيطان ، استطعنا الوقوف على أسباب أخرى للمعاصى والمعاصى ، لأن مبدأ العلم الحق والارادة الصالحة من لمة الملك ، ومبدأ الاعتقاد الباطل والارادة الفاسدة من لمة الشيطان ، وذلك تفسير قول الله تعالى (الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا) وقال تعالى أيضا (انما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه) أى يخوفكم أولياؤه .

الاصل اذن أن الله تعالى خلق عباده على الفطرة التى ان تركت على سجيتها عرفت الحق وعملت به — لأنها جبلت على الصحة فى الادراك وفى الحركة(٤١) لذلك يأتى دورالرسل عليهم السلام بتكميل الفطرة الانسانية لا بتغييرها . قال تعالى (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق . فصلت) وهذا التطابق والتوافق بين آيات الله تعالى فى الآفاق والانفس يأتى متطابقا مع الآيات القرآنية السمعية (لأن القرآن الذى أخبر به عباده حق ، فتتطابق الدلالة البرهانية القرآنية والبرهانية العيانية ويتصادق موجب **الشرع المنقول والنظر المعقول**)

ومما يساعد الانسان فى الوصول الى معرفة الحق أن يهتدى بالطرق العقلية التى استخدمها القرآن الكريم والتوافق بين آيات الله تعالى فى الآفاق وفى الانفس — أى العيانية والعقلية وكذلك السمعية .

---

(٤٠) ابن تيمية — نقض المنطق ص٢٩ — ٣٠ .

(٤١) ابن تيمية — منهاج السنة ج١ ص٨٢ والنبوات ص٢٠٢ .

وينقد ابن تيمية الفلاسفة القائلين بأن العبادات التى أمرت بها الرسل مقصودها اصلاح النفس لتستعد للعلم الالهى وهو الحكمة النظرية فى تعريفهم الذى زعموا انه كمال النفس ، أو مقصودها اصلاح المنزل والمدينة — أى الحكمة العلمية .

ويظهر تميز ابن تيمية فى نقده للمناطقة والفلاسفة عندما يربط فى مناقشاته لهم بين العلم الالهى عندهم وعند المسلمين — فالعلم بالله هو (العلم الاعلى) ، ويتحقق هذا العلم على الوجه الصحيح باكتمال ناحيته النظرية والعلمية ، ولا يقتصر الامر على أن النفس تكمل بمجرد العلم به فقط كمـا زعموه ، لان النفس لها قوتان : قوة علمية نظرية ، وقوة ارادية علمية ، فلابد لها من كمال القوتين بمعرفة الله تعالى ، وعبادته .

وبناء على هذا التفسير يسقط زعم الفلاسفة — ويقصد ابن سينا خاصة — بأن العبادات التي أمرت بها الرسل مقصودها اصلاح أخلاق النفس لتستعد للعلم الذى زعموا انه كمال النفس ، فيجعلون العبادات وسيلة محضة الى ما يدعونه من العلم (ولهذا يرون ذلك ساقطا عمن حصل المقصود ، كما تفعل الملاحدة الاسماعيلية ، ومن دخل فى الالحاد او بعضه ، وانتسب الى الصوفية ، أو المتكلمين ، أو الشيعة ، أو غيرهم)(٤٢) .

ويبدع ابن تيمية فى تحليله لمكونات النفس الانسانية واشتمالها على القوة العلمية والقوة الارادية العلمية لكى يعطى العبادات مكانتها الصحيحة ودورها الفعال فى العلاقة بين الانسان وربه ، فان عبادته — سبحانه وتعالى — تجمع محبته والذل له .

تتميز اذن نظرية ابن تيمية بنظرة شمولية جامعة ، فالنفس لها قوة نظرية علمية ، وقوة ارادية عملية ، وهى مفطورة على معرفة الله عز وجل كذلك تعرف المعروف وتنكر المنكر ويؤيدها الملك بالعلم الحق والارادة الصالحة ، بينما الاعتقاد الباطل والارادة الفاسدة من هواتف الشيطان .

---

(٤٢) ابن تيمية — الرد على المنطقيين ص١٤٥ .

وأزاء هذا التصور للانسان ومكوناته ودوافعه النفسية ، لا تكفى المعرفة لأنها تتصل فقط بالقوة النظرية العلمية ، بل لكى يقف الانسان على قدميه مقاوما الاهواء وهواتف الشيطان ومعوقات سيره نحو الله تعالى لابد له من عبادة الله وحده لا شريك له (والعبادة تجمع معرفته ، ومحبته والعبودية له . وبهذا بعث الله الرسل ، وانزل الكتب الالهية : كلها تدعو الى عبادة الله وحده لا شريك له)(٤٣) .

وبهذا يتبين انحراف قول الجهمية بأن الايمان مجرد معرفة الله ففصلوا بين علم النفس وبين ارادتها وجعلوا الكمال فى نفس العلم وان لم يصحبه قول ولا عمل — ولا اقترن من الخشية ، والمحبة ، والتعظيم وغير ذلك من أصول الايمان ولوازمه(٤٤) .

الهدى والبينات :

تحدثنا من قبل عن نقد ابن تيمية للمتكلمين لاسيما فى ظنهم بأن الصحابة لم يكونوا أهل نظر ، واستخدامهم لاساليب كلامية بدعية مخالفة لاساليب القرآن فى النظر والاستدلال العقلى . بينما استدل القرآن الحكيم **بالهدى والبيان والادلة والبراهين وهى تغنى عن مناهج النظر** التى اسسها أهل الكلام ، فان الله تعالى أرسل رسوله **بالهدى ودين الحق** ، وارسله بالآيات **البينات ومن الممتنع ان يرسل الله رسولا يأمر** الناس بتصديقه ولا يكون هناك ما يعرفون به صدقه . وقال تعالى (ان الذين يكتمون ما انزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون) ١٥٩ البقرة .

---

(٤٣) ابن تيمية — الرد على المنطقيين ص١٤٤ — ١٤٥ .

(٤٤) ويلحظ الباحث أن ابن تيمية يشتد فى خصومته للجهمية ويحملهم مسئولية الانحرافات كلها وانهم اصل البلاء الذى حدث بتفرق المسلمين شيعا وأحزابا ويصفهم بقوله فهؤلاء الجهمية من أعظم مبتدعة المسلمين ، بل جعلهم غير واحد خارجين عن الثنتين وسبعين فرقة ، كما يروى ذلك من عبد الله بن المبارك ، ويوسف بن أسباط (الرد على المنطقيين ص١٤٦) .

ويفصل ابن تيمية المعانى القرآنية لكلمات البينات والهدى والفرقان كما يلى : —

١ — فان **البينات** جمع بينه وهى **الادلة** والبراهين التى هى **بينة** فى **نفسها** اى بديهيات وأوليات وضروريات وكلها الفاظ مترادفة تطلق منهجيا على القواعد الاساسية للمعارف والعلوم ، وبها يتبين غيرها ، يقال بين الامر اى تبين فى نفسه ويقال بين غيره ، فالبين اسم لما ظهر فى نفسه ولما اظهر غيره ، وكذلك المبين كقوله فاحشة مبينة اى **متبينة** . ومقدمات الادلة تكون معلومة بنفسها كالمقدمات الحسية والبديهية ، وبها يتبين غيرها فيستدل على **الخفى** بالجلى والهدى ايضا هو بيان ما ينفع به الناس ويحتاجون اليه وهو ضد **الضلالة** ، فالضال يضل عن مقصوده وطريق مقصوده وهو سبحانه عرفهم أن الله هو المقصود المعبود وحده وانه لا يجوز عبادة غيره .

ويوضح الصلة بين البينات والهدى فيذكر أن البينات فيها بيان الادلة والبراهين على ذلك فليس ما يخبر به ويأمر به من الهدى قولا مجردا عن دليله ليؤخذ تقليدا واتباعا للظن ، بل هو مبين بالايات البينات — وهى الادلة اليقينية والبراهين القطعية .

ثم يخطو خطوة اخرى فيذكر ان الهدى التام لا يكون الا مع **الفرقان** ، ولهذا قال تعالى (شهر رمضان الذى انزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان) ، فالفرقان هو الفرق بين الحق والباطل والخير والشر والصدق والكذب والمأمور والمحظور والحلال والحرام ، وأيضا فان الادلة تشتبه كثيرا بما يعارضها فلابد من الفرق بين الدليل الدال على الحق وبين ما عارضه ليتبين أن الذى عارضه باطل،فالدليل يحصل به الهدى وبيان الحق لكن لابد مع ذلك من الفرقان وهو الفرق بين ذلك الدليل وبين ما عارضه(٤٥) .

ويضرب الامثلة عليها يقصده بالفرق بين **الهدى والفرقان** ، **فالهدى**

---

(٤٥) ابن تيمية — النبوات ص١٦٢ .

مثل أن يأمر بسلوك الطريق الى الله كما يؤمر قاصد الحج بسلوك طريق مكة مع دليل يوصله ، **والبينـات** ما يدل ويبين أن **ذلك هو الطـريق** وأن سالكه سالك للطريق لا ضال ، والفرقان أن يفرق بين ذاك الطريق وغيره وبين الدليل الذى يسلكه ويدل الناس عليه وبين غيرهم ممن يدعى الدلالة وهو جاهل مضل . وهذا وأمثاله مما يبين أن فى القرآن الادلة الدالة للناس على تحقيق ما فيه من الاخبار والاوامر كثير(٤٦) .

والله سبحانه انزل فى كتبه **البينات والهدى** ، فمن تصور الشيء على وجهه فقد اهتدى اليه ، ومن عرف دليل ثبوته فقد عرف البينات ، **فالتصور الصحيح اهتداء والدليل الذى يبين التصديق بذلك بينات** ، والله انزل الكتاب هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان . وهو — سبحانه — اذا ذكر الانبياء — نبيا وغيره — ذكر أنه أرسلهم بالآيات البينات وهى الادلة والبراهين البينة المعلومة علما يقينيا اذ كان كل دليل لابد ان **ينتهي الى مقدمات بينة بنفسها قد تسمى بديهيات وقد تسمى ضروريات وقد تسمى أوليات** ، وقد يقال هى معلومة **بأنفسها** ، فالرسل صلوات الله عليهم **بعثوا بالآيات البينات**(٤٧) .

أيحتاج الناس بعد ذلك الى اقيسة وادلة المتكلمين والفلاسفة ، ان الكتب المنزلة وآخرها القرآن الحكيم — كلها بذاتها — آيات بينة لانها كلام الله تعالى أوحى به الى انبيائه ورسله ، كذلك اتجه الوحى الى مخاطبة الفطرة التى فطر الناس عليها ، ومنها تمييزها الموازين العقلية بين الحق والباطل اذا حافظت على فطرتها ولم تنصت الى هواتف الشيطان أو تجنح مع هوى النفس .

موقفه ازاء القضايا الكلامية

الصفات الالهيـة : —

ان اهم المسائل التى اثارت الجدل بين ابن تيمية وخصومه المعاصرين هى صفات الله سبحانه وتعالى ، فقد اختلفت اهم الفرق بين نفيها — كجهم

---

(٤٦) النبوات ص١٦٣

(٤٧) نفس المصدر ص١٦٥ .

بن صفوان والمعتزلة — او الغلو فى اثباتها فوقعوا فى التشبيه والتجسيم — كالشهامية والكرامية وقلة الحنابلة الذين يصفهم ابن تيميـة بأنهم اتوا من المنكرات والامام احمـد برىء منهم — او اتخاذ الموقف الوسط كما فعـل الاشاعرة الذين اثبتوا لله صفات سبعة هى الحياة والعلم والقدرة والارادة والكلام والسـمع والبصر ، وفرقوا بين صفات الذات وصفات الفعـل ؛ وعدوا صفات الفعل كالنزول والاتيان والخلق والرضى والغضب وغيرها من الحوادث التى ينبغى تنزيه الله عنهـا تبعـا للاصـل (ما لا يخلو من الحوادث فهو حادث) .

وفى اعتراض ابن تيمية على المتكلمين ، يرى انهم اقاموا على محاولة اثبات الصانع باثبات حدوث الاجسـام الذى لا يثبت حدوثه الا بحـدوث ما يقوم به من الصفات والافعال فالجاهم هذا الى نفى صفات الله تعـالى وافعاله القائمة به وظنوا بهذه المقدمة انهم سيبطلون قول الدهرية ، ولكن الدهرية — فى رأى ابن تيمية — كانت حجتهم اقوى اذ قالوا : كيف يحدث الحادث بلا سبب حادث ؟

ويستند منهج المتكلمين بعامة الى قاعدة (مالا يخلو من الحوادث فهو حادث) وان كان معتقدهم ان كل ما يرى وتقـوم به الصفات فهو جسم ، ومن قال انه جسم واراد انه مركب من الاجزاء .

وربما كان الخطأ بسبب البدء بمنهجهم ونقطة البداية فيه القول بنفس التجسيم . ولكن ابن تيمية يرى ان هذا الطريق طويل ويؤدى الى الوقوع فى الخطأ . اما الطريق الصحيح فهو اثبات صفات الكمال لله عز وجل ، اذ يثبت له — تعالى — صفات الكمال المطلق ذاتا وصفاتا مستخدما قيـاس الاولى — اى انه ما من صفة يثبت وجودها للمخلوق فان اثباتها للخـالق أولى ، فضلا عن ثبوت الصفات الالهية بالسمع والعقل . وقد جاء الانبياء جميعا باثبات هذه الصفات بالتفصيل — اى باثبات مفصـل ونفى مجمـل كقوله تعالى (ليس كمثله شيء) فعكس المتكلمون الآية وجاءوا بنفى مفصل واثبات مجمل ، والدليل وصف المعتزلة لله بانه ليس كذا وليس كذا .. الخ

ويستخلص ابن تيمية من مذاهب المتكلمين الزامات يؤدى اليهما السياق : فان التوحيد عند المعتزلة — وهو فى حقيقته نفى الصفات الالهية — قول من ابطل الباطل عنـده ، لأنهم يسلمون بأن الله حى عليم قدير . ومن المعلوم أن حيا بلا حياة وعليما بلا علم وقديرا بلا قدرة يعبر عن موقف معاند للعقل والشرع واللغة ، فان الصفة اذا قامت بمحل عاد حكمها على ذلك المحل ، لا غيره .

وكذلك الامر بالنسبة للاشاعرة الذين اثبتوا صفات الذات وفروا من اثبات الافعال . اذ لا يعقل أن يكون الموصوف حيا عالما قادرا متكلما رحيما مريدا بحيـاة قامت بغيره ولا بعلم وقدرة قامت بغيره ، ولا بكلام ورحمـة وارادة قامت بغيره ، والكلام بمشيئة المتكلم وقدرته أكمـل ممن لا يكون بمشيئته وقدرته . وفى تناوله لصفة الكلام بالذات التى اثارت اشد الوان الجدل بين السلف والمعتزلة والاشاعرة ، فان ابن تيميـة يثبت أن السلف قالوا ان الله لم يزل متكلما اذا شاء وكيف شاء لأن الكلام صفة كمال لا صفة نقص وانما تكون صفة كمال اذا قام به لا يتصف بما هو بائن عنه ، فبرهن على خطأ المعتزلة لقولهم بأن كلام الله مخلوق ، واعتبر قول الاشـاعرة بدعة ، لأنهم ميزوا — تأثروا بابن كلاب — بين الكلام النفسى وغيره .

وعلينا بعد هذا البيان ، الانتقال لمعالجة واحدة من اهم القضايا التى اثارت الخصومات ضد شيخ الاسلام ، والبت الخصوم عليه ورمته بسببها بتهمة التجسيم ، وذلك توطئة لمناقشة هذه التهمة وتفنيدها فيما بعد :

اثبات صفات الله تعالى وافعاله بالأدلة العقلية :

يثبت علماء السنة والحديث ما يقوم بالله تعالى من **الصفات** كالحياة والعلم والقدرة والارادة والكلام والسمع والبصر كمـا يثبتون الافعال التى يشاؤها ويقدر عليهـا كالخلق والاحيـاء والاماتة والاستواء وغير ذلك من الافعال .

ولا نزاع بين اهل السنة وغيرهم بطبيعة الحال أن ادلة السمع توافرت على اثبات هذه الصفات والافعال ، لكن الذين يخالفـون دلالة السمع من

المتكلمين يدعون أنها دلالة ظاهرة لا قاطعة ، ويرون أن الدلالة العقلية القاطعة خالفتها .

ولكن شيخ الاسلام ابن تيمية فى شرح القواعد التى يستند اليها فى الدلالة العقلية القاطعة التى يحتج بها رأى الفلاسفة الدهرية القائلين بقدم العالم وينتقد بها أيضا المتكلمين — سواء المعتزلة الذين نفوا الصفات والافعال — أو الكلابية الاشاعرة الذين اثبتوا الصفات ونفوا الافعال بالتأويل .

قال شيخ الاسلام :

معلوم بالسمع اتصاف الله تعالى بالافعال الاختيارية ، كالاستواء الى السماء ، والاستواء على العرش ، والقبض ، والطى ، والاتيان ، والمجيء ، والنزول ونحو ذلك . بل والخلق ، والاحياء ، والاماتة ، فان الله تعالى وصف نفسه بالافعال اللازمة كالاستواء،وبالافعال المتعدية كالخلق،والفعل المتعدى للفعل اللازم ، فان الفعل لابد له من فاعل ، سواء كان متعديا الى مفعول أو لم يكن . والفاعل لابد له من فعل ، سواء كان فعله مقتصرا عليه أو متعديا الى غيره . والفعل المتعدى الى غيره لا يتعدى حتى يقوم بفاعله ، اذ كان لابد من الفاعل . وهذا معلوم سمعا وعقلا)(٤٨) .

واستعان ابن تيمية فى شرحه ببعض قواعد اللغة العربية التى يقرها الكافة ويعرفونها ، فان أهل اللغة العربية التى نزل بها القرآن متفقون على أن الانسان اذا قال (قام فلان وقعد) أو قال (أكل فلان الطعام وشرب الشراب) فانه لابد أن يكون فى الفعل المتعدى الى المفعول به ما فى الفعل اللازم وزيادة ، اذ كلتا الجملتين فعلية ، وكلاهما فيه فعل وفاعل ، والثانية امتازت بزيادة المفعول .

فاذا وضعنا هذه القاعدة نصب أعيننا فى التفسير لتبين لنا التفسير الواضح لمثل قول تعالى (هو الذى خلق السموات والارض فى ستة أيام ثم استوى على العرش اذ تضمن فعلين : أولهما متعد الى المفعول به ، والثانى

---

(٤٨) موافقة جـ٢ ص٣ .

مقتصر لا يتعدى ، فاذا كان الثاني — وهو قوله تعالى (ثم استوى) — فعلا متعلقا بالفاعل ، فقوله (خلق) كذلك ، بلا نزاع بين أهل العربية .

ويستكمل ابن تيمية الشرح من حيث الادلة العقلية ، فيوضح أن من جوز أن يقوم بذات الله تعالى فعل لازم له ، كالاستواء والمجيء ونحو ذلك ، لم يمكنه أن يمنع قيام فعل يتعلق بالمخلوق ، كالخلق والبعث والاماتة والاحياء كما أن من جوز أن تقوم به صفة لا تتعلق بالغير كالحياة ، لم يمكنه أن يمنع قيام الصفات المتعلقة بالغير ، كالعلم والقدرة والسمع والبصر .

وينبغي أن نقرر ايضا تبعا لما نشاهده في الكون من مخلوقات حادثة ، ان هذه المخلوقات بافعال الله تعالى الاختيارية القائمة بنفسه ، وهذه الافعال سبب حدوثها ، والله تعالى حي قيوم لم يزل موصوفا بأنه يتكلم بما يشاء ، فعال لما يشاء .

اذن يثبت بذلك خلق السموات والارض بما جاء به الشرع ، ولا يمكن القول بحدوث العالم كما يزعم نفاة الافعال الذين يزعمون أن العقل دل على نفيها فالعقل عند التحقيق يبطل النفي ويوافق الشرع ، لأن نفي الافعال يؤدي الى انكار حدوث المخلوقات ، بينما هي مشهودة مرئية لنا جميعا ، دالة بنفسها على خالق حكيم قدير .

كذلك بالنظر الى افعال الله تعالى ، يمكننا وضع القضية في الصيغة المنطقية الآتية :

ان الله تعالى موصوف بصفات الكمال ، منزه عن النقائص ، وكل كمال وصف به المخلوق من غير استلزامه لنقص ، فالخالق أحق به ، وكل نقص نزه عنه المخلوق فالخالق أحق بأن ينزه عنه . **والفعل صفة كمال لا صفة نقص** ، كالكلام والقدرة ، وعدم الفعل صفة نقص ، كعدم الكلام وعدم القدرة ، فدل العقل على صحة ما دل عليه الشرع ، وزال الاشكال ، وهو المطلوب .

ثانيا : طرق البراهين القرآنية

١ ـ الميزان القــرآني :

ويرى ابن تيمية أن القياس الصحيح هوالميزان المنزل من الله تعــالى الذى يستدل به العقل ، فان من أعظم صفات العقــل معــرفة التمــاثل والاختلاف ، فاذا رأى الشيئين المتماثلين علم أن هذا مثل هذا فجعل حكمهما واحدا ، قال الله تعالى (الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان)الشورى١٧ وقال سبحانه (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتــاب والميزان ليقوم الناس بالقسط) الحــديد ٢٥ وفسر السلف الميزان بالعــدل وفسره بعضهم بما يوزن به ، وهما متلازمان وقد أخبر أنه أنزل ذلك مع رسله كمــا أنزلمعهم الكتاب ليقوم الناس بالقسـط ، ويبين أيضا فى موضــــع آخر أن القياس الصحيح هو من العدل الذى أنزله الله تعــــالى ، وأنه لا يجوز أن يختلف الكتاب والميزان ، فلا يختلف نص ثابت عن الرسل وقياس صحيح ـ لا قياس شرعي ولا عقلي ، ولا يجوز قط أن الأدلة الصحيحة النقلية تخالف الأدلة الصحيحة العقلية ، وليس فى الشريعــــة شىء على خلاف القيــــاس الصحيح على خلاف القياس الفاسد(٤٩) .

وبعد عرض مسهب مقارن للأقيسة المنطقية والميزان القرآنى ، يقرر ابن تيمية أن الله تعالى يبين الحقائق بالمقاييس العقلية والأمثال المضروبة ، ويبين طريق التسوية بين المتماثلين والفرق بين المختلفين(٥٠) . وينكر على من يخرج من ذلكقوله تعالى (أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ســـاء ما يحكمون) الجاثية ٤ ٥ وقوله سبحانه (أفنجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون) القلم ٦٨ ـ أى هذا حكم جائر ، لا عادل فان فيه تسوية بين مختلفين . وقال عز وجل (أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار) ص٤٨ وقوله سبحانه (أم حسبتم أن تدخلوا الجنـــة ولما يأتكم مثــل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأســـاء والضراء وزلزلوا) البقرة ٢١٤ .

---

(٤٩) الرد على المنطقيين ص٣٧١ .
(٥٠) نفس المصدر ص٣٨٣ .

واذا سأل سائل : اذا كان ما يعرف بالعقل فكيف جعله الله تعالى مما أرسلت به الرسل ؟ وهذا السؤال فى غير موضعه لأن صاحبه يفترض ان العقل مباين للشرع ، وان ما يعلم قسيما — أو مقابلا — للعلوم النبوية وبعبارة اخرى يجعل الاحكام العقلية منفصلة عن العلوم النبوية ، فهذه نقلية سمعية وتلك عقلية برهانية .

والاجابة على هذا السؤال سهلة يسيرة اذا قرأنا القرآن ، حيث يتبين منه أن الرسل ضربت للناس الامثال العقلية التى يعرفون بها التماثل والاختلاف ، فان الرسل خاطبت الناس بما يعرفونه ، ودلت على ما يفهمونه بفطرتهم التى خلقهم الله بها،فليست العلوم النبوية اذن مقصورة على مجرد الخبر كما يظنه أهل الكلام ، بل الرسل — صلوات الله عليهم — بينت العلوم العقلية التى بها يتم دين الناس علما وعملا ، وضربت الامثال ، وذلك يظهر دور الرسل الذين جاءوا بتكميل الفطرة واصلاحها ، فكملت الفطرة بما نبهتها عليه وأرشدتها مما كانت الفطرة معرضة عنه لاسباب الغفلة ، وكذلك تصلح الفطرة وتعيدها الى طبيعتها اذا فسدت بالآراء والاهواء الفاسدة ، ويكون دور الرسل ايضا ازالة ذلك الفساد وتذكير البشر كانت فطرتهم معرضة عنه(٥١) .

وكانت طريقة السلف الصالح تتلخص فى الاستدلال بالادلة العقلية التى يحتاج اليها فى العلم بما لا يقدر عليه المتكلمون باتيانه ، بل ان غاية ما يذكرونه قد جاء القرآن بخلاصته على أحسن وجه ، وذلك كالامثال المضروبة التى يذكرها الله تعالى فى كتابه التى وصفها بقوله (ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل) .

ولا يمل ابن تيمية من تكرار واعادة القول بأن الامثال المضروبة فى القرآن الكريم هى الاقيسة العقلية ، ويضيف الى ذلك انه يدخل فيها ما يسميه المناطقة براهين ، وهو القياس المؤلف من المقدمات اليقينية ، بل أن لفظ البرهان فى اللغة اعم من ذلك كما سمى الله تعالى آيتى موسى عليه السلام برهانين فقال سبحانه (فذلك برهان من ربك)(٥٢)

---

(٥١) ابن تيمية — الرد على المنطقيين ص٣٨٢ .
(٥٢) ابن تيمية — موافقة صحيح المنقول جا ص١٤ .

العلم الاعلى الذى هو الفلسفة عندهم ، الذى هو الفلسفة الاولى والحكمة العليا (علم ما بعد الطبيعة) — العلم الاعلى .

٢ — قياس الاولى :

ولعل اهم نقد لشيخ الاسلام ابن تيمية الارسططاليسى ان هذا القياس اذا استخدم فى الاستدلال على (واجب الوجود) تبارك وتعالى لا يدل على ما يختص به ، وانما يدل على أمر مشترك كل بينه وبين غيره ، لان قياس الشمول تستوى افراده ، والله تعالى ليس كمثله شىء .

ولا يجتمـــــع ســـبحانه هو وغيره تحت كل تســـتوى افراده ، وقد جعلوا الوجود المطلق موضوع الفلسفة الاولى .

فان وصفهم (للوجود) — الذى هو موضوع العلم الالهى عندهم — اما ان يكون (كل موجود) أو بعضه ، هو (الواجب) او (العكس) . ولكن كون وجود الواجب اكمل من وجود الممكن من اتفـــاق الاثنين فى مسمى الوجود ، فالوجود معنى كلى مشترك ولكن هذا (الوجود الكلى) انما يكون كليا فى الذهن ، لا فى الخارج .

فاذا كان هذا هو (العلم الاعلى)عندهم ، لم يكن (الاعلى) عندهم علما بشىء موجود فى الخارج ، بل علما بأمر مشترك بين جميع الموجودات ، وهى

وجاء فى (تفسير الجلالين) (ادخل يدك اليمنى بمعنى الكف فى جيبك — وهو طوق القميص واخرجها (تخرج) خلاف ما كانت عليه من الادمة (بيضاء من غير سوء) اى برص ، فادخلها واخرجهــا تضىء كشعاع الشمس تغشى البصر (.. فذلك) بالتشديد والتخفيف اى العصا واليد . والآية كاملة (اسلك يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سواء واضمم اليك جنـــاحك من الرهب فذلك برهانا من ربك الى فرعون وملائه انهم كانوا قوما فاسقين) .

ويقـــول الاصفهانى (فالبرهان أوكد الادلة ، وهو الذى يقتضى الصدق ابدا ، لا محالة .. قال تعالى (قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين — قل هاتو برهانكم هذا ذكر من معى — قد جاءكم برهان من ربكم) المفردات فى غريب القرآن ص٤٥ .

مسمى (الوجود) ، وذلك كمسمى (الشيء) ، و (الذات) ، (الحقيقة) و (النفس) و (العين) و (الماهية) ونحوها من المعاني العامة .

ويرى ابن تيمية ان العلم بهذا ليس هو علما بموجود في الخارج ؛ لا بالخالق ولا بالمخلوق ، وانما هو علم بأمر مشترك كلي تشترك فيه الموجودات ، لا يوجد الا في الذهن(٥٣) .

وهذا بخلاف (العلمي الاعلى) عند المسلمين . فانه العلم بالله تعالى الذي هو في نفسه أعلى من غيره من كل وجه . والعلم به أعلى العلوم من كل وجه ، والعلم به اصل لكل علم وموضوع هذا العلم هو (الوجود المطلق الكلي) المنقسم الى واجب وممكن وقديم ومحدث وجوهر وعرض (٥٤) .

ولاختصاص الله تعالى بصفات الكمال بالاطلاق ، فقد استعمل الانبياء عليهم السلام في الاستدلال عليه تعالى قياس الاولى (على وزن الاخرى) ، لاثبات أن كل ما ثبت لغيره من كمال فثبوته له بطريق الاولى وما تنزه منه غيره من النقائص فتنزهه عنه بطريق الاولى .

والآيات الكثيرة في القرآن في هذا الصدد تستند الى قياس الاولى قال تعالى (ضرب لكم مثلا من انفسكم هل لكم من ما ملكت ايمانكم من شركاء في ما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم انفسكم) الروم ٣٠ .

وقال تعالى (ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون . واذا بشر احدهم بالانثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم . يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب الا ساء ما يحكمون . للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء ولله المثل الاعلى وهو العزيز الحكيم النحل ١٦(٥٥) .

ويستخدم القرآن الكريم ايضا قياس الاولى في بيان امكان المعاد (أ) فتارة يخبر عمن اماتهم ثم احياهم ،كما اخبر عن قوم موسى بقوله (واذ

---

(٥٣) ابن تيمية — الرد على المنطقيين ص١٣٠ — ١٣١ .
(٥٤) الرد على المنطقيين ص١٢٦ .
(٥٥) ابن تيمية — الرد على المنطقيين ص١٥٠ ، ٣٥٠ .

قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقـة وانتم تنظرون . ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون) البقرة ٥٥ ، ٥٦ .

وكما اخبر عن المسيح عليه‌السلام انه كان يحيى الموتى باذن اللـه

وبنفس الطريقـة اخبر عن اصحاب الكهف انهم لبثوا نياما فى كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا الكهف ١٨ وقال تعالى (وكذلك اعثرنا عليهم ليعلموا ان وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها اذ يتنازعون بينهم أمرهم) الكهف ٢١ .

وقد ورد تفسير هذه الآية عن غير واحد من العلماء أن قضية البعث اثيرت فى ذلك الزمان أيضا فتنازع الناس حول حقيقته ، هل هو بالارواح فقط أم بالارواح والاجساد ؟ ولذلك اعثر الله تعالى هؤلاء على أهل الكهف ، وعلموا انهم بقوا نياما لا يأكلون ولا يشربون ثلثمائة سنة شمسية وهى ثلثمائة وتسع هلالية ، فاعلمهم الله بذلك امكان اعادة الابدان(٥٦) .

(ب) وتارة يستدل القرآن الحكيم على البعث بالنشأة الاولى ، وان الاعادة اهون من الابتداء ، كقوله تعالى (وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم قل يحييهـا الذى انشأها اول مرة وهو بكل خلق عليم يس ٧٨ — ٧٩ وقوله تعالى (وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيـده وهو اهون عليه) الروم ٢٧ .

(جـ) وتارة يستدل على امكان ذلك بخلق السموات والارض ، فان خلقها أعظم من اعادة الانسان ، كقوله تعالى (أو ليس الذى خلق السموات والارض بقادر على ان يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العظيم) يس ٨١ وقوله سبحانه (أو لم يروا ان الله الذى خلق السموات والارض ولم يعى بخلقهم بقادر على أن يحيى الموتى بلى انه على كل شىء قدير) الاحقاف ٣٣ .

(د) وتارة يستدل على امكانه بخلق النبات ، كقـوله تعالى (وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته حتى اذا اقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فانزلنا به الماء فاخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون) الاعراف ٥٧ .

---

(٥٦) ابن تيمية — الرد على المنطقيين ص٣١٨ — ٣٢٠ .

وقوله سبحانه (والله الذى ارسل الرياح فتثير سحابا فسقناه الى بلد ميت فأحيينا به الارض بعد موتها كذلك النشور) فاطر ٩ .

طرق الميزان القرآنى : اللزوم والاعتبار :

استخدم ابن تيمية نقدم للقياس المنطقى الارسططاليسى للوصول الى اثبات أنه لايفيد العلم،ولا يدعى شيخ الاسلام أن النقد نقده،ولكن يرجعه الى نظار المسلمين مع كثرة التعب ليس فيه فائدة علميـة بل كل ما يمكن علمه بدونه ، ففيه تطويل كثير متعب فانه متعب للاذهان مضيع للزمان . ويضرب مثالا على ذلك بمن يريد مثلا الوصول الى مكة أو غيرها من البلاد فاذا سلك الطريق المستقيم المعروف وصل فى مدة قريبة بسعى معتدل ، ولكن اذا قيض له من يدور به طرقا دائرة — ويسلك به مسالك منحرفة يتعب تعبا كثـيرا حتى يصل الى الطـريق المستقيمة ان وصـل . والا فقد يصـل الى غير المطلوب ، فيعتقد اعتقادات فاسدة . وقد يعجـز بسبب ما يحصل له من التعب والاعياء ، فلا هو نال مطلوبه ولا هو استراح .

ويرى ويشـارك ابن تيمية نظار المسلمين فى وصف هذا القيـاس بأنه استعمال لطرق غير فطرية ويعذب النفوس بلا منفعة ، كما أن القيـاس الارسـطى لا يفيد الا بامور كلية ، لا يفيد العلم بشىء معين من الموجودات ، بل الايسر والابين العلم بالمعينات لا الكليات(٥٧) .

هذا القياس الذى لا يتضمن الا شكل الدليل وصورته أن الكليـات تقع فى النفوس بعد معرفة الجزئيات المعينة ، اى أن النظريات العلميـة العامة لايتوصل اليها الا بعد معرفة الجزئيات فى العلوم المختلفة والتوصل منها الا استنباط القانون العام الذى ينتظمها جميعا (ومن تدبر جميع مايتكلم فيه الناس من الكليات المعلومة فى الطب والحساب والطبيعيات والتجارات وغير ذلك وجد الامر كذلك(٥٨) .

---

(٥٧) ابن تيمية — الرد على المنطقيين ص٣٤٨ — ٣٥٢ .
(٥٨) السيوطى — صون المنطق ج٢ ص١٥٥ .

ويستنتج من ذلك ان قياس التمثيل اقوى واكثر يقينا من قياس الشمول لانه بالاول يصل الى المفـردات المعينة للقضية الكلية ، ومن أعظم صفات العقل معرفة التماثل والاختلاف ، اى قياس الطرد وقياس العكس ، وهو ما استخدمه القرآن الكريم بهدف **الاعتبار** .

اولا الاعتبار :

ويمضى ابن تيمية فى الاستشهاد بالآيات القرآنيـة الدالة على ذلك ، فان ما أمر الله به من الاعتبار فى كتابه يتناول قيـاس الطـرد وقيـاس العكس ، قال تعالى (كذبت قوم نوح المرسـلين) وقال سبحانه (كذبت عاد المرسلين) ، فلما لما اهلك المكذبين للرسل بتكذيبهم ، كان من الاعتبار أن يعلم أن من فعل مثل ما فعلوا اصابه مثل ما اصابهم فيتقى تكذيب الرسل حذرا من العقوبة ، وهذا قياس الطرد . كما يعلم أن من لم يكذب الرسل لا يصيبه ذلك . ، وهـذا قيـاس العكس . ، وهـو المقصـود من الاعتبار بالمكذبين . والاعتبار يكون بهذا وبهذا ، قال تعالى (لقد كان فى قصصهم عبرة لاولى الالبـاب) يوسف ١١١ وقال (لقد كان لكم آية فى فئتين التقتا .. الى قوله ان فى ذلك لعبرة لاولى الابصار)آل عمران١٣(٥٩).

ولهذا المدلول يرى ابن تيمية ان كثرة الاشارة الى قصة موسى عليـه السلام وفرعون فى القرآن الكريم يرجع الى الاعتبار فى كل مرة تذكر فيها . انه ينكر فكرة (التكرار) فى القرآن . لأن المقصود من اعادة القصـة فى سورة وآيات متعددة هو توضيح عبرة جديدة لم يشر اليها فى موضع آخر من الكتاب . ومن هنا فليس فى القرآن تكرارا اصلا .

أما اهميـة قصـة موسى وفرعون فترجع الى انهما فى طرفى نقيض فى الحق والباطل . فان موسى عليه السلام بلغ الغاية القصوى من الايمان وكلمه الله سبحانه تكليما بلا حجاب ، بينما كفر فرعون بالربوبية وبالرسالة ،

---

(٥٩) صون المنطق جـ١ص١٥٦ .

وكان موقفه أشد انكارا من باقى المخالفين للرسل لأن اكثرهم لا يجحـــدون وجود الله (وربما يقصد هنا انهم مشركون) . كذلك لم يكن للرسل من التكليم لرب العالمين .

فصارت قصة موسى وفرعون اعظم القصص واعظمها اعتبارا لاصل الايمان ولاصل الكفر ، ولهذا كان النبى صلى الله عليه وسلم يقص على امته عامة عن بنى اسرائيل ، وكان يتأسى بموسى فى امور كثيرة ، ولما بشر بقتل ابى جهل يوم بدر قال : هذا فرعون هذه الامة)(٦٠) .

ويرى ابن تيمية ان الحقيقة المعتبرة فى كل دليـــل هو (اللزوم) ، فمن عرف ان هذا لازم لهـــذا استدل باللزوم على اللازم بغير ذكر لفظ اللزوم ولا تصور معنى هذا اللفظ لان الانسان بفطرته السوية يعـــرف أن كل شىء مصنوع لابد له من صـــانع ، وكثيرا ما يستخدم الناس أمثال هذه القضية بقولهم (ان كذا لا بد له من كذا او انه اذا كان كذا كان كذا) وبغير اســـتخدام لفظ (اللزوم) فان الصياغة نفسها تتضمن العلم باللزوم باعتباره حقيقة معتبرة . كذلك الامر فى المخلوقات ، فان كل ما فى الوجود فهو آية لله تعالى ، مفتقـــر اليه محتاج اليه ، لابد له منه ، **فيلزم من وجوده وجود الصـــانع** . والاية القرآنية الاتية واضحة الدلالة على معنى اللزوم (قال تعالى : أم خلقوا من شىء أم هم الخالقـــون) ؟ ـــ الطـــور ٥٢ ـــ ٥٣ وفى الصحيحين عن جبير بن مطعم انه لما قدم فى فداء الاسرى عام بدر سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقرأ فى المغرب بسورة (الطور) قال فلما سمعت قوله تعالى (أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون) ؟ احسسست بفؤادى يتصدع .

ولا شـك ان الاية تقسيما حاصرا بين امرين لا ثالث لهما ، فهل خلقوا من غير خالق خلقهم ؟ فهذا ممتنع بالبداهة ، أم خلقوا انفسهم ؟ فهذا اشـــد امتناعا . فعلموا أن لهم خالقا خلقهم ، وهو ســـبحانه وتعـــالى . ويمضى ابن تيمية فى شرح الاستدلال العقلى فى هذه الاية بقوله (ذكر الدليل بصيغة استفهام الانكار ليبين ان هذه القضية التى استدل بها فطرية ، بديهيـــة . مستقرة فى النفوس ، لا يمكن انكارها . فلا يمكن صحيح الفطـــرة أن يدعى

---

(٦٠) فتاوى ابن تيمية جـ١٢ ص٩ .

وجود حادث بدون محدث احدثه ، ولا يمكنه أن يقول هو أحدث نفسه)(٦١).

ـ النبــوة :

استوعب ابن تيمية آراء السابقين عليه في موضوع النبوة والبرهنة عليها ، وقد تدخل في المواد التي قرأها فأضاف اليها وعدل بعضها ، لأنه لم يوافق على ما كتبه الرازي ـ وهو اقرب المتكلمين اليه زمنا .

ويقوم برهانه على اثبات النبوة بعامة ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم ومجيئه بالقرآن عند أهل الرضى وتواتر معجزاته وأخباره . ويستدل أيضا على نبيه بنسبه المنتمى الى سلالة ابراهيم الذى جعل الله في ذريته النبوة والكتاب ، فلم يأت نبي من بعد ابراهيم الا من ذريته ، وجعل له ابنين اسماعيل واسحاق ، وذكر في التوراة هذا وهذا وهو من قريش صفوة بني ابراهيم .

وأيضا يستند الى سيرته وآياته وأخلاقه وأقواله وشريعته من حين ولد الى أن بعث ومن حين بعث الى أن مات وبتدبر نسبه وبلده وأصله .

فاذا قارن بين تواتر أخبار الفلاسفة وأخبار الانبياء ، رجح أخبار الانبياء كموسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم لأن انباءهم معلومة عند الناس من تواتر وجود أولئك فضلا عن تواتر ما يخبرون به ، ولهذا صار ظهور الانبياء مما تؤرخ به الحوادث في العالم لظهور أمرهم عند الخاصة والعامة ، فان التاريخ يكون بالحادث المشهور الذى يشترك الناس فيه ليعلموا به كم مضى قبله وبعده .

كما يفضلون من حيث أساليبهم في الاقناع والدعوة ، فيأمرون البشر بما فيه صلاحهم وينهونهم عما فيه فسادهم ، ولا يشغلونهم بالكلام في أسباب الكائنات كما يفعل الفلاسفة ، فان هذا الاسلوب كثير التعب قليل الفائدة أو موجب للضرر . ويضرب مثلا على النبي بالطبيب الذى يأمر مريضه بتناول

---

(٦١) ابن تيمية ـ الرد على المنطقيين ص ٢٥٢ ـ ٢٥٣ ، والسيوطي ـ صون المنطق جـ٢ ص١٣٠ ـ ١٣١ .

الدواء المفضى الى علاجه ، فيسسترد صحته اذا استمع لنصحه ، ولكن الفيلسوف يتجه باهتمامه الى الحديث عن أسباب المرض وصفته وذمة وذم ما أوجبه ولو سأله المريض عن الدواء الشاق لعجز عن الاجابة .

وقد يثار حول من لم تبلغهم الرسالات العصور السماوية ، أو من لم تقم عليه الحجة فى الدنيا بالرسالة كالاطفال والمجانين وأهل الفترات الخالية من الانبياء والرسل — وهنا : يختار من الاقوال أرجحها ، وخلاصتها ان هؤلاء يمتحنون يوم القيامة فيبعث اليهم من يأمرهم بطاعته ، فان أطاعوه استحقوا الثواب وان عصوه استحقوا العقاب . أما الحجة بالقرآن فقد قامت على من بلغه كما قال تعالى (لأنذركم به من بلغ) فمن بلغه بعض القرآن دون بعض قامت عليه الحجة فيما بلغه دون ما لم يبلغه .

كما تظهر وظيفة الانبياء — أو دورهم ، ومهامهم — فى كونهم وسائط بين الله وبين عباده فى تبليغ أمره ونهيه ووعده ووعيده ، وما أخبر به عن نفسه وملائكته وغير ذلك مما كان ويكون .

وتفصح الآيات القرآنية عن الرسول بأنه لا يعلم الغيب وانه ليس ملكا يملك الخزائن ، وانما هو بشر لا يستغنى عن المأكل والمشرب .

ولابن تيمية كتاب النبوات عالج فيه الموضوع باستفاضة ، كما أشار فى كتب كثيرة ربما أكثرها استفاضة (الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح) اذ عرض فيه لادلة وبراهين نبوة محمد صلى الله عليه وسلم،ومنها الادلة العقلية التى استخدمها هرقل ملك الروم ، اذ سأل أبا سفيان قبل اسلامه (كيف نسبه فيكم ؟ قال قال هو فينا ذو نسب قال فهل قال هذا القول منكم احد قبله قط ؟ قال : لا قال فهل كان من آبائه من ملك ؟ قال — لا قال — فأشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم قال بل ضعفاؤهم فقال أيزيدون امينتقصون؟قال بل يزيدون قال فهل يرتد منهم احد سخطة لدينه بعد يدخل فيه؟قال لا قال فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال قال — لا قال فهل يغدر قال لا ، قال فهل قاتلتموه ؟ قال نعم قال فكيف كان قتالكم اياه قال الحرب بيننا وبينه سجال ينال منا وننال منه قال — فبماذا يأمركم قال — يقول اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئا واتركوا ما يقول آباؤكم ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة) .

ومن هذه الاجابات كلها تأكد هرقل من نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم وفسر اجابات أبي سفيان بالآتي (أن الرسل تبعث في احساب قومها ولو كان من آبائه ملك قلت رجل يطلب ملك ابيه والضعفاء هم اتباع الرسل وانه لم يكن ليدع الكذب على الناس ثم يكذب على اللـــه وساتدل من عدم ارتداد اتباعه عن دينه لأن الايمـــان اذا خالطت بشاشته القلـــوب وانهم يزيدون — فكذلك الايمان حتى يتم ومن الحرب الدائرة بينه وبين قومه وأنها سجال ينالون منه وينــال منهم دلت على أن الرســل يبتلون ثم تكون لهم العاقبة الى جانب انه لا يغدر ولم يسبقه أحد قبله بقوله — وكذلك أوامره بعبادة الله تعالى اى الصلاة والزكاة والعفاف . قال هرقل في النهاية (ان يكن ما تقول فيه حقا انه لنبي وقد أعلم انه خارج ولم أكن اظنه منكم ولو اعلم انى أخلص اليه لاحببت لقــاءه ولو كانت عنــده لغسلت عن قدميه وليبلغن ملكه ما تحت قدمي(٦٢) .

براءة ابن تيمية من تهمة التجسيم :

بحثنا فيما تقدم موضوع الصفات ورأينا ابن تيمية يسلك مسلكا سلفيا : ولا يمل من ترديد العبارات التي ينقلها عن السابقين حيث اتفق أهل السنة والجماعة على الايمان (بما اخبر الله في كتابه من غير تحريف ولا تعطيل ؛ ومن غير تكييف ولاتمثيل بل هم الوسط في فرق الامة كما ان الامة هي الوسط في الامم ، فهم وسط في باب صفات الله سبحانه وتعالى بين أهل التعطيل الجهمية ، واهل التمثيل)(٦٣) .

وفي اثناء مناظرته في (العقيـــدة الواسطية) التي نوقش في مضمونها امام الحاضرين يخبرنا ابن تيمية عن اهم النقاط التي اثاروها فيقول (واخذوا يذكرون نفي التشبيه والتجسيم ويطنبون في هذا ، ويعرضون بما ينسبه بعض الناس الينا من ذلك)(٦٤) .

---

(٦٢) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح جا ص ٩٣ — ٩٤ و ج٤ ص٣١٦ .

(٦٣) مجموعة الرسائل جا ص٤٠٠ .

(٦٤) ن . م ص٤١٦ .

فالشـــيخ اذن كان على علم بما وصفوه به من تهمة التجسيم ، وفى الدفاع عن نفسه اورد اقوال اصحاب القرون الثلاثة الاولى وكلها تؤيدها ما ذهب اليه وابدى استعداده لامهال من خالفه ثلاث سنين ليأتى ولو بحرف واحد مما ذكره ، وهو على استعداد للرجوع عن عقيدته لو فعل . ثم نفى التشبيه والتجسيم عن اصحاب احمد . وصاح فى وجه مخالفه لكى يحدد له من يقصد من الحشوية من اصحاب الامام على وجه التحديد (الاثر م٢٧٣هـ ابو داود ٢٧٥هـ الخـــلال ٣١١هـ الترمذى ٢٧٩هـ ابو الحســـن التميمى ابن عقيل ٥١٣هـ النقاش ابو يعلى ٤٥٨ ؟!!

ويبدو ان مخالفه لم يحر جوابا لان ابن تيمية دافع بحرارة عن شيوخ الحنابلة مبرئا اياهم من التجسيم . واذا وجد فى القلة منهم ، فان المشبهة والمجسمة فى غير اصحاب الامام احمد اكثر منهم فيهم (فهؤلاء اصناف الاكراد كلهم شافعية . وفيهم من التشبيه والتجسيم ما لا يوجد فى صنف آخر ، واهل جيلان فيهم شافعية وحنبلية ، واما الحنابلة المحضة فليس فيهم من ذلك ما فى غيرهم ، والكرامية المجسمة كلهم حنفية)(٦٥) .

وقد اتهم الشيخ بانه وقع فى التجسيم ، بينما هو فى الحقيقة قد اعاد الى العقيدة السلفية المتوارثة بواسطة كتب شيوخ المدرسة ، وهى العقيدة المتلقاة منذ الصدر الاول للاسلام جيلا بعد جيــل وقد اثارت هذه التهمــة من الجدل قديما وحديثا . وسنتناولها بايجاز لما لها من صلة بحيــاة الشيخ من جهـــة . فضــلا عن انهـا من الموضـــوعات التى مازلت تثير كثـــيرا من الجدل .

ولا شك ان من يقرأ كتب الشيخ ورسائله المتعددة ، سرعان ما يتضح له براءته مما يلصق به ، والادلة كثيرة ومتنوعة ، سواء من كلمـــاته التى نقرأها له فى كتبه نفسها ـــ فضلا عن المصادر التى تجل عن الحصر فى هذا المقام ، والتى تجمع كلها على ان ائمة المسلمين منذ الصحابة والتـــابعين قد تلقوا هذه العقيدة بالقبول ، وهى اثبات الصفات التى اثبتها الله تعالى لنفسه

---

(٦٥) ابن تيمية ،مجموعة الرسائل الكبرى ج١ ص٤١٨ .

بلا تمثيل او تعطيل أو تأويل ، ونفى ما نفــاه عن نفسـه ، مستندين فى ذلك الى الآيات والاحاديث .

وقد نوقش ابن تيمية فى قوله بأن الله تعـالى مستو على العـرش حقيقة بذاته بلا تكييف ولا تشبيه ، وجاء ضمن حججه المؤيدة له قوله (أنا قد أحضرت اكثر من خمسين كتابا من كتب أهل الحديث والتصوف والمتكلمين والفقهاء الاربعة والحنفية والمالكيـة والشافعية والحنبلية يوافق ما قلته . وأنا أمهل من خالفنى ثلاث سنين أن يجيىء بحرف واحد عن ائمة الاســلام يخالف ما قلته)(٦٦) .

ودافع عن نفسه بقوله ايضا (انى لم أقل شيئا من نفسى ، وانما قلت ما اتفق عليه سلف الامة وأئمتها) .

أما القول المنسوب اليه بواسطة ابن بطوطة وقوله (ان اللــه ينزل الى سماء الدنيا كنزولى هذا ، ونزل درجة(٦٧) .
فقد اثبت التحقيق العلمى الدقيق انه محض افتراء ، وهو يرجع اولا الى انه نوع من حديث القصاصين والرواة الذين يطلقون الروايات على عواهنهـا دون تحقيق أو ضبط ، فضلا عما اثبته الشيخ محمد بهجة البيطار فى كتـابه (حياة شيخ الاسلام ابن تيمية) من تهافت هذه الواقعـة وعدم صحتها ، لعدة اسباب ، **منها ان ابن بطوطة لم يسمع من ابن تيمية ولم يجتمـع به** ، ومرجحا ان نصرا المنبجى هو الذى اشاع مسألة النزول من الدرج (ينظـر كتاب البيطار من ص ٤٦ الى ص ٥٣) . كذلك ينظر مقدمة كتاب (مجموعة تفسير شيخ الاسلام ابن تيمية) بقلم عبد الصمد شرف الدين طبعة الهنـد (بمباى) .

ومن حيث المضمون ، فان مؤلفات الشيخ بين ايدينا ، وهى مع كثرتها خالية من أى بادرة تشير الى التشبيه أو التجسيم ، بل انه يحـرص فى كل

---

(٦٦) « ص٥٥ من كتاب محنة شيخ الاسلام ابن تيمية فى سجنه ودفاعه عن نفسه » مجموعة علمية بتحقيق الشيخ محمد حامد الفقى .
(٦٧) ص ٥٧ من رحلة ابن بطوطة ج١ الطبعة الازهرية ، طبعة أولى

المواضع على تأكيد التنزيه . واثبات الصفات بلا كيف . وكيف يتهم الشيخ بالتجسيم وهو نفسه يرى ان (لفظ الجسم ، والجوهر ، ونحوهما لم يأت فى كتاب الله ولا سنة رسوله ، ولا كلام احد من الصحابة والتابعين لهم باحسان الى يوم الدين وسائر ائمة المسلمين — التكلم فى حق الله تعالى لا بنفى ولا باثبات(٦٨) .

ويحلل ابن تيمية اقوال المعتزلة مفندا لها ناقدا اياها ، حيث ينبه الى العبارات المجملة التى يستخدمونها ويوهمون بها انه يريد تنزيه الله تعالى من صفات المخلوقين بينما الفاحص لحقيقة اقوالهم يصل الى فهم مقصودهم بنفى صفات الله تعالى قال : وهذه المسألة كانت المعتزلة تلقبها بمسألة (**حلول الحوادث**) وكانت المعتزلة تقول (ان الله منزه عن الاعراض والابعاض والحوادث والحدود ، ومقصودهم نفى الصفات ونفى الافعال ، ونفى مباينته للخلق وعلوه على العرش، وكانوا يعبرون عن مذاهب أهل الاثبات أهل السنة بالعبارات المجملة التى تشعر الناس بفساد المذهب ، فانهم اذا قالوا (ان الله منزه عن الاعراض) لم يكن فى ظاهر هذه العبارة ما ينكر ، لان الناس يفهمون من ذلك انه منزه عن الاستحالة والفساد كالاعراض التى تعرض لبنى آدم من الامراض والاسقام ، ولا ريب أن الله منزه عن ذلك ، ولكن مقصودهم انه ليس له علم ولا قدرة ولا حياة ولا كلام قائم به ، ولا غير ذلك من الصفات التى يسمونها هم أعراضا .

وكذلك اذا قالوا ان الله منزه عن الحدود والاحياز والجهات) أوهموا الناس أن مقصودهم بذلك انه لا تحصره المخلوقات ، ولا تحوزه المصنوعات ، وهذا المعنى صحيح ومقصودهم انه ليس مباينا للخلق ولا منفصلا عنه ، وانه ليس فوق السموات رب ، ولا على العرش اله ، وان محمدا — صلى الله عليه وسلم — لم يعرج به اليه ، ولم ينزل منه شىء ولا يصعد اليه

---

(٦٨) ص٣١٣ من مجموع فتاوى شيخ الاسلام جـ١٧ وينظر ايضا على سبيل المثال مقالته بعنوان (الرد على القائلين بأن الله — عز وجل — جسم) الرد على المنطقيين ص٢٢٤ .

شيء ، ولا يتقرب الى شيء ، ولا ترفع اليه الايدى فى الدعاء ولا غيره ، ونحو ذلك من معانى الجهمية)(٦٩) .

ويتضح من هذا التحليل المقارن فهم ابن تيمية للالزامات التى تؤدى أنيها نفى صفات الله تعالى ، ومعرفته بأن الاصل الجهمى الذى اخذ به المعتزلة وغيرهم هو ما يسمونه بمسألة (حلول الحوادث فى ذات الله تعالى) ، ومحاولتهم ارغام مخالفيهم بالقول بأقوالهم والا اتهموهم بالتشبيه والتجسيم .

ونظرا لترابط النتائج التى حاول بها المعتزلة ومن سار على طريقهم ، فان مسألة (التجسيم) تتصل أيضا بهذا الاصل المأخوذ من جهم بن صفوان . وهنا يقول ابن تيمية :

(واذا قالوا (انه ليس بجسم) أوهموا الناس أنه ليس من جنس المخلوقات ، ولا مثل ابدان الخلق ، **وهذا المعنى صحيح** ، ولكن مقصودهم بذلك انه لا يرى ولا يتكلم بنفسه ، ولا يقوم به صفة ولا هو مباين للخلق ، وأمثال ذلك .

واذا قالوا (لا تحله الحوادث) أوهموا الناس أن مرادهم انه لا يكون محلا للتغيرات والاستحالات ونحو ذلك من الاحداث التى تحدث للمخلوقين فتحيلهم وتفسدهم ، وهذا معنى صحيح ولكن مقصودهم بذلك انه ليس له فعل اختيارى يقوم بنفسه ، ولا له كلام فعل يقوم به يتعلق بمشيئته وقدرته ، وأنه لا يقدر على استواء أو نزول أو اتيان أو مجيء ، وأن المخلوقات التى خلقها لم يكن منه عند خلقها فعل اصلا ، بل عين المخلوقات هى الفعل ، ليس هناك فعل ومفعول وخلق ومخلوق ، بل المخلوق عين الخلق ، والمفعول عين الفعل ، ونحو ذلك)(٧٠) .

أما اذا قيل بأن اعتقاد الشيخ بجواز حلول الحوادث فى الذات الالهية يؤدى الى التجسيم ، فان هذا من نوع الالزام الذى لا يسلم به ابن تيمية

---

(٦٩) ابن تيمية موافقة .. جـ٢ ص٧ .
(٧٠) نفس المصدر ص٨ .

وقد كتب مئات الصفحات لينقد الاصل الجهمي الذى يستند اليـــه المتكلمون بقولهم أن (ما لا يخلو من الحوادث فهو حادث) ، لاثبات حدوث الاجسام باعتبار أن الصفات اعراض وبهذه الطريقة نفوا صفات الله تعالى .

وقد أسهب الشيخ فى كتبه ومناقشاته فى بيان خطأ هذا الاصل . كمـا أنه صرح فى أكثر من موضع أن صفات الله تعالى ليست أعراضـا وليست حادثة .

واذا ذهبنا نستقصى النصوص النافية لهذه التهمه عن الشيخ لما كفانا هذا الكتاب بأكمله ، ولكننا سنختار بضعة أقوال للشيخ تفيـد القارىء فى أجتثاث تهمة التجسيم من جذورها ، فانه يقول مرة (وما ذكرت من اجتهـاد الرأى فى تكييف صفات الله ، فانا لا نجيز اجتهاد الرأى فى كثير من الفرائض والاحكام التى نراها بأعيننا ، ونسمعها بآذاننا ، فكيف فى صفات الله التى لم ترها العيون وقصرت منها الظنون ؟!! غير انا لا نقول فيهـا كمـا قال المريسى ان هذه الصفات كلها شىء واحد)(٧١) .

كذلك خصص الشيخ كتابا بأكمله شـارحا ومفنـدا اقوال المذاهب والفروق جميعا سماه (شرح حديث النزول) ، قال فيه بالحـرف الواحد (والذى يجب القطع به ان الله ليس كمثله شىء فى جميع ما يصف به نفسـه ، فمن وصفه بمثل صفات المخلوقين فى شىء من الاشياء **فهو مخطىء قطعـا ، كمن قال : انه ينزل فيتحرك وينتقل كما ينزل الانسان من السطح الى أسفل الدار** ، فهذا باطل يجب تنزيه الرب عنه كما تقدم . وهذا هو الذى تقـوم على نفيه وتنزيه الرب منه الادلة الشرعية والعقلية ، فان الله سـبحانه وتعالى قد أخبر انه الاعلى وقال (سبح أسم ربك الاعلى) ، فان كان لفظ العلو لا يقتضى علو ذاته فوق العرش لم يلزم ان يكون على العرش وحينئذ **فلفظ النزول ونحوه يتناول قطعا** اذ ليس هناك شىء يتصور فيه النزول ، وان كان لفظ العلو يقتضى علو ذاته فوق العرش ، فهو سبحانه الاعلى من كل شىء ، كما أنه أكبر من كل شىء(٧٢) .

---

(٧١) ابن تيمية ـــ شرح العقيدة الاصفهانية ص٢٥ .
(٧٢) شرح حديث النزول ص١٨٩ .

وليس هناك أوضح وادق واصرح من هذا البيان للدفاع من شيخ الاسلام وتبرئته من تهمة التجسيم .

ونرى بعد ذلك استكمال الحديث من المنهج الذى عاش ابن تيمية من اجل توضيحه ولفت الانظار اليه وحث المسلمين — خاصتهم وعامتهم — الى اتباعه والاستضاءة به اذ أن العلاقة بين أجتهادات شيخ الاسلام وبين قضايا أصول الدين لم تنقطع بموته ، فهى تمتد لكل الاعصار لأن محورها يتمثل فى أهم قضية للانسان ويترتب عليها النتيجة الحاسمة فى مصيره ، أى قضية الايمان بالله تعالى وعبادته والايمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والبعث والحساب والعقاب والملائكة وغيرها من كائنات عالم الغيب وحقائقه حيث لا تكتمل المعرفة الانسانية الحقة الا بعد الاحاطة بها مقترنة بالعبادة والاستسلام لله تعالى وحده .

ولهذا فان دراسة أجتهادات شيخنا تصبح متجددة أبدا لأنها تتصل باهم ما ينبغى أن يشغل الانسان اذا ما تطلع الى مبدئه ومعاده وسبل تحقيق سعادته .

وكان من دواعى اطمئنان ابن تيمية ويقينه — بل تفاؤله رغم العوامل التى عاشها وكانت مثبطة للهمم ، أن الاسلام يحمل فى ذاته بعناية الله تعالى وحفظه وظهوره الى قيام الساعة . قال الشيخ (وذلك ان الله تبارك وتعالى اكمل الدين بمحمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين ، وبينه وبلغه البلاغ المبين ، فلا تحتاج أمته الى أحد بعده يغير شيئا من دينه ، وانما تحتاج الى معرفة دينه الذى بعث به فقط ، وأمته لا تجتمع على ضلالة ، بل لايزال فى أمته طائفة قائمة بالحق حتى تقوم الساعة فان الله ارسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله فاظهره بالحجة والبيان واظهره باليد واللسان . ولايزال فى أمته أمة ظاهرة وهذا حتى تقوم الساعة(٧٣) .

---

(٧٣) ابن تيمية — الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح جـ١ ص١٢٤ مطبعة المدنى .

وكل ما تحتاجه الامة الان ، هو معرفة الدين بالمنهج الذى وضعه الله تعالى فى كتابه وبالهدى النبوى الحق ، وصحة المنهج ليست مرتبطة بعصر من العصور أو بمصر من الامصار ، بل صحته ثمرة أصوله ويقينية براهينه ؛ وما على المسلمين الا اتباعه .

وسننظر فى الباب القادم ، كيف وقف هذا المنهج شامخا ثابتا لمواجهة التحديات .

الباب السابع

القضايا الكلامية في العصر الحاضر

ـ المشكلات الكلامية في ضوء التفسير التاريخي .

ـ مسائل الاجماع في العقيدة والعبادات .

ـ الالتقاء بالغرب وآثاره على القضايا الكلامية .

ـ ما هي الحضارة ؟

ـ صلة العلم بالدين في العصر الحديث (أو العلاقة بين المادة والروح) .

ـ المشكلات الكلامية الطائفية في العصر الحديث .

ـ ملامح الفكر الاسلامي المعاصر .

ـ الاسلام والعلم .

المشكلات الكلامية فى ضوء التفسير التاريخى :

كانت الموضوعات الآنفة من هذه الدراسة بمثابة ايضاح للمنهج الذى استخدمه الاوائل والسائرون على طريقتهم ، وقد رأينا كيف اتخذ علماء السلف من القرآن والسنة سلاحا لحماية العقيدة ، واثبتوا أن هذا المنهج أفضل وأحكم من منهج المتكلمين .

ولكن بعد انقضاء القرون ، وابتلاء الامة الاسلامية بمحن وتجارب استهلكت طاقات ضخمة من قواها البشرية والاقتصادية والعسكرية ، وتراوحت خلالها مكانتها الحضارية — التى احتلتها من جدارة طيلة عدة قرون — بين مد وجزر ، ثم تحطم أخيرا — فى بداية القرن الحالى فقط — كيان دولتها بالغاء الخلافة ، وأصبحنا الآن ، ربما أكثر اقتناعا من أى وقت مضى بمخاطر الخلافات وتصارع الفرق الاسلامية وتشتت الجهود وبعثرة القدرات .

وبسبب الثغرات الخلافية الجسيمة ضاعت الاندلس وتسللت الشيعة الباطنية الى حكم مصر والمغرب والشام والبحرين ، وسقطت بغداد تحت سنابك خيل التتار عام ٦٥٦هـ ، ثم كانت الخاتمة — لهذا السبب ولغيره من الاسباب — نجاح الاستعمار الغربى فى أواخر القرن السادس عشر فى عقد الانشوطة حول المسلمين — كما يذكر ارنولدتوينبى — وذلك بفضل غزوه للمحيط ، وبعدها ضيق الغرب الانشوطة فى القرن التاسع عشر(١)

فاذا انصتنا الى صوت آخر ، ارتفع من وراء القرن الثامن الهجرى — وهو ابن تيمية — وجدناه يبرهن فى ايجاز على أن العقيدة المتلقاة عن الاوائل فى شمولها وكمالها ، انتجت اجيالا مؤمنة دافعت عنها ومضت عليها بالنواجذ ، وظهر السر فى استمساك أهل السنة والجماعة بها أنهم عرفوا أنها المعبرة عن صدق العقيدة المتلقاة من الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكل انحراف

---

(١) ارنولد توينبى : الاسلام .. والغرب .. والمستقبل ص١٩ ط دار العربية — بيروت ١٣٨٩هـ — ١٩٦٩ م .

منها او ميل بها ذات اليمين او ذات اليسار ، سيفقدها قوتها في القلوب والصدور ، فضلا من انحرافها عن اصول الايمان والاسلام الصحيح .

والتطبيق التاريخي لهذه القاعدة يوضح انتصار المسلمين عندما كانت غالبيتهم مستمسكة بهذه الاصول ، وبالعكس انهزامهم وانحدار حضــــارتهم عندما تفشت العقائد الزائفة .

ولتقريب المعنى الى اجيالنا الشابة ، فان العقيدة هي حجر الزاوية وقطب الروحي لحضارة الاسلام ، شأنها في ذلك شأن الايدولوجية في العصر الحديث ، فان عقيدة المسلمين هي (ايدلوجيتهم بالاصطلاح الغربي) الثابتة الدائمة ، بها سادوا ، وبها اقاموا حضارة انارت العالم ، وســـارت معهم ابنما كانوا في عصور مجدهم وانتصاراتهم ، وعندما انحرفوا عنها وتركوها وراء ظهورهم انطفـــأ نور الحضـــارة ، وتقهقروا الى الوراء ، وذلوا امام غيرهم .

وكانت هذه الظاهرة تتدرج على مراحل للمتتبع لتاريخ المسلمين . يقول ابن تيمية (ونجد الاسلام والايمان كلما ظهر وقوى كانت السنة واهلها اظهر واقوى ، وان ظهر شيء من الكفر والنفاق ظهرت البدع بحسب ذلك ، مثل دولة المهدي والرشيد ونحوهما ممن كان يعظم الاسلام والايمان ويغزو اعداءه من الكفار والمنافقين ، كان اهل السنة في تلك الايام اقوى واكثر واهل البدع اذل واقل(٢) .

ويمثـــل هذه القاعدة ينتقل الى النظر الى تاريخ المسلمين بصـــامة ، فيبرهن ابن تيمية على ان اتبـــاع محمد صلى الله عليـــه وسلم ادعى للعلم والتوحيد والسعادة . ويعني بذلك المقارنة بين اصحابه والتابعين لهم ، وبين

---

(٢) ابن تيمية ـــ نقض المنطق ص١٨ ـــ ١٩ .
وفي منهـــاج السنة جـ٢ ص١٤٩ يقـــول (فان الكفـــار بالشام وخراسان طمعوا وقت الفتنة في بلاد المسلمين لاشتغال المسلمين بعضهم ببعض) .
وينظر تفسيره التاريخي بكتابنـــا (قواعد المنهـــج السلفي في الفكر الاسلامي ص١٢) ط دار الانصار ١٣٩٦هـ ـــ ١٩٧٦م .

المتكلمين وفلاسفة المسلمين ، ويقف أمام الاحداث التاريخية فيعللها بسبب مخالفة الاصول الاسلامية فى القرآن والحديث ، فيرى ان انقراض دولة بنى امية كان بسبب الجعــد بن درهم والجهم بن صفوان ، الى جانب أسباب اخرى اوجبت ادبارها .

ويعنى بذلك ان العقيدة عندما خمدت فى النفوس وفقدت فاعليتها عما كانت لدى المسلمين الاوائل ، ظهر الضعف فى الامة . اذ تحولت العقيــدة الراسخة من قوة محركة ناجمة عن اقتناع عقلى ويقين قلبى الى مجرد افكار جدلية تتطاول الى الحديث عن الذات الالهية ، ففقدت القلوب الهيبة . ولما تضاءلت العقيدة فى النفوس واصابها الوهن ، وتحولت الى مناقشات وجدل كلامى وفلسفى ، وظهر النفــاق والبدع والفجــور : هان المسلمون على اعدائهم ، فغزى الصليبيون أراضى الاسلام ، واستولوا على بيت المقدس فى اواخر المائة الرابعة(٣) وكذلك الامر بالنسبة لحــروب التتــار ، حتى أن البعض راى ان هولاكو ملك التتار بمثابة بخت نصر لبنى اسرائيل ، مستندين الى تفسير سورة بنى اسرائيل التى توعدهم فيها الله تعالى اذا افســدوا فى الارض(٤) .

ويمضى شيخ الاسلام فى تفسير الاحداث التاريخية وفقا لهذه القاعدة ، فيذكر ان محنة خلق القرآن كانت بداية لتشجيع القرامطة الباطنية فى اظهار آرائهم ، بعد ترجمة كتب الفلسفة ، ولما رأت الفلاســفة ان المنسوب الى الرسول صلى الله عليه وسلم وأهل بيتــه هو هذا القــول الذى يقــوله المتكلمون الجهمية ومن اتبعهم ، ورأوا ان هذا القول الذى يقولونه فاســد من جهة العقل ، طمعــوا فى تغيير الملة ، فمنهم من اظهــر انكار الصانع ، واظهر الكفر الصحيح ، وقاتلوا المسلمين ، واخذ قرامطة البحرين الحجــر الاسود(٥) ، ولم يقتصر الامر على انتصار الخصــوم فى مجال الحــروب فحسب ، بل امتد الخطب الى مجال الفكرة والعقيدة ، لأن فتح باب القياس الفاسد فى العقليات بواسطة المتكلمين ، شجع الزنادقة على المضى فى تنفيذ

---

(٣) الفرقان بين الحق والباطل ١٢٠ — ١٢٢ .
(٤) ن . ص١٢٠ — ١٢١ .
(٥) شرح حديث النزول ص١٧٣ .

مخططاتهم ، فانتهى بالقرامطة الى ابطال الشرائع المعلومة كلها ، كما قال لهم رئيسهم بالشام : قد اسقطنا عنكم العبادات فلا صوم ولا صلاة ولا حج ولا زكاة(٦) .

وقبل الانتهاء من هذه اللمحة لموقف ابن تيمية من التاريخ ، فاننا نعجب من تفاؤله بينما كان فى وسط ظروف حالكة الظلام ، ومع هذا فانه يقدم تفسيرا لحديث (ان الله يبعث لهـذه الامة فى راس كل مائة سنة من يجـدد لهـا دينها) ، فالتجديد انما يكون بعد الدروس ، وذاك هو غربة الاسـلام ، ثم يحاول ادخال الطمأنينة على القلوب بقوله (وهذا الحديث يفيد المسلم انه لا يغتم بقلة من يعرف حقيقة الاسلام ، ولا يضيق صدره بذلك ، ولا يكون فى شك من دين الاسلام ، كما كان الامر حين بدا ، قال تعـالى « فان كنت فى شك مما انزلنا اليك فاسال الذين يقراون الكتاب من قبلك » الى غير ذلك من الايات والبراهين الدالة على صحة الاسلام(٧) . ولكنه فى الوقت نفسـه يحذر من مخالفة الاوامر الالهيـة ، لان الذنوب تورث الهـزائم والكوارث للمسلمين ، كالهزيمة التى اصابتهم يوم أحد .

وهكذا يعود بنا الى نفس الاصـل الذى يفسر به التـاريخ ، ويعلل المقصود بقصص بنى اسرائيل فى القـرآن اتخـاذهم عبرة لنا ، مستشهدا ببعض السلف القائلين (ان بنى اسرائيل ذهبوا وانما يعنى انتم) .

مسائل الاجماع فى العقيدة والعبادات :

وفى ضوء هذه التفسيرات التاريخية والعبرة مما حدث ، فان الحكمة تقتضى التخفيف من غلواء التفرق ، مع تلمس مسائل الاجماع بين المسلمين لان الاحوال المعاصرة تجعـل من الاستمرار فى بث الفـرقة لونا من الوان التدمير العقائدى والحضارى للمسلمين كافة .

وقد راينا خلال البحث نتائج بارزة تثبت من ناحية ما يلى :

---

(٦) ن . م ص١٦٩ (وينظر ايضا ص ١٦٣ و ١٦٥) .

(٧) مجموع فتاوى شيخ الاسلام جـ١٨ ص٢٩٨ — ٢٩٩ ط الرياض . ومن الامثال السائرة (اياك اعنى واسمعى يا جارة) .

أولا : عودة أئمة الاشاعرة الى المنهج السلفى بعد المعاناة الطويلة فى طريق التأويل الكلامى .

ثانيا : اجماعهم — بالاتفاق مع علماء السنة والحديث — على أن أدلة الشرع متوافقة مع قوانين العقل وموازينه ، ومن ثم أصبح ضروريا جمع المسلمين حول المادة العظمى : كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

ومن ناحية أخرى ، نود فى ختام هذا البحث اضافة أكثر العوامل أهمية ، وأبرزه والالتفاف حوله ، ونعنى به عناصر الوحدة التى تجمع بين المسلمين قاطبة ، لأن تحليل عناصرها يثبت أنها تفوق أسباب الخلاف والفرقة .

أضف الى ذلك أن المشكلات الكلامية المثارة فى الماضى نشأت عن أسباب وعوامل نبعت من البيئة الثقافية حينذاك ، وقد قتلت بحثا وتحليلا ومناقشة وظهر فيها الحق بين المذاهب والفرق ، وربما كانت محتملة عندما كانت الحضارة الاسلامية سائدة ،

أما وقد آل الحال الى ما نحن عليه ، فلم يعد من المحتمل اثارة هذه المشكلات من جديد .

وقد سبقنا علماء الحديث والسنة الى توجيهنا الى هذا الاصل الجامع ، منهم ابن حزم بكتابه (مراتب الاجماع فى العبارات والمعاملات والاعتقادات) وعنوانه يشير الى مضمونه ، يعنينا ما سجله فى باب الاعتقادات ، قال :

(اتفقوا أن الله عز وجل وحده لا شريك له خالق كل شىء غيره ، وأنه تعالى لم يزل وحده ولا شىء غيره معه ، ثم خلق الاشياء كلها كما شاء ، وأن النفس مخلوقة ، والعرش مخلوق ، والعالم كله مخلوق ، وأن النبوة حق ، وانه كان أنبياء كثير منهم من سمى الله تعالى فى القرآن ومنهم من لم يسم لنا ، وأن محمد بن عبد الله القرشى الهاشمى المبعوث بمكة المهاجر الى الى المدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم الى جميع الجن والانس الى يوم القيامة .

وان دين الاسلام هو الدين الذى لا دين لله فى الارض سواه ، وانه ناسخ لجميع الاديان قبله ، وانه لا ينسخه دين بعده ابدا ، وان من خالفه ممن بلغه كافر مخلد فى النار ابدا ، وان الجنة حق وانها دار نعيم ابدا لا تفنى ولا يفنى أهلها بلا نهاية ، وانها اعدت للمسلمين والنبيين المتقدمين واتباعهم على حقيقة ما اتوا به قبل أن ينسخ الله تعالى اديانهم بدين الاسلام .

وان القرآن المتلو الذى فى المصاحف بايدى النـاس فى شرق الارض وغربها من أول (الحمد لله رب العالمين) الى آخر (قل أعوذ برب الناس) هو كلام الله عز وجل ووحيه انزله على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم مختارا له من بين النـاس وانه لا نبى مع محمد صلى الله عليه وسلم ولا بعده ابدا .

الى أن يقول (واتفقوا انه منذ مات النبى صلى الله عليه وسلم فقد انقطع الوحى وكمل الدين واستقر وانه لا يحل لاحد ان يزيد شيئا من رأيه بغير استدلال منه ، ولا أن ينقص منه شيئا ولا ان يبدل شيئا مكان شىء ولا أن يحدث شريعة ، وان من فعل ذلك كافر ، واتفقوا أن كلام رسول اللـه صلى الله عليه وسلم اذا صح انه كلام بيقين فواجب اتباعه ...)(٨) .

وكذلك العبادات ، هنـاك اجماع فى أمور رئيسية لخصها ابن تيميـة كما يلى :

وذلك مثل اجماعهم على أن محمدا صلى الله عليه وسلم ارسل الى جميع الامم ، وكذلك اجماعهم على استقبال الكعبة البيت الحرام فى صلاتهم .. وكذلك الاجماع على وجوب الصلوات الخمس وصوم شهر رمضان وحج البيت العتيق ، اجماعهم على وجوب الاغتسال من الجنابة وتحريم الخبائث وايجاب الطهارة للصلاة ، فان هذا كله مما نقلوه عن نبيهم ، وهو منقـول عنه صلى الله عليه وسلم نقلا متواترا ، وهو مذكور فى القرآن)(٩) .

---

(٨) ابن حزم — مراتب الاجماع فى العبادات والمعاملات والاعتقـادات ص١٦٧ — ١٧٥ باختصار ط دار الكتب العلمية — بيروت .

(٩) ابن تيمية : الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ج١ ص١٢٤ — ١٢٥ ط المدنى — بدون تاريخ .

لذلك ينبغى أن تخف أصوات الخلافات ويجتمع المسلمون على مادة الاسلام العظمى : كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم والاسترشاد باجتهادات علماء الحديث والسنة ، لاسيما وقد جدت تحديات فى هذا العصر تقتضى منهم الوقوف جبهة واحدة .

ولما كانت حضارة العصر الغالبة هى الحضارة الغربية ، فيجدر الاشارة باختصار الى اثر الالتقاء بها فى محيط المشكلات الكلامية .

فكيف حدث الالتقاء ؟ وما هى آثاره فى الماضى والحاضر ؟

الالتقاء بالغرب وآثاره على القضايا الكلامية :

يحدد توينبى اللقاء الاول بين الاسلام فى الماضى عندما كان المجتمع الغربى فى دور طفولته بينما كان الاسلام الدين المميز للعرب فى عصرهم البطولى ، وكان العرب قد فرغوا من فتح وتوحيد البلاد التى كانت مهد الحضارات القديمة فى الشرق الاوسط ، وكانوا يحاولون توسيع هذه الامبراطورية — كما يراها — لتصبح دولة عالمية ، وينتهى المؤرخ الانجليزى الكبير الى التقرير بأنه فى هذا اللقاء الاول اكتسح المسلمون نصف المجتمع الغربى تقريبا وكادوا يفرضون سيادتهم على البلاد الغربية كلها(١٠) .

وفى التنابذ والمعارضة لآثار اليونان الفلسفية ، ظهرت المعارضة الشديدة بواسطة علماء السنة والجماعة ، وربما شكلت آثار المعارضة للفلسفة اليونانية آثارها فى صفحات الكتب وكانت احد عوامل ظهور الافكار والاصطلاحات المترجمة كالجوهر الفرد والحدوث والقدم ، فضلا عن آثار المنطق الارسططاليسى وردود الفعل الذى احدثه بين الآخذين به كالغزالى وغيره من بعض علماء اصول الفقه ، والمعارضين له كابن تيمية ومن سبقه من علماء السنة والحديث الذين اعلنوا (أنه من تمنطق تزندق) .

وبوجه عام ، كان التنافر بين العقيدة الاسلامية والفلسفة معبرا عن اختلاف بين حضارتين . يقول الاستاذ الدكتور عبد الرحمن بدوى (واذا رأينا الاتجاه العام لروح الحضارة الاسلامية ينفر نفورا شديدا من للتراث

---

(١٠) آرنولدتوينبى — الاسلام .. والغرب .. والمستقبل ط دار العربية بيروت ١٣٨٩هـ — ١٩٦٩م ص١٩،١٢ .

اليونانى فيحمل عليه حملة عنيفة شعواء هى رد فعل قوى لهذه الروح ضد روح حضارة اخرى ، شعرت بما بينها وبينها من تباين يكاد يصل الى حد التناقض)(١١) .

وفى ضوء هذا التحليل الدقيق ، تزداد معرفتنا لاسباب معارضة علماء السنة والجماعة لآراء المعتزلة المستمدة من فلاسفة اليونان ، ولنفس السبب أيضا سنرى كيف تكونت معارضة علماء المسلمين للفلسفة الغربية وتصوراتها عندما حدث الالتقاء الثانى الذى بدأ منذ القرن السادس عشر الميلادى فى شكل غزوات وحروب استعمارية متوالية ظلت نحو ثلاثة قرون ، بدأت بشكل حاسم — كما يذكر توينبى — فى اواخر القرن السادس عشر وأوائل السابع عشر — وحسب تعبيره الذى أسلفناه قال (لم يقتصر الامر على الاحداق بالعالم الاسلامى .. ولكن امكن تطويقه تماما ، ثم يستطرد قائلا (وضع الطوق حول رقبة الفريسة) !!

ولكن مما يدهشه — وغيره من المؤرخين والباحثين — ان العالم الاسلامى قد استطاع أن يصمد للعدوان الاوربى طوال القرون من الخامس عشر حتى الثامن عشر ويعزو صموده المذهل الى ما يصفه (بالاعتداد بالذات التى رسبت فى عقل المسلمين الباطن بفعل الامجاد الرائعة التى حققوها فى ابان عصور الازدهار الاسلامية) . ويدهشنا هذا التعليل — مع وجاهته — الا انه يغفل ذكر العامل الاساسى المباشر المتمثل فى العقيدة ، لاسيما أنه يرى عند بحث الاسلام — كعقيدة دينية بالحضارة الاسلامية — ان هذه الحضارة قد وحدت مع العقيدة الدينية!!(١٢)

وفى ضوء هذه الاحداث التاريخية حتى العصر الحاضر تتشكل ملامح الفكر الاسلامى المعاصر ، ويظهر طبيعة القضايا (الكلامية) المثارة .

---

(١١) د . عبد الرحمن بدوى — التراث اليونانى فى الحضارة الاسلامية — المقدمة — ط دار النهضة العربية بالقاهرة سنة ١٩٦٥ م

(١٢) فؤاد محمد شبل — حضارة الاسلام فى دراية توينبى للتاريخ ص٣٩ ، ٦١ المؤسسة المصرية العامة — المكتبة الثقافية (العدد ٢١١) ١٩٦٨م

لذلك يجدر بنا اعطاء فكرة عامة عن حضارة العصر وسماتها البارزة ، وسنبدأ بتعريف الحضارة :

ما هي الحضـــارة ؟

لفظ « الحضارة » من الالفاظ التي اختلف الباحثـون حوله ، ولعله خضـــع بدوره للثقافة والبيئة والاحوال الاجتماعيـــة والاقتصادية للمفكرين والفلاسفة الذين قاموا بتعريف الحضارة فكثيرا ما تعكس الافكار والنظريات ظروف العصور وأحواله اما تأييدا او معارضة او تعديلا .

ويمكننـــا طرح وجهتى النظـــر الرئيسيتين حول تعـــريف الحضـــارة كما يأتى : —

احدهما ، يعنى بطرق الثقافة والقيم الاخلاقيـــة والآداب والفنـــون ، والثانى ، يعنى بالمنجزات والاعمال التى حققها الانسان فى مجـــال التشييد والبناء والانتاج الصناعى والزراعى ، أو بعبارة أخرى (التكنولوجيا) اى استخدام النتائج المكتشفة بالتجارب العلمية فى مجـــالات الحياة المختلفـــة والاستفادة بها .

وتبسيطاللتعريف الثانى وتوضيحه ، فان الحضارة بهذا المعنى تعتبر عنوانا على كل ما احدثه الانسـان او ابدعه أو بدله فى كائن طبيعى ، وجعـــل له قيمة .

وابسط مثال على ذلك ان الحجر الذى نجده فى الطبيعة كما خلقه الله تعالى هو طبيعى ، بينما الحجر الذى صقلته يد الانسان لتستخدمه فى أمر ما هو حضارى(١٣أ) .

ولكننا نرى نقص هذا التعريف،لأنه يشير فقط الى ما استحدثه الانسان فى العالم الطبيعى من تغييرات تعبر عن مواهب الانسان وامكانياته العقلية والجسدية وتكشف عن رغبة الانسان فى تذليل الصعاب التى تعترضه أثناء رحلة حياته الطويلة فى الدنيا ، حيث قام السدود للاستفادة من فيضـــانات الانهار ، وقطع اشجار الغابات ليحولها الى أراضى زراعية ، وتسلح ضد

(١٣أ) د . جورج عطية : من حضارتنا ص١٦ .
منشورات دار النشر الجامعية — بيروت سنة ١٩٥٦ .

الحيوانات المفترسة ليأمن على نفسه وأولاده وعشيرته الى تشييد المـ
ورصف الطرق واختراع الآلات . ولعلنا نعيش الآن أرقى مرحلة أجتـ
الانسان ، ولكننا لا نغفل أيضا أعمال الانسان فى مجالات الحروب والتـ
فكلها من قبيل تدخل الانسان فى (الطبيعة) ، فهل نعـد أيضـا من ا
الحضارية ! فما حكم صنع القنابل الذرية والهيدروجينية والصواريخ ا
والاشعاعات القاتلة المهلكة !

اننا نرى أن أعمال الانسان الحضارية « واللاحضارية » تـ
مداركه وقدراته الى جانب غرائزه وشهواته ونوازعه ، فاذا كان
وينشيء لجعل الحياة أسهل واجمل وأمتع محفوفا بالقيم الاخلاقية ومـ
اقامة الحق والخير والعدل فانه يقيم حضارة حقيقية يسعد بـ
الناس ، فانه يخترع الاسلحة المدمرة ليقتل ويفتك بأعدائه وقد يـ
على غيره ويفرض ارادته وينهب الخيرات ويستولى على أراضى
وممتلكاته طمعا وحسدا! واشباعا لشهوة السيطرة والامتلاك والتعالى

واستكمالا للحديث عن الحضارة فاننا لا نستطيع دفع المفسـ
تصور الحضارة المعاصرة التى يحيا فى ظلها بالتقليد والمحاكاة (١٣م) .
لا نستطيع فى مجال المقارنة بينها وبين الحضارة الاسلامية اغفال حالة
التى تحياها المجتمعات — التى كانت فى يوم ما معبرة عن الحضـ
الاسلامية ابان القرون الخوالى !!

ومهما يكن من أمر ، فقد كان اصطدام الحضارتين أمرا حتميا تـ
اختلاف العقائد والتصورات والقيم والنظم وهو أمر حتمى لسنن الله
فى قيام الامم وسقوطها قال تعالى (لولا دفع الله الناس بعضهم بـ
الاية (البقرة — الحج) ، نجم عنه تفاعل مشكلات (كلامية) بالمصطلح المـ
الا أن الهزائم فى الميادين العسكرية لم يمنع علماء الاسلام من التـ
للحضارة الغازية ونقدها من واقع الاصول الاسلامية فى الكتاب ،

(١٣م) يرى ابن خلدون بعد تحليله للنفس الانسانية أن المغلوب
بالغالب فى شعاره وبخلقه ومركبه وسلاحه فى اتخاذها وا
بل وفى سائر أحواله وعوائده .
المقدمة : الفصل الثالث والعشرون .

فضلا من المنجزات التى حققها المسلمون عندما كانت حضارتهم هى السائدة والقائدة .

ولعل الترتيب المنطقى فى موضوعنا يلزم تسلسل الافكار بحيث نبدأ بتعريف **مسمات الحضارة** المعاصرة واثرها على الفكر الاسلامى تاييدا أو معارضة مما نجم عنه ظهور قضايا لازالت موضع البحث والجدال .

ولعلنا نصل الى هدفنا من خلال بيان نقد هذه الحضارة ان التقدم الصناعى والتجارة العالمية هما اللذان اديا الى وقوع الحروب العالمية الاولى ، كما أن الاختراعات التى وضعت فى ايدى الجيوش جعلت الحرب ذات طابع مدمر فاصبح الغالب والمغلوب سيان . ثم أن الانجازات التكنولوجية جعلت الدول فى وضع يسمح لها بالقتل من مسافة بعيدة والقضاء على أعداد ضخمة من الناس كالاشعاعات والاسلحة السامة وغيرها .

ويستخلص — شستيزر — من هذا كله أن الانجازات المادية ليست حضارة ، ولا تصبح حضارة الا بمقدار ما تستطيع عقلية الشعوب المتمدينة توجيهها وجهة كمال الفرد والجماعة ، ويرى ان اهل اوربا خدعوا بمظاهر التقدم فى المعرفة والقوة فلم يفكروا فى الخطر الذى يتعرضون له جراء تضاؤل القيمة التى يعطونها للعناصر الروحية فى بناء الحضارة ، ومن ثم فان اعادة بناء الحضارة على الوجه الصحيح يتطلب أولا الاخذ من جديد بالنظرة الاخلاقية التى سادت فى القرن الثامن عشر .

ويتطلب ثانيا تكوين نظرية فى الكون ، فالواقع ان كل تقدم انسانى يتوقف على التقدم فى نظريته فى الكون ، وينبغى أن نهز الناس فى هذا العصر وندفعهم الى التفكير الاولى فى حقيقة الانسان ومكانته فى هذا العالم فان توكيد العالم والحياة ، وكذلك الاخلاق ، كلها امور لا عقلية . ويجب أن يكون لدينا الشجاعة للاعتراف بذلك(١٤) .

---

(١٤) البرت اشفتيسر — فلسفة الحضارة ص١٠٠ — ١١٥ ترجمة د . عبد الرحمن بدوى مراجعة د . زكى نجيب محمود ، المؤسسة العامة للتاليف والترجمة والنشر ١٩٦٠ .

ولشرح الغرض من ضرورة نظرية من الكون للحضـــارة ، سنعطى القـــارىء فكرة موجزة من الاصل الذى تنبثق منه الافكار الفلسفية والنظم الاجتماعية ، فان المتتبع للنظم والمبادىء الاجتماعية التى ظهـــرت فى عصر العلم بأوروبا جعلت الاقتصـــاد اساسا للمجتمـــع — والحق ان القـــاعدة الاقتصادية مجرد فرع من مبدأ عام فى العقيدة من أصل الوجود ، ثم يتفـــرع الى استخلاص الاحكام والمبادىء اللازمة لصلاح المجتمع .

يقول الدكتور الفنـــدى (والعجيب ايضـــا ، بل أعجب العجب ، ان المادية فى نظر اساطينها ، مثل الماركسية ، انها تصل فى نهـــاية المطاف الى ما وراء الطبيعـــة . اى لا يمكن ان تقتصر المادية على عالم المادة فحسب ، وانما تنتهى الى ما هو اكبر من ذلك عندما تتطرق الى الحـــديث عن نظـــام الكون العام)(١٥) .

وكثيرا ما يحلل الفلاسفة معالم المادية الظاهرة الوضوح على الحضارة المعاصرة ، ويفسرونها بغياب العقيدة الدينية وانكار الجـــانب الروحى فى الانسان . ويعالج هذا المبحث عادة بتحليل العلاقة بين العلم والدين :

صلة العلم بالدين فى العصر الحديث : (أو العلاقة بين المادة والروح)

أن الانبهار والذهول امام التقدم العلمى الذى ســـحر اعين النـــاس وقلوبهم قد شـــكل معـــالم القضية الماثلة للاذهان وهى ضمور الاعتقـــاد بالغيبيات والحقائق الدينية حيث ساد الاعتقاد ان العلم سيحقق الســـعادة الكاملة وبذلك يمكن الاستغناء عن العقائد الدينية .

هذه هى القضية الملحة التى دارت حولها المناقشات وتشكل حجـــر الزاوية فى ملامح العصر الحاضر .

ويرى براتراندرسل أن العلوم فى العصور الجـــديدة اسكرت البشر ودفعت الكثيرين للسيطرة على بقية البشر بواسطة القـــوى التى حققتهـــا التقدم العلمى . وهو لا ينتقد هذه المعارف العلمية فى ذاتها ، ولكن ينتقـــد

---

(١٥) د . محمد جمال الدين الفندى : الكون بين العلم والدين ص١٤ ط المجلس الاعلى للشئون الاسلامية سنة ١٩٧٢م .

وضعها فى أيدى أناس يفتقدون الحكمـــة . ولو وضعت فى أيدى الحكمـــاء لعرفوا كيف يستخدمونها ، ان هذه الحكمة موجودة الا أنها — مع الاسف — لا حول لها ولا قوة على الاحداث ، ثم يعطينا فكرة عن ضرورة تحقيق التعادل بين قوتى العلماء والحكماء فيقول :

(لقد دعا الانبياء والحكماء الى تجنب الدنايا والصغائر ، ولو أننـــا أنصتنا اليهم لعشنا فى سعادة متجددة)(١٦) .

والرأى الذى ذهب اليه رسل يشاركه فيه الكثيرون فى الآونة الاخيرة بعد المراحل التى مر بها العلم منذ عدة قرون ، فقـــد توقع أغلب العلماء فى القرن التاسـع عشر الميلادى الذين آمنوا بالعلم ، توقعوا له القـدرة على الاحاطة فى المستقبل بمجهـــولات الغيب التى لم يحط بهـــا فى ذلك الحين ، ولكن حينما اطل القرن العشرون تواضعت دعوى العقل(١٧) .

واخذت عقـــول العلمـــاء تنحنى اجلالا لحقـــائق ما فوق طور العلم التجريبى الحسى ، ورأينا الاعترافات تصدر من علمـــاء كثيرين لهم مكانتهم فهاهو اينشتين يقـــول (العلم بغير دين أعرج ، والدين بغير علم أعمى) . ويقف مندهشا امام السر فى نجاح العلماء معللا بالالهام متـــررا فى يقين (أن العاملين فى العلم الجاديين فى عصرنا هذا المادى هم وحدهم الذين يتصفون بالتدين العميق)(١٨) .

وعزا شفيتزر انعدام المدنية الى عدم التوازن بين تقدمنا المادى وتقدمنا الروحى(١٩) .

ويقرر كارليل ان التقدم الهائل الذى احرزته علوم الجماد على علوم الحياة هى احدى الكوارث التى تعـــانى منهـــا الانسانية ، ويعلل ذلك بان قوانين العلاقات البشرية مازالت غير معروفة ، لان علوم الاجتماع والاقتصاد والنفس علوم تخمينية افتراضية ، على عكس ما ظنه الكثيرون عندما خدموا

---

(١٦) رسل — هل للانسان مستقبل ؟ ص١٢ — ١٣ .
(١٧) العقاد : عقائد المفكرين فى القرن العشرين ص٣٢ — ٣٥ .
(١٨) رومز : آراء فلسفية فى أزمة العصر ص١١٢ .
(١٩) نفس المصدر ص١٣ .

فى بعض المذاهب التى حازت شهرة فى صفحات التاريخ وعلى السنة الناس — كمبادىء الثورة الفرنسية وخيالات ماركس ولينين(٢٠) .

ما هى النتيجة اذن بين التقدم الهائل فى العلوم التجريبية وبين قصور العلوم الانسانية عن اللحاق بها ؟

يجيب الدكتور حسين مؤنس على هذا السؤال بقوله : « فان الذين يفكرون فى الدمار انشط بكثير ممن يفكرون فى البناء ، فهناك من صنع القنبلة الذرية التى قتلت مائة الف فى ثوان وزاد عليه الذى صنع القنبلة الهيدروجينية التى تقتل المائتى الف فى ثوان ، ثم جاء صاحب قنبلة النيوترون التى تشل اهل البلد الضخم وتصرعهم دون أن تؤذى العقارات والاشياء(٢١) .

ويتبين من ذلك اذن أن العلم التجريبى اقام مدنا ومصانع وجامعات ، ومهد الطرق ، وساهم فى تسهيل المواصلات وتذليل عقبات لا تحصى فى حياة الانسان ، ولكنه ساهم فى الوقت نفسه فى تعاسته للاسباب الآتية . كذلك يرجع فشل العلوم الانسانية فى علاج الازمات لكونهـا افتراضية تخمينية وليست تقريرا لواقع وبرهانا على حقائق ، اذ لا تملك وسائل الاثبات ، وتنقصها دقة مناهج العلوم الاخرى فى الهندسة والفيزيقا والكيمياء والطب وغيرها من العلوم .

وهكذا اصبح العالم المتحضر منتفخا بالامكانيات ولكنه ضامر بالارادات ، أشياؤه كثيرة وافكاره قليلة . وهذا الوضع البائس المتناقض بين وفرة الاشياء وفراغ النفس لدخل البشرية فى دوامة يصاب الانسان فيها بالدوار(٢٢) .

ولا نجد مبررا للدفاع عن الجانب العلمى التكنولوجى بحجة وصول

(٢٠) الكسيس كارليل — الانسان ذلك المجهول ص٤٤ .
(٢١) د . حسين مؤنس — الحضارة ص١٣٦ .
(٢٢) د . خالص جلبى — الطب فى محراب الايمان جـ٢ ص٢٩ ط مؤسسة الرسالة — بيروت ١٣٩١هـ ١٩٧١م .

الانسان الى القمر ، اذ ان هذا النجاح يحمل فى ذاته دلالة أخرى مفادها ان الصاروخ الذى يحمل مركبة الفضاء يستطيع أن يحمل قنابل ذات رؤوس نووية تصل الى اى مكان فى العالم فتهلك الحرث والنسل ، وقد تعود بالانسان فى طرفة عين الى العصر الحجرى من جديد !!

ولكن ما معنى ذلك كله فى ضوء البحث عن السعادة الحقيقية للانسان على هذه الارض ، وما اثره على موقف المدافعين عن العقيدة الدينية فى مواجهة المسحورين بالمخترعات العلمية لاسيما فى العالم الاسلامى الذى يشعر بالفارق الضخم بينه وبين العالم الغربى ؟

معناه ان منهج المعرفة الخاص بالكون قد هدى الله اليه الانسان بالتجربة (أما منهج المعرفة الخاص بالانسان نفسه ، فانه لما كان من العسير على الانسان أن يعرف نفسه بنفسه فقد هداه الله اليه بالوحى فى رسالات السماء(٢٣) .

ومعناه ايضا ان ركنى الحضارة الانسانية بمعناها الصحيح لابد ان تحقق الارتقاء او التحسن المادى والمعنوى .

ونحن نميل الى الراى الذى يغلب التحسن المعنوى على التحسن المادى ، (لأن الغاية القصوى للتحسين هى شعور الانسان بالأمان والاطمئنان والكفاية ، وقيام مجتمعه على التفاهم والتعاون والمحبة ، بدلا من قيامه على التحايل والانانية والقانون الذى تنفذه قوة غالبة)(٢٤) .

وبمثل هذا التحليل والتعليل الموجز لحضارة الغرب من حيث مقوماتها وآثارها ، نستطيع تلخيص الافكار والفلسفات الرئيسية التى تشكل ملامح المشكلات الكلامية) فى عصرنا الحاضر ، والتى استدعت اتخاذ موقف النقد

---

(٢٣) انور الجندى — سقوط العلمانية ص٧٤ .
دار الكتاب اللبنانى — بيروت ١٣٩٣هـ — ١٩٧٣م .

(٢٤) د . حسين مؤنس : الحضارة ص٥٤ .
سلسلة عالم المعرفة — المجلس الوطنى للفنون والاداب — الكويت محرم — صفر سنة ١٣٩٨هـ — يناير ١٩٧٨م .

والتمحيص من جانب علماء الاسلام ، ودورهم هنا كدور أسلافهم من علماء السنة عندما واجهوا فلسفة اليونان منذ القرن الثانى والثالث الهجرى .

المشكلات الكلامية الطارئة فى العصر الحديث

لا شك أن هناك جانبا هاما لا يزال محتفظا بجدته وحيويته فى القضايا المثارة فى كتب الكلام والفرق لأنه متصل بالعقائد كالايمان بالله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم والبعث والحساب والعقاب وما الى ذلك من مسائل أصول الدين ، ولهذا فانه يحتفظ بأهميته ومكانته فى العقول والقلوب ، وينبغى أن يكون الامر كذلك حيث يتحرى المسلمون معرفة اصول العقيدة ، فاذا درسناها وفق منهج صحيح واضح المعالم كما فعل علماء الحديث والسنة ، فانه يتيسر الوصول الى الحقيقة بين وجهات النظر المتباينة .

ولا شك أيضا ان مشكلات أخرى طرأت فى العصر الحاضر لم تعرفها الاجيال الماضية ولا تدخل فى نطاق القضايا الكلامية المثارة آنذاك بنفس صيغها وأساليب معالجتها وطرق عرضها وذلك لتنوع الثقافات وتعدد المناهج ، بالاضافة الى الانقلابات الحادثة فى نظم التعليم والاقتصاد والسياسة ، وظهور التخصص فى مجالات العلوم والمعارف . كل هذا ادى الى تشابك المشكلات وتداخلها .

ولكن اذا اعدنا للاذهان مرة أخرى تعريف ابن خلدون لعلم الكلام — اى انه يتضمن الحجاج عن العقائد الايمانية بالادلة العقلية — رأينا أن ظهور القضايا الجديدة تشكل فى مجموعها لونا من علم الكلام الحديث او المعاصر .

صحيح أن العلماء القائمين بدور الدفاع عن العقائد الايمانية فى عصرنا لا تنطبق عليهم أوصاف أسلافهم ، ولكن حصيلة انتاجهم العلمى يدخل فى دائرة القضايا الكلامية حيث قاموا بالدفاع عن الاسلام — كل حسب تخصصه — وقد صدرت لهذا الغرض مئات المؤلفات والابحاث ، وكتبت الاف المقالات ، وانعقدت عشرات المؤتمرات والندوات ، وكلها نتيجة جهود مخلصة لعلماء المسلمين فى شتى صنوف العلوم والمعارف ، واستهدفت

الشرح والتفسير والدفاع عن الاسلام عقيدة وشريعة ومنهج وحضارة .
وتشكل في مجموعها ملامح عامة يدور حولها الفكر الاسلامي المعاصر .
نعرضها بايجاز :

ملامح الفكر الاسلامي المعاصر :

ومادمنا نتكلم عن الاسلام في العصر الحديث ، فنتجنب محترسين من استخدام المصطلح الشائع الذي تاثرت به العلوم منذ منتصف مئة عام ، في النشوء والارتقاء ونعني به مصطلح « التطور » والذي نستخدمه الشرقيون حتى في مجال العقائد ، ونسترشد هنا براي الاستاذ الدكتور قاسم رحمه الله في رده على روجيه باستيد الذي ظن أن العقائد في الاسلام قد تطورت كما هي الحال فيما يتعلق بالعقائد المسيحيه ، واغلب الظن أن جهله بعقائد الاسلام وبالاسلام نفسه كان سببا في جنوحه الى هذا الرأي . وقد بينا أن العقائد الاسلامية لم تتطور لهذا السبب اليسير ، وهو أن القرآن دون مباشرة،ولأن هذه العقائد تتجه الى العقل قبل كل شيء فلا نشعر بحاجة الى تعديلها وتحريرها(٢٥)) .

ولا يحتاج الامر الى كبير عناء للاستدلال على ان الاتجاه العام للفكر الاسلامي المعاصر ، هو اتخاذ الاسلام محورا ترتكز عليه جهود المخلصين من المفكرين المسلمين ، للانطلاق نحو احياء جديد للحضارة الاسلامية التي ازدهرت في عصور الارتقاء بفضله . ان القرآن خلق العرب خلقا جديدا . وقد وعد الله تعالى للمتمسكين به بالرفعة في الدارين . والله عز وجل لا يخلف وعده ، والقرآن لم يتغير وانما المسلمون هم الذين تغيروا (٢٦) .

ولسنا نؤرخ هنا لعوامل اضمحلال الحضارة الاسلامية ـــ الا أننا لا نستطيع أن نغفل ظاهرة أخرى تشكل ملامح الفكر الاسلامي في عصرنا الحاضر ، وهو اظهار فضل مفكري الاسلام على الحضارة الاوربية

---

(٢٥) د . قاسم ـــ مقدمة كتاب مبادىء الاجتماع الديني لروجيه باستيد ص٦ .

(٢٦) شكيب ارسلان ـــ لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم ص١٢ ، ١٤ .

ثم تغيرت هذه الصورة رويدا رويدا عندما انتشر التعليم ، و ا الثقة فى النفوس ، وقام العلماء بشرح الآيات القرآنية فى ضوء الاكتشا العلمية ، وظهرت حقيقة التوافق بين الاسلام والعلم بالادلة التى لا تق الشك .

وهنا نجد الدكتور موريس بوكاى يبدى دهشته البالغة عندما يستنت فى بحثه المبتكر فى هذا المجال التوافق التام بين النص القرآنى ومعطي العلم الحديث ، ثم سرعان ما يقرر انه لاداعى للعجب او الدهشة فى (اذا عرفنا أن الاسلام قد اعتبر دائما ان الدين والعلم توأمان متلازم منذ البدء كانت العناية بالعلم جزءا لا يتجزأ من الواجبات التى أمر الاسلام . وأن تطبيق هذا الامر هو الذى ادى الى ذلك الازدهار ا للعلوم فى عصر الحضارة الاسلامية ، تلك التى اقتات منها الغرب قبل عصر النهضة فى أوربا)(٣٥) .

اما من وجهتى النظر التى يقابلها الباحث فى هذه القضية ، و بذلك وجهة النظر القائلة بأن النظريات العلمية كلها منصوص عليها بين القرآن الكريم ، والاخرى التى تفضل عدم الزج بالقرآن فى مجالات قابلة للتغير فى ضوء التجارب والمكتشفات المتوالية ، فان الراى الوسط نميل اليه أن كنا بالله عز وجل يستثير فى بنى آدم عملية التفكير ويحث على النظر فى آيات الله الكونية المحيطة بهم فى جوانب من مخلوقات فى النبات والحيوان والافلاك والمجتمعات والتاريخ ومهما يكن اختلاف حول القرآن الكريم من آيات عرف العلماء الآن دلالتها العلمية فى الحاضر من شمس وقمر وكواكب ، أو تتحدث عن الارض والسماء ، أو

والجبال والنجوم والسماء ، ملفتا الانظار الى ما فى بعض العلم من أوامر صريحة تطالب المسلمين بالبحث والدراسة وت بالاخذ باسباب العلم ، حتى كأنها جزء لا يتجزأ من تعاليم الد من العبادات ذاتها ، واذا كان المسلمون قد تخلفوا بمعنى ذلك ولا شك قد ابتعدوا عن جوهر الاسلام مهما احتفظوا بطق من العبادات (الكون بين الدين والعلم ص٣٥) .

(٣٥) موريس بوكاى — القرآن الكريم ، والتوراة والانجيل و ص١٤ ، ط دار المعارف سنة ١٩٧٩م

الانســـان واطواره ، فان الراى الراجح بين كلا الرايين المـختلف الانتســـاره اليهمـا — ان القرآن الحكيم ليس فى الواقع من مراجع العلوم ، ولنشه وجه الحديث الى القلوب المتفتحةوالى العقولالواعية فى نفس الوقت، وهوبذلك كتاب مشاعر واخلاق وفكر فى آن واحد ، يعطى من كل منها القـدر اللازم للبشرية حتى لا تكون ثمة حجة لقارئه فى مختلف العصور ومنها عصر العلم؛٣٦

وهاهى طريقة القرآن تبرهن انها الوحيدة الثابتة بثبات طريقه القرآن مع تغير الدهسور .

ويزيدنا الدكتور موريس بوكاى ايضا فيذهب الى أن القـرآن ليس كتابا يهدف الى عرض بعض القـوانين التى تتحكم فى الكون . ان له هدفا وسببا جوهريا . واوصاف القدرة الالهية هى الناسية الرئيسية فى توجيه الدعوات للبشر أن يتأملوا فى أعمـال الخلق . وتصـاحب هذه الدعوات اشارات الى أمور يمكن للملاحظة الانسانية أن تدركها او قوانين عرفها الله — تلك التى تسود انتظام الكون — فى ميـدان علوم الطبيعـة وفيما يخص الانسـان على حد سـواء . وهنــاك جزء من هذه الاقوال يسير الفهم ولكن هناك جزء آخر لا يمكن ادراك دلالته الا اذا كان المرء يملك معارف علميـه لازمة لهذا) (٣٧ أ) .

ان ثبات القوانين الطبيعية والنواميس الكونية يقابلها فى انتظامهـا فى مسيرتها ثبات احـكام العقول وبديهيـة الاوليات ، اذ لو لم تستمد العـلوم اسـاسها من أوليات وبديهيات لانهار الصرح العلمى . ولما أمكن اثبات نظريه علميـة .

وبنفس البديهيات والاوليات ، عرف الانسان ربه عز وجل ؛ بل الاسبق فى فطرة الانسان أن يعرف خالقه ، فهو مفطور على ذلك كمـا انه مفطـور ايضا على معرفة القوانين الاولية والبديهيات العقلية .

ويرى الدكتور الفندى ان الذى يدرس ما جاء به القرآن الكريم من آيات

---

(٣٦) د . محمد جمال الدين الفندى : الله والكون ص٢٤ .
ط الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٦م .

(٣٧ أ) د. موريس بوكاى : القرآن الكريم ص ١٣ — ١٤ .

بينات فى شتى المجالات ، يجد ان الاسلام انما يخلق مجتمعا (طبيعيا) يساير الفطرة ويتمشى مع الناموس الطبيعى ، سواء من حيث ما فطر عليه ، أو ما جبلت عليه الطبيعة .

وهى نفس الفكرة التى أجمع عليها علماء السلف عند تأكيدهم لتوافق الايات الغيبية والسمعية ، وان أدلة الشرع هى أدلة عقليـة ، حيث يأتى النظر والاستدلال أيا كانت وسائله تبعا للعصور والازمنة ، معضدا للفطرة التى فطر الله الناس عليها ، وبانيا على العقيـدة النظم الصالحـة للمجتمع الانسانى .

وهنا تظهـر روعة القرآن الكريم ، بل انه أروع الكتب التى توضـح العقيدة على هذا النمط (وهو الى جانبه هذا ، انما يعطى الاحكام والامثال والآيات كلها من الكون نفسه ، ولهذا نطلق على الاسلام اسم (الدين الكونى) أو دين الفطرة ، ولهذا ايضا يظل القرآن معجزا أبد الدهر ، وتبقى حجتـه قوية الى ما شاء الله (٣٧ب) .

واذا كان قيام علماء الكلام فى القرون الماضية باستخدام الادلة المنطقية والتفكير النظرى السائد آنذاك ، فان ما يتصل بالقضايا التى اصطلح عـلى تسميتها (كلامية) فى تاريخ الفرق ، يتصل أوثق الصلات بالآفاق التى كشف عنها العلم وتجاربه فى العصور الحديثة .

ونود القول بأن الطريقة الاستدلالية التى استخدمها القرآن الكريم ظلت هى الوحيدة بين الطرق الاخرى — كالمتكلمين والفلاسفة — فهى ثابتـة فى نفسها كميزان عقلى متوافقة مع الاجتهادات العقلية ، وتخاطب البشرية قاطبة مهما اختلفت الازمنة والامكنة .

واذا أردنا اثبات ذلك بنبذة موجزة عن دليل الآفاق ، فان هذا الدليل مازال — وسـيظل — ثابتا ، لأن نواميس اللـه تعـالى فى الكون والنفس لا تتغير ، وبقدر ما يمنح العلماء من علم لاكتشاف المجهول ، بقـدر ما تتسع معارفهم وعلومهم عن الكون والمخلوقات والانفس .

(٣٧ب) د. الفندى : الكون بين العلم والدين ص١٤ .

وقد سبق الاشـــارة الى اسـتخدام الصحابة رضى الله عنهم طريقـــة الاسـتدلال بحدوث العالم وهى طريقة عقلية شرعية كما قال تعالى (أو لم يروا أنا نسوق الماء الى الارض الجرز فنخرج به زرعا تأكل منه انعامهم وانفسـهم افلا يبصرون) { السجدة — ٢٧ فهذا مرئى بالعيون ، وقال تعالى (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق — ثم قال — أو لم يكف بربك انه على كل شىء شهيد) فصلت — ٥٣ (٣٨) .

والآيات الكونية والنفسية امامنا ثابتة النواميس ، ولكن وسائل العلماء اخذت فى التطور فاستطاعوا اختراع آلات المقاييس والمجاهر(٣٩) التى عمقت وزادت من القدرات الانسانية على الاكتشـــاف ووسعت قوى الادراك حيث يرى العلماء الآن فى عالم الافلاك ما لم يراه علماء العصور السابقة ويجـرى العلماء المتخصصون التجارب بالوسـائل المتطورة فى مجالات عوالم الطبيعـة والبحار والحيوان والنبات والميكروبات وغيرها من الكائنات .

السنن الالهية اذن ثابتة ، ولكن التطور حدث فى وســـائل الانســـان لمعرفة اسرارها ، وفى ضوء هذه الحقيقة كيف امر الله تعالى فى كتابه الحكيم بالتدبر والنظر والتفقه والاستدلال بآيات الله تعالى من حولنا وفى أنفسنا .

والمستقرىء لآيات القرآن الكريم يلحظ ان اسلوب الدعوه القرآنى تقوم على استثارة الفطرة الانسانية ، كمثل قوله تعالى (أفى اللـــه شـــك فاطر السموات والارض) . { بدلا من لغة الفلسـفة التى لجأ اليها اغلب المتكلمين ظنا منهم أنها تؤدى للدفاع عن عقيدة الاسلام .

وفى ضوء الآفاق التى امتدت اليها البحوث العلمية ، أصبح الاســـلوب المقبول هو الذى استخدمه القرآن الكريم قبل نحو اربعة عشر قرنا ؛ ومن ثم

---

(٣٨) ابن تيمية : النبوات ص٥٢ .

(٣٩) منها على سبيل الامثال : المقـــراب أو (التلسكوب) المستخدم فى رؤية النجوم ، ومقاييس أعماق البحار والمحيطات ومقاييس الحرارة والزلازل والسرعة والضغط الجوى الى جانب المجاهر المستخدمة بواسطة الاطباء وعلماء الاحياء والكيميائيون والجيولوجيون وغيرهم من العلماء .

فان المنهج الذى اتبعه علمـــاء السنة اى الاقتصـــار على استخدام الادلة الشرعية هو المناسب ايضا لطبيعة العصر اذ يمكن اليوم وضع تعاليم القرآن امام الناس بنفس الاسلوب الفطرى الذى نزلت به آياته .

والامثلة كثيرة مبسوطة فى المؤلفـــات التى عالجت موضـــوعات الدين بلغة العلم واكتشـــافاته ، يشير الى بعض الافكار الرئيسية بهـــا ، اذ يرى وحيد الدين خان ان الاسلوب العلمى ــ على عكس الاســـلوب الكلامى ــ يعتمد على البساطة والايجابية التى تراعى سرد الحقائق لغة وبيانا(٤٠) .

ويرى الدكتور الغمراوى أن العلم فى الاسلام جزء من الدين ، مستندا الى تفسير آية الفطرة المارة بنا ، مع النظر الى موقعها بعد آيات قبلهـــا فى سورة الروم كلها ، وهى آيات كونيـــة تتعلق بظـــواهر طبيعية لا يدرسـها ولا يبحثها ويكشف من اسرارها الا العلم التجريبى الحديث .

ولو نظر الانسان فى نفسه فيمن حوله لوجد نظريات العلم اتت متوافقة لقوانين الفطرة ، وهذا ما نص عليه القرآن الكريم فى قوله تعالى (فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبـــديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون) الروم .

يقول الدكتور الغمراوى (والعلم الحديث يقوم وجوده على هذا القانون الالهى ، قانون (لا تبديل لخلق الله) اذ العلم وطريقته العلميـــة التجريبيـــة متوقفة على اتساق الفطرة ، واتساق سننها بالاطراد والثبوت)(٤١) .

خذ مثلا بعض الايات القرآنية التى تتحدث عن بعض الظواهر الطبيعية، كقوله تعالى (الذى جعل لكم الارض فراشا والسماء بناء وانزل من السماء ماء فأخرج به من الثمـــرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله اندادا وانتم تعلمـــون) البقرة ــ ٢

وقوله سبحانه (ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما انزل الله من السماء من ماء

---

٤) وحيد الدين خان : الاسلام يتحدى ص٣٠ .
د . الغمراوى ــ بين الدين والعلم ص٧ .

فاحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لايات لقوم يعقلون) البقرة — ١٦٤ .

وقوله عز وجل (الذى جعل لكم الارض مهدا وسلك لكم فيها سبلا وانزل من السماء ماء فاخرجنا به ازواجا من نبات شتى . كلوا وارعوا انعامكم ان فى ذلك لآيات لاولى النهى) طه : ٥٣ و ٥٤ .

الى غير ذلك من الايات التى يسهل ادراكها بواسطة الناس جميعا ، ومنهم اولئك الذين كان القرآن موجها اليهم وقت نزوله ؛ ومن ناحية اخرى فهى تعبر عن تاملات عامة يستطيع الجمهور المتنوع للثقافة بحسب كل مكان وزمان (أن يستخرج منها تعاليم اذا ما كبد نفسه عناء التامل ؛ تلك هى السمة الكونية الشاملة للقرآن)(٤٢) .

---

(٤٢) موريس بوكاى — القرآن الكريم والتوراة والانجيل والعلم ص١٩٦ — ١٩٧ .

الباب الثامن

دراسة فى الفكر الاسلامى المعاصر

محمد اقبال

- حياته وعصره .
- موقف محمد اقبال من الحضارة الغربية .
- اقبال بين الغرب والشرق .
- منهجه .
- أهم آرائه .
- الانسان فى القرآن .
- الحقيقة بين التجربة العلمية والتجربة الدينية .

دراسة في الفكر الاسلامي المعاصر

محمـد اقبـال

وفي مجال هذه الدراسة ، نرى استكمالا للبحث ، العرض بايجاز لافكار الشاعر المسلم محمـد اقبـال ، اذ يعبر بآرائه عن نموذج متكامل معبر عن القضايا الكلامية المعاصرة ، حيث جمع بين الثقافتين الغربيـة والاسلامية ، واستطاع بمنهجه وانتاجه اظهار حقائق الاسلام والدفاع عنه بمنهج « كلامي » فلسفي مستخدما طريقة القرآن ومستلهما حقائقه ، ومتحدثا في الوقت نفسه بلغة العلم .

وسنرى كيف وفق في بيان موقف الاسلام من المشكلات الناجمة عن الالتقـاء بالحضارة المعاصرة وعلاج المشكلات الناجمة عنه .

محمد اقبال

حياته وعصره :

ولد محمد اقبال فى سيالكوت بالبنجاب عام ١٢٨٩هـ ـــ ١٨٧٣ وكان أبوه تقيا فألحقه بكتاب لحفظ القرآن الكريم ، وقد تلقى الابن أول تأثير روحى من الاب ، وكاد محمد اقبال يتخذ طريقا دينيا بحتا لولا أن صديقا لوالده ـــ الذى كان يعمل بالزراعة ـــ حثه على أن يتلق الابن العلوم الحديثة ، فالتحق بمدرسة البعثة الاسكتلندية فى سيالكوت فى رعاية صديق الوالد (مولانا مير حسن) وكان ضليعا فى الآداب الفارسية والعربية . التحق بعد ذلك بالكلية الاميرية فى لاهور حيث اختار الفلسفة مجالا لتخصصه ، وفيها تتلمذ على يد المستشرق سيرتوماس أرنولد ، ثم سافر الى انجلترا للدراسات العليا فى الفلسفة حيث حصل على الماجستير ثم اتجه بعدها الى المانيا ، وهناك حصل على الدكتوراه فى الفلسفة ، اذ منعه النظام البريطانى من الحصول عليها لانه أجنبى . وذاعت شهرته فى أوربا اذ اخذ يترنم شعرا بأفكاره الاسلامية .

وعاد من أوربا بانطباع جديد عام ١٣٢٧هـ ـــ ١٩٠٨ . أنه اذا كانت مادية الغرب خالية من القيم الروحية والاخلاقية ، فان روحانية الشرق قد أصبحت خاوية ، وان اعادة الروح الى الحضارة الاسلامية بنفحة من الشرق والغرب معا ، فعلم الغرب وتقدمه التكنولوجى يعملان على القضاء على الفقر والمرض ، ولكن ليس على الشرق ان يكرر خطأ الغرب بعبادة القوى المادية وانما يجب أن تخضع هذه لاهداف روحية ، لان انقاذ البشرية لا يتم الا بالدين والمسلمون انفسهم فى حاجة الى تجديد الفكر الدينى وازالة معالم الجمود والتحلل التى طمست معالم الاسلام الاصلية . وكان دقيقا فى اعتبار حركته الفكرية (اعادة بناء الفكر الحديث) لأن اية محاولة انسانية لا تتعلق بتعديل مبادئه طالما أن مصدره وهو القرآن له صفة الجزم والتأكيد الابدية فان دوره اذن يقتصر على افهام المسلمين لمبادئه ، فالتطور اذن فى تفسير تعاليمه وليس هناك تطور فى الاسلام نفسه على النحو الذى تم بفعل (مارتن لوثر) فى المسيحية .

واشتغل بالمحاماة الى جانب اشتغاله بالتعليم والتدريس فى الجامعة من الخارج اذ درس الفلسفة فى المدرسة الاميرية ولكنه اضطر لتركهما لان أشراف الانجليز لم يسمح له بالتعبير عن افكاره ، ثم عين عميدا لكلية الدراسات الشرقية ورئيسا لقسم الفلسفة دون التفرغ للتدريس . وكان يلقى المحاضرات العامة فألقى محاضرات فى مدارس عام ١٩٢٨م جمعت فأصبحت أهم كتاب فلسفى له (تجديد الفكر الدينى فى الاسلام) .

شارك فى الحياة السياسية ، وكان عضوا عاملا فى حزب الرابطة الاسلامية وانتخب فى الجمعية التشريعية سنة ١٩٢٦ ، وكان يدعو الى استقلال المسلمين فى دولة تجمعهم ، ثم اصبح رئيس حزب الرابطة الاسلامية فى البنجاب ١٩٣٥م ، توفى فى ابريل سنة ١٩٣٨م(١) .

موقف محمد اقبال من الحضارة الغربية :

اذا انتقلنا الى التاريخ للحركات الاسلامية بالهند قبل انشاء الباكستان فى عام ١٩٤٧ فاننا نجد أن حركات كثيرة ظهرت فى أوائل القرن التاسع عشر تجعل شعارها (الرجوع الى القرآن) .

وكانت هذه الحركات بمثابة رد فعل لتزايد المؤثرات الخارجية فى حركة الغزو الاستعمارى الغربى لبلاد الاسلام ، وكان حامل لوائها محمد اقبال الذى كان (أهم ما يشغله هو الرجوع الى تلك العقيدة البسيطة ليسترد الاسلام ما فقده) ، وربما كان مرد اعجابه بحركة محمد بن عبد الوهاب يرجع الى هذا السبب ، فقد سماه (المطهر العظيم)(٢) .

وكافح محمد اقبال طويلاً حتى ظهرت دولة الباكستان الى الوجود ومن ثم أصبح هو (الاب الروحى) لها ، كما أن غرس الثقافة الاسلامية الجديدة التى بدأت فى الهند قبل اقبال بنحو قرن كامل اثمرت النتاج العقلى له كما يذهب الى ذلك أبو الحسن الندوى ويصفه بأنه اعمق مفكر وجده الشرق فى عصرنا الحاضر(٣) .

---

(١) د . محمد البهى — صلة الفكر الاسلامى بالاستعمار الغربى ص٤٣٢ .
(٢) م . ل . فزار — وجهة الاسلام ص١١٩ ، ١٢٩ .
(٣) أبو الحسن الندوى — الصراع بين الفكرة الاسلامية والفكرة الغربية ص٩٨ .

وكان محمد اقبال مشبعا بالثقافة الغربية ، ولكن — مع هذا — لم يدفعه ذلك الى الدعوة لتقليد الحضــــارة الاوربية كما فعل غيره من مفكرى المسلمين فى العصر الحديث حيث فتنوا بمظاهر الحضارة الاوربية الخلاب واخفقوا فى فهم روحها الصحيحة . ذهب الى العكس من ذلك فان الماضى البعيد ظل ماثلا أمام عينيه حيث استمد الفكر الاوربى وحيه من الاســـلام خلال العصـــور الوسطى .

وفى النص الذى ننقل ترجمته فيما يلى ، يعبر لنا عن تحـذيره الشديد للمسلمين من هذه الحضـارة فيقول : —

(ولكن اياك والحضارة اللادينيـــة التى فى صراع دائم مع أهل الحق ، وان هذه الفتانة تجلب فتنا وتعبد اللات والعـــزى الى الحرم ان القلب يعمى بتأثير سحرها .. وانها تدع الانسان لا روح فيه ولا قيمة له)(٤) .

ان ثقافته الغربية التى اغترف منها بعمق ، هى التى جعلتـــه يدرك فى سهولة ويسر عمق الصلة بين فـــكرة فلاسفة الغرب المحـــدثين ، والفـــكر الاسـلامى فى أوج نضجه ، ومن ثم فقد اكتشف أن أوربا كانت بطيئة فى ادراك الاصل الاسلامى لمنهجها العلمى ، ويعدد الادلة على الجـــذور الاســـلامية لنهضة الغرب ، فيعثر عليها فى منهج الشك الذى افاض فيه الغزالى ومهد به السبيل الى ديكارت ، كما تنبه لنقد ابن تيمية للمنطق الارسطاليسى وبرهنته على أن الاستقراء هو الطريقـــة الوحيـــدة الموصلة الى اليقين ومن ثم (قام المنهج التجريبى القائل بأن الملاحظة والتجـــربة هما أســـاس العلم وأصله لا التفكير النظرى) وانتقاله الى جون ستوراتمل . كذلك تلقى روجر بيكون علومه من الجامعات الاسلامية بالاندلس الى غير ذلك من ميادين الفكر التى تتمثل فى الرياضيات والفلك والطب ، وكانت نتيجة ثورة عقلية اسلامية على الفلسفة اليونانية .

من هذه النظـــرة الواسعة يخلص مفكرنا الى ان الزعم (بأن أوربا هى التى استحدثت المنهج التجريبى زعم خاطىء) .

---

(٤) الترجمة العربية من قصيدة (ضرب كليم) — نقلا عن كتاب الصراع بين الفكرة الاسلامية والفكرة الغربية للندوى ص٩٩ .

أضف الى ذلك أن نظر اقبال فى القرآن ، واحاطته بنتاج الفكر الاسلامى فى شموله واتساعه جعله يؤكد (معارضة القرآن لعلوم القدامى أكدت وجودها بالرغم من أولئك الذين كانت رغبتهم فى أول الامر هى تفسير الاسلام على ضوء التفكير اليونانى)(٥) .

انه لم يستبعد احتمال اعادة الحيوية للفكر الاسلامى من جديد اذا ما تخلص من جمود التقليد فهو يقول (عندما ندرس أصول الفقه الاسلامى الاربعة المتفق عليها . . . وهو يعنى القرآن والحديث والاجماع والقياس على الترتيب — وما ثار حولها من خلاف ، فان ذلك الجمود المزعوم عن مذاهبنا المعترف بها يتبخر ويبدو للعيان امكان حدوث تطور جديد) .

بهذا العقل الناقد للحضارة الغربية ، المطلع على التراث الاسلامى فى مظانه الحقيقية ، استطاع هذا المفكر أن يتخلص من روح اليأس من مظاهر أحوال المسلمين — مثلما فعل ابن تيمية من قبل بعدة قرون — وننظر بروح متفائلة مؤكدا امكان قيام الحضارة الاسلامية من جديد . اذا ما عادت الامة الاسلامية الى أساس حضارتها دون تقليد أوروبا التى (لا نصيب لها فى التوجيه السماوى والتنزيل الالهى انه يرى — فضلا عن ذلك — المخطط اليهودى مسيطرا على أوربا بحضارتها المادية ، فليست المعارف الا وليدة دهائهم ، بل (لا يستغرب أن يرث تراثها الدينى ويدير كنائسها اليهود)(٦) .

وعلى هذا فان المصدر الاصلى للتجديد الذى ينادى به هو الاسلام ، لانه التوجيه السماوى ، وقد أثر القرآن فى عقلية اقبال وفى نفسه ما لم يؤثر فيه كتاب ولا شخصية .

اقبال بين الغرب والشرق :

وظل اقبال سنين طويلة يفكر فى حال المسلمين ، ويمعن النظر فى أسباب ضعفهم ، ويجول فى دروب تاريخهم الطويل ، فيتفتق ذهنه عن أنظومة

---

(٥) محمد اقبال — تجديد التفكير الدينى ص١٤٩ — ١٦٤ .
(٦) قصيدة ضرب كليم (كتاب الصراع) ، ص١٠٠) .

رائعة ، يخاطب بها الانسان المسلم المعاصر فيقول (يا شاكيا جور الزمان ، ويا أسير الوهم والحسبان ، اجعل قميصك ثوب الاحرام واطلع الصبح في هذا الظلام ، واستغرق كآبائك في السجود حتى تكون سجدة للواحد المعبود ، ان المسلم الاول خضع للخلاق فسيطر على الآفاق ، ومشى على الشوك في سبيل الحق ، فانبت الورد في الغرب والشرق ...

ويوجه اليه اللوم ، فيقرعه ، ويتساءل في أسى (أنى لارعد من خزيك يوم يسألك الرسول : قد اخذت منا كلمـــة الحق ، فلمـــاذا لم تسلمها الى الخلق)(٧) ؟

ومعنى هذا أن الامة الاســـلامية قد قصرت في أداء رسالتها ، وهاهو يضع يده على عللها ، فقد استحوذت على عقول المسلمين الاوهام والخرافات وانهمكت نفوسهم في الخلافات والخصومات ، فلم يفقـــدوا وحدتهم فحسب بل فقدوا جميع مرافق الحياة ووسائل النمو والتقدم في هذا الكون ، أي انهم تخلفوا في ميدان القيادة في العالم الفكري والحضاري جميعـــا ففي الجـــانب الاول — كالتصوف أو الشريعة أو الدين — اصبحوا وثنيين وعباد آلهة العجم بعد أن كانوا موحدين ، ومعلمي التوحيد للعالم اجمع . وفي الجانب الثاني ، رأى أن روح القرآن في جملتها تعارض الفلسفة القديمة ، فانه ليس كتـــاب فلسفة ولكن فيه هدى الى مقاصد الحياة ورقيها ، ويجعلنا ندرك أن الاسلام دين يعنى بالعمل أكثر مما يعنى بالفكرة . ولكن المسلمين خالفـــوا روحه ، وطغت عليهم نزعة التواكل ، فالقول بالقضاء الذي يحمله نقاد الغرب للاسلام في كلمـــة (القسمة) يرجع بعض سببه الى التفكير الفلسفي وبعضـــه الى مقتضيات السياسة ، وبعضه الى ما لحق القوة الحيوية التي كان الاسلام قد بعثها اتباعه أول الامر ، من ضعف تدريجي(٨) .

وأيضا يولي فيلسوفنا وجهه قبل التصوف الذي كان له تاثير في بداية حياته ، ولكنه يعد دراسته كأحد عوامل تأخر المسلمين ، يعـــود فيلفظه . ويعني به تصوف وحدة الوجود ، أي التفسير الفلسفي الصوفي الذي اخذ به

---

(٧) عبد الوهاب عزام — محمد اقبـــال — سيرته وفلسفته وشـــعره ص١٠٥ .

(٨) محمد اقبال — تجديد التفكير الديني ص ١٢٧ .

ابن عربى اذ بينما يرى الاسلام (الانا) مخلوق ينال الخلود بالعمل ، جعل ابن عربى فلسفة وحدة الوجود عنصرا فى الفكر الاسلامى ، ثم اصطبغ كل شعراء العجم فى القرن السادس الهجرى بهذه الصبغة ، فخاطب فلاسفة الهند العقل فى اثبات الوجود ، وخاطب شعراء ايران القلب فكانوا اشد خطرا واكثر تأثيرا ، حتى اشاعوا بدقائقهم الشعرية هذه المسألة بين العامة فسلبوا الامة الاسلامية الرغبة فى العمل(٩) .

ليست اذن عقيدة وحدة الوجود من تعليم القرآن ، فان القرآن يبين المغايرة التامة بين الخالق والمخلوق او العابد والمعبود ، ولكن امتد اثر هذه الفلسفة مع الايام فأحدثت آثارا هائلة فى تغيير مفاهيم اسلامية اخرى . ويضرب اقبال مثلا على ذلك بالجهاد كشعيرة يراها الاسلام من ضرورات الحياة ، ويلفت النظر الى هذه الرباعية ، التى ترنم بها الصوفية .

(يسلك الغازى كل سبيل من أجل الشهادة ، ولا يدرى أن شهيد العشق افضل منه . كيف يستوى هذا وذاك يوم القيامة ، هذا قتيل العدو وذاك قتيل الحبيب) . ويعلق على مضمونها بقوله (وهذا جميل فى الشعر ، ولكنه خدعة لأبطال الجهاد) .

فلا نعجب اذن من الظاهرة التى تتضح فى شعر اقبال ، فالامل يظهر فى شعر اقبال كله ، فهو باعث الحياة ، والجهاد الدائب فى رأيه هو حافظ هذه الحياة وأن قارىء اقبال ليروعه اعظام اقبال الامل ، وتصويره اياه ، واشادته بالعمل الدائب ، والجهد المستمر ، بل يرى اقبال ان الجهاد فى سبيل المقصد اعظم لذة من بلوغه ، فيقول (طوبى لمن لايزال فى اثر المحمل ، اى لذة فى الاضطراب دون وصول) !!

واذا كانت فلسفة الوجود قد انتقلت حقا الى الغرب ونراها بوضوح عند الفيلسوف الهولندى الاسرائيلى اسبينوزا الا أن الذى انقذهم منها رغبتهم فى العمل ، فلم يلبث طويلا طلسم وحدة الوجود ، فقد تبين بأدلة رياضية سبق الالمان الى اثبات حقيقة (الانا) الانسانية المستقلة ، ثم تحرر من هذا الطلسم

---

(٩) عبد الوهاب عزام — محمد اقبال ص٥١ — ٥٢ .

الخيالى فلاسفة الغرب على مر الزمان ولاسيما فلاسفة الانجليز الحسيين التجريبيين .

ويفسر لنا اقبال سبب عزوفه عن التصوف أمام حملة النقد التى وجهت اليه فيقول فى رسالة سنة ١٩١٥ (انى بفطرتى وتربيتى أنزع الى التصوف : وقد زادتنى فلسفة أوروبا نزوعا اليه . فان فلسفة اوربا فى جملتها تتوجه الى وحدة الوجود ، ولكن تدبر القرآن المجيد ، ومطالعة تاريخ الاسلام بامعان اشعرانى بغلطى ، ومن أجل القــرآن عدلت عن افكارى الاولى ، وجاهدت ميلى الفطرى ، وحدت من طريقة آبائى) .

ويتلخص منهجه فى بيان القيمة الايجابية فى توجيــه الاســلام لانقــاذ المسلمين من ضغط الفكر المادى الطبيعى وسيادته فى أوربا ، وانتشار الدعوة اليه فى الهند خاصة فى ذلك الوقت عن طريق السيد احمد خان(١٠) .

أما تعليله للمادية فى الغرب ، فيرجع الى توجيه أممه الى العالم بحثا وتنقيبا ودراسة واستخداما ، وغفلت عن الحق تعالى تماما ، فأدى بهــا الى عبادة المادة والتجرد من خلال الانسانية الحقة .

ولكن أمم الشرق اتجهت بكليتها الى الحق صارفة أنظارها عن العــالم مما جعلها لا تعبــأ بتسخير الكون ، فتحــولت الى فقــر وعوز واستغلها غيرها(١١) .

ويرى اقبــال انه لا يمكن الوصـــول الى الحقيقة الكاملة بواســطة الفلسفة ، مغلبا الجانب العملى الدائب لاصلاح النفس فيقول "

فتفكر فى ذاتك ، ولا تخش المرور من هذه البادية : فانت موجود ووجود العــالمين ليس شيئا ، اجتهــد فى اصلاح شخصيتك وتكميلها ، ولا تمضى فى

---

(١٠) د . محمد اسماعيل الندوى — نظرات جديدة فى شــعر اقبــال ص١٥٢ .

(١١) محمد اقبال : رسالة الخلود — أو — جاويد نامه ص٩٩ ترجمــة وشرح وتعليق د . محمد السعيد جمال الدين ١٩٧٤م .

الحياة خائفا مذعورا ، فوجودك هو الوجود ووجود العالمين ليس شيئا اذا قيس بوجودك باعتبارك مكرما من جانب الله تعالى .

وبعد عدة ابيات شعرية أخرى يصف فيهما طريق اصلاح النفس والوصول الى درجة عالية من الرقي الروحي ، مناديا بانه ينبغي على الانسان ان يهمل كل ما لا يعنيه في الوصول الى الهدف المنشود ، ألا وهو وجود الحق تعالى .

وعندئذ فان الجنة هي الهبة النهائية وهي جزاء العمل (فالجنة التي وهبك الله اياها ليس لها اية قيمة او اعتبار ما لم تكن جزاء على عمل صالح قد قدمته)(١٢) .

وهكذا يتجه اقبال للاهتمام بالروح ويعطيهما المكانة الاولى في جانب المعرفة والجانب الاخلاقي .

يقول اقبال (يا من تقول أن الجسد حامل الروح انظر سر الروح ولا تعبأ بالجسد) .. ان هذا الجسد ليس مخزنا لروحنا ولا رفيقا لها ، يذهب معها حيثما ذهبت ، بل انه لا يزيد عن كونه حفنة من التراب ، وهل تحول حفنة من التراب دون تحليق الروح ؟(١٣) .

ويرفع اقبال من شأن العمل وجهاد النفس لكي ترقى وتسمو بصاحبها . يقول :

(ان القرب من الله تعالى امر ليس بيسير المنال ، انه في حاجة الى جهاد مع النفس ومع قيود الزمان والمكان ، فلا تتحدث عن غربتك وعن رغبتك في القرب الالهي وانت خامل ، وانما انهض واعمل على ترقية روحك حتى تصل الى هدفك)(١٤) .

ومادامت الروح هي الوجود الفعال المؤثر ، ووجودها هو الوجود الجوهري بينما وجود المادة وجود عرضي ، فان السبيل الوحيد لسعادتها

---

(١٢) محمد اقبال : رسالة الخلود ص ١١٩ .
(١٣) نفس المصدر ص٨٣ .
(١٤) نفس المصدر ص١١١ .

هو التجربة الدينية ، لاسيما الصلاة . فالفلسفة معرفة جزئية والعلم كذلك ، ولكن الدين ينطوى على الاكمل لانه منهاج المعرفة الصحيح .

ويقيم اقبال تصوراته عن الانسان ومكانته ومصيره على أصـــول من الايات القرآنية اذ المعنى الحقيقى للانسان (انه هو الذى جعله الله خليفـــة له واودع فيه صلاحية الرقى ، وسيظل يطـــوى مراحل الرقى الى ان يأتى اليوم الذى يتحقق له فيه التوازن فى الصفات فيكون معتدلا موزونا كبيت من الشعر ، عادلا كخالقه) .

ويرى استنادا الى قصة الخلق فى القـــرآن الكريم وجود الانســـان فى الارض وجود مؤقت فهو فى شوق دائم الى موطنه الاصلى أى الجنة(١٥) .

يقول اقبال : « والانسان بما وهب الله من قوى متوازنة على أحسن ما يكون قد ألقى نفسه فى اسفل ميزان الوجود » وقد أحاط به من كل جانب قوى تقيم فى وجهه العقبات » ويرى ان انعكاس البيئة الدنيوية على الانسان هى سبب قلقه وشغله الدائم بالمثل العليا والبحث عن آفاق جديدة . ومع أن نصيب الانسان فى الوجود شـــاق وحياته وهن كورقة الورد ، فليس للروح الانسانية نظير بين جميع الحقائق فى قوتها ، وفى الهامها وفى جمالها .

وبهذا التحليل يرتفع فيلسوفنا بقيمـــة الانسان ومكانته حتى يقـــوم بمسئولية حمل الامانة ، ويستحق أن يكون خليفة الله تعالى فى الارض(١٦) .

اهم آرائه :

تعد قصيدته المشهورة (أسرار خودى) سنة ١٩١٥م أول دواوينـــه الفلسفية واهمهـــا ، وكلمة (خودى) تدل فى لغتهـــا الفارسية على الاثرة والعجب والانوية وما يتصل بها . وفى الاردية تعنى دعوة فى الاخلاق منكرة وفى التصوف أشد نكرا ، ولكن اقبال نقل (خودى) الى مفهوم آخر ، جعله اصل

---

(١٥) نفس المصدر ص٦٩ ، ص١١٢ .
(١٦) د . محمد اسماعيل ـــ نظرات جديدة فى شعر اقبال ص٧٦ .
المجلس الاعلى للشئون الاسلامية صفر ١٣٨٩هـ ـــ مايو سنة ١٩٦٩م

فلسفة له ، فأراد بها الذاتية ، وهى مفتاح فلسفته كلها ، اذ رأى أن العالم قائم بهذه الذاتية ، وان الانسان بهـذه الذاتية يقوم ، على قـدر قوتهـا وضعفها بل يخلد أو يفنى باستحكامها أو اضمحلالها ، ولهـذا فان الواجب الانسانى فى هذه الحياة ينبغى أن يتوجه لمعرفة ذاته وتقويتها وتنمية مواهبها واستنباط ما فى فطرتها ، وليس من الخير فى شىء انكار الذات أو اضعافها ، بل هو الشر كل الشر ، كما لا ينبغى العمل لافنائها ولا الرضا به كما يفعـل الهنادك وصوفية العجم ، بل لا تفنى الذاتية فى الله تعـالى وليس من الخير السعى الى افنائها فيه(١٧) .

ونستطيع الالمام بأهـم آرائه اذا أحطنا علما كما أسلفنا بالمؤثرات الثقافية فى تكوينه ، فقد نشأ فى بيئة اسلامية تميل الى التصـوف ، والتقى بحضارة الغرب فى أوج نضجها قبـل الحرب العالميـة الاولى ، وعكف على القرآن يدرسـه ، بعقلية المتشبع بالفلسفة الغربيـة ، وأعلن (لو أن مسلما متفلسفا بين المسائل القرآنية فى ضوء الافكار والتجارب الحديثة ما صـح اتهامه بأنه يقدم شرابا جديدا فى زجاجة قديمة ، كما يقول مستر نكسن ، انا لا أعرض أفكارا جديدة فى ثياب قديمة ، ولكنى أبين حقائق قديمة فى ضـوء الافكار الجديدة . ما أشد أسفى لجهـل الغـرب الاسـلام والفلسفة الاسلامية)(١٨) .

وتشـير هذه العبارات الى مقومات فلسفته وأصولها ، فقد استمد من القرآن الحكيم أهم خصائص فلسفته الذاتية ، ونعنى به التصوره للانسان ، أصل نشأته ومصيره ، فقد كشف القرآن الاسرار الكامنة والطاقات الهائلة فى الانسان ، وسخر له هذا الكون ، وجعله خليفة الله فى الارض ، اذ يصف اقبال الانسان بأن الله سبحانه وتعالى وهب له من القـوى متوازنة على أحسن ما يكون ، قد ألقى بنفسه فى أسفل ميزان الوجود ، وقد أحاط به من كل جانب قوى تقيم فى وجهه العقبات (لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقـويم

---

(١٧) د . عبد الوهاب عزام : محمد اقبال — سيرته وحياته ص ٦١ مطبوعات باكستان ١٣٧٣هـ — ١٩٥٤م .

(١٨) د . عزام : محمد اقبال .. ص١٣١ .

ثم رددناه اسفل سافلين)(١٩) ، وكل ذلك لتقسوية ذاته بواسطة مقاومة العقبات التى تصادفه كما سيأتى .

الانســـان فى القـــرآن :

ان الانسان كائن قلق كما رأينا فى رأى اقبال . وهو على ما فيسه من نقائص اسمى من الطبيعة . اذ انه يكيف مصيره ومصير العالم كذلك وتسخير القوى .. ولكن المنهج الذى يضعه القرآن يجعل تفسير الانسان لنفسـه اساسا وآيات خلافته للارض تشير الى ان الانســـان موهوب بالملكة التى تجعل له القدرة على وضع اسماء للاشياء اى انه يكون التصورات لها) (٢٠)

ولكن الانسان هو خليفة الله فى الارض والمعصية الاولى التى أوردها القرآن كانت بمثابة او فعل للانسان تتمثل فيه حرية الاختيار .

ويصور الحياة كمغامرة تيسر الابتلاء (ونبلوكم بالشر والخير فتنة) .

على ان المغزى لحادثة سجود الملائكة لآدم عليه السلام يتعلق بأمرين اولهما رغبة الانسان فى المعرفة حيث تبين الآيات رغبة الانسان فى المعــرفة حيث تبين الآيات القرآنية تفوق آدم على الملائكة فى معرفة اسماء الاشياء ، اما الامر الثانى فيتصل بخطاب الشيطان لآدم (فوسوس اليه الشيطان قال يا آدم هل ادلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى) (طه ١٢٠) — اى اشارة الى رغبة (لا تقاوم فى الحصول على ملك لا يبلى)(٢١) .

وقد توقف اقبال عند هذا الشرح مكتفيا بالاشارة الى ان معنى الحياة للانسان يتحقق فى الشكل الفردى (فان الحياة معناها أن يكون للانسان شكل معين ، وفردية متحققة الوجود فى الخارج) .

الا انه يفسر قوله تعالى (قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو) (الاعراف) بأنها تعبر عـــن الصراع بين الافراد المتعـــارضين اثنـــاء سـعى كل منهسم

---

(١٩) د . محمد اسماعيل الندوى —نظرات جديدة فى شعر اقبال ص٧٦ المجلس الاعلى للشئون الاسلامية صفر ١٣٨٩هـ — مايو ١٩٦٩م .

(٢١) تجديد التفكير الدينى : ص١٠١ — ١٠٢ .

للكشف عن امكانيساته عن أسباب ملكه ، ان هذا الصراع متسده هو سبب الم الدنيـــا .

ومن نظرته للوجود الشخصى الفردى جعل الامانة التى ذكرتهــا آية الميثاق — الاعراف آية ١٧٢ — ستشمل عنصرى الخير والشر لانها قائمــة على أساس حرية الاختيار ، وقد خلقه الله تعالى للاختبار مع وضع الامثلة للرجولة الحقة كالصبر فى البأساء والضراء والاعتقــاد فى الفوز فى النهــاية لمن اجتاز الابتلاء بنجاح(٢٣) .

ويصور لنا اقبال الحياة الانسانية فى شكل معركة حقيقية ، تبرز فيها عناصر المقاومة والكفاح الدائم ، ولكن الانسان يملك فى نفسه من أسلحة المقاومة ما هو كفيل بنجاحه وانتصاره . فبالرغم من ان نصيب الانسان فى الوجود شاق ، وحيـــاته كورقة الورد ، فليس للروح الانســانية نظير بين جميع الحقائق فى قوتهــا وفى الهامها وفى جمالها . وقدر على الانسان ان يشارك فى أعمق رغبات العالم الذى يحيط به ، وان يكيف مصــير نفســه ومصير العالم ، وتسخير هذه القوى لاغراضه ، على شرط إن يبدا بتغيير نفسه (ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) (سورة الرعد) .

وهنا تظهر لنا الشخصية الانسانية كاوضح ما تكون ، لأن القرآن قد بينها — من وجهة نظر فيلسوفنا — مؤلفة من أمور ثلاثة واضحة كل الوضوح على التفصيل الآتى :

اولا — ان الانســان قد اصطفاه اللـــه (ثم اجتبــاه ربه فتاب عليــه وهدى) .

ثانيا — ان الانسان بالرغم من اخطائه جميعا ، أريد به ان يكون خليفة الله فى الارض .

---

(٢٢) قال تعـــالى : « واذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهـــورهم ذريتهم واشهدهم على انفسهم السمت بربكم ؟ قالوا بلى شهدنا ، ان تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلون » صدق الله العظيم .

(٢٣) محمد اقبال — تجديد التفكير الدينى ص١٠٣ و ٩٧ — ٩٩ — ١٠٠

(واذا قال ربك للملائكة انى جاعل فى الارض خليفة ، قالوا : اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك . قال انى اعلم ما لا تعلمون) . (وهو الذى جعلكم خلائف الارض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم) .

ثالثا — ان الانسان أمين على شخصية حرة أخذ تبعتها على عاتقه (انا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فابين أن يحملنها ، واشفقن منها ، وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا) .

واستخلص اقبال من هذه الامور أن مهمة الاسلام الحقيقة هى كشف الذات الانسانية وابرازها ، والذات خالدة أبدا ، ولا تفقد وجودها حتى بعد الموت ، ويعد القرآن أعلى مراتب السعادة الانسانية وجزاؤه الاوفى تدرجه فى السيطرة على نفسه(٢٤) .

الحقيقة بين التجربة العلمية والتجربة الدينية :

كان لابد لاقبال أن يدلى بدلوه وسط ضجة التجارب العلمية والاكتشافات التى تمت عن طريق المنهج التجريبى باوربا ، وطغيان هذه الظاهرة أمام انحسار موجة الدين . ولكن فيلسوفنا لم تخدعه الظواهر ، فأخذ ينقب عن ضرورة الدين واهميته للحضارة البشرية ، ورأى ضرورة أعداد الانسان العصرى أعدادا خلقيا يؤهله لتحمل التبعة العظمى التى لابد من أن يتمخض عنها تقدم العلم الحديث ، والدين كفيل بتحقيق هذه الغاية لانه سعى المرء سعيا مقصودا للوصول الى الغاية النهائية للقيم(٢٥) .

ونستطيع تفسير موقف محمد اقبال هنا بالمقارنة بين فريقى العقل والنقل فى الفكر الاسلامى ، فمن هذه الوجهة ، يعد من الآخذين بهما معا — كسلفه ابن تيمية . وكان لابد للفيلسوف المعاصر لاوربا فى أوج حضارتها ، القارىء لتراثها والناقم لانتاج فلاسفتها ، أن يستلهم الاسلام فى حل المشاكل التى يراها تتفتق أمامه عن أزمات لا يستهان بها . قال (لا ريب فى أن اللحظة

---

(٢٤) د . الندوى — نظرات جديدة فى شعر اقبال ص٧٩ — ٨١ .
(٢٥) محمد اقبال — تجديد التفكير الدينى فى الاسلام ص٢١٧ .

الحاضرة تمثل أزمة خطيرة فى تاريخ الثقافة المصرية) بعد فشل اسلوب التصوف فى العصور الوسطى والقومية والاشتراكية الالحادية فى شفاء علل الانسانية البائسة ، لان أسلوب التصوف كان ابعد ما يكون عن تدعيم قوى الحياة النفسانية عند الرجل المادى بحيث يعده للمشاركة فى موكب التاريخ ؛ تعلمه نوعا من الزهد الزائف ، وجعله يقنع بجهله ورقه الروحى قناعة تامة ، وكان لاسلوب الاشتراكية الملحدة الحديثة ما للدين الجديد من حمية وحرارة ، ولكنها استمدت أساسها الفلسفى من المتطرفين أمثال هيجل ، واعلنت العصيان عن المصدر الذى كان يمكن أن يمدها بالقوة والهدف ؛ ويؤكد انها ستتأثر بغير شك بالقوى السيكولوجية للكراهية والارتياب فى نيات الغير والاحقاد ، تلك القوى التى تنزع الى اضعاف روح الانسان وانضاب ينابيع قوته الروحانية الخفية(٢٦) .

ولمعرفة راى اقبال فى الحل المقترح ، لابد أن نعرض بايجاز شديد المقارنة بين الحقيقة فى التجربة العلمية ، والتجربة الدينية :

عندما نضع (العلم) فى مجموع التجربة الانسانية ، يشرع ينكشف عن طبيعة مختلفة ، والعلوم جزئية بطبيعتها ، وعلى هذا فان الافكار التى تستخدمها فى تنظيم المعرفة جزئية بطبعها ، وتطبيقها اعتبارى بالنسبة لمستوى التجربة التى نستخدمها فيه . واظهر دليل على ذلك تطورات النظرية العلمية على مر الاجيال عن المادة .

تكلم محمد اقبال عن الادلة التى تستند عليها الفلسفة المدرسية وهى الدليل الكونى ودليل الغائية والدليل الوجودى(٢٧) .

وربما أهم ما يوجهه من نقد الى الدليلين الوجودى ودليل العلة الغائية لانهما لا يؤديان الى شىء) مستندا الى حقيقة مؤكدة وهى أن الوضع الانسانى ليس وضعا نهائيا — وربما يقصد انه يعيش فى هذه الحياة مؤقتا ومصيره الى الموت — ويرى ان الفكر والوجود هما فى النهاية أمر واحد ولهذا فهو يرفع من شأن التجربة .

---

(٢٦) محمد اقبال — تجديد التفكير الدينى ص٢١٧ .
(٢٧) نفس المصدر ص ٢١٦ — ٢١٧ .

والتجربة كما تتكشف فى الزمان تتمثل فى ثلاثة مستويات كبرى هى :

مستوى المادة .. ومستوى الحياة .. ومستوى العقل والقصدر وهى على التوالى موضوعات علم الطبيعة وعلم الاحياء وعلم النفس .

ولقد وجه النظر الى بعض آيات الكتاب الكريم التى تتصل بالموضوع :

البقرة آية ١٦٤ (ان فى خلق السماوات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر ..) .

وآل عمران ١٩٠ — ١٩١ (ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لاولى الالباب ..) .

وسورة النور ٤٤ (يقلب الله الليل والنهار ان فى ذلك لعبرة لاولى الابصار)

ويقول هوايتهد ان العالم ليس شيئا قارا بل هو بناء من حوادث كانها سيل متصل خلاق ، وهذه الصفة لسير الطبيعة فى موكب الزمان ربما كانت ابرز وجوه التجربة التى اكدها القرآن على وجه خاص .

والكون الذى يبدو لنا فى صورة مجموعة من الموجودات ليس مادة صلبة تشغل فراغا ، انه ليس شيئا ، انما هو عمل وطبيعة الفكر المتجسد على ما يرى برجسون .

ان الطبيعيات تدرس العالم المادى والعالم الطبيعى الذى يبدأ وينتهى بالظواهر الحسية التى يستحيل بغيرها ان يتحقق من صدق نظرياته ، والطبيعيات مقصورة على درس عالم المادة اى عالم الاشياء المحسوسة .

اما الحركة العقلية التى يتضمنها هذا الدرس — وكذلك التجربة الدينية فانها امور خارجة عن ميدان الطبيعيات .

وعلى سبيل المثال عندما اصف السماء بانها (زرقاء) فان هذا لا يدل على ان هذا اللون صفة موجودة فى السماء وانما يدل على ان السماء تحدث فى العقل احساسا بالزرقة .

وقد اثبت عالم الرياضيات والطبيعة هوايتهد بطريقة قاطعــة أن الالوان والاصوات . . الخ فى نظر العلم ليست الا احوالا ذاتيــة لمدركها لا جزءا من الطبيعة فاللون والصوت عبــارة عن موجات اثرية لا تراها العين وموجات هوائية لا تسمعها الاذن أى ان ـــ بعبارة هذا العالم ـــ تصبح نصف الطبيعة (حلما) ونصفها الثانى (ظنا) .

بعبارة أخرى ان النزعة التجريبية التى بدت اول الامر أنها تقتضى المادة العلمية انتهت الى ثورة على المادة .

ولقيت أيضا نظرية المادة اعظم لطمة على يد (اينشتاين) حيث زعزع بنظريته عن النسبية معنى الجوهر كما اصطلح عليه القدماء أكثر مما زعزعه جدل الفلاسفة كله . .

ان المادة عند قدماء الفلاسـفة هى شىء يلبث فى الزمان ويتحـرك فى مكان ، ولكن النسبية فى الطبيعيات قوضت دعائم هذا الرأى حيث تذهب الى ان (القطعــة من المادة ليست شيئا ثابتا له أحوال متغــايرة ، بل أصبحت مجموعة حوادث مرتبطة بعضها ببعض .

وبهذا ذهبت صلابة المادة التى قيل بها قديما ، وذهبت معها الخصائص التى كانت تجعلها تبدو فى نظر المادى شيئا اقوى فى حقيقته من الافكار التى تجول فى العقل .

وعلى هذا فليس ثمة شىء اسمه مادة لها وجود فى ذاتها كما كان الرأى فى علم الطبيعيات القديم ،

ان قيمة نظرية النسبية بوصفها نظرية علمية لهــا قيمة مزدوجة من الناحية الفلسفية (فهى اولا لا تهدم حقيقة الوجود الخارجى وانما تهدم النظر الى الجوهر باعتباره مجرد شىء قائم فى مكان ، وهو رأى انتهى الى المادية فى علم الطبيعيات القديم ، فالجوهر فى نظر الطبيعيات النسبية ليس شيئا قائما بذاته له احوال متغايرة ولكنــه مجموعة من حوادث يتعلق بعضهـــا ببعض) .

وهكذا اتخذت (المادة) طبيعة مختلفة لان العلم لا يستطيع أن يقيم نظرياته على اعتبار انها راى كامل من الحقيقة ، وعلى هذا فان الافكار التى يستخدمها فى تنظيم المعرفة جزئية بطبعها كما راينا ، وتطبيقهـا اعتبـارى بالنسبة لمستوى التجربة التى نستخدمها . وقد اصبح هذا الاستدلال فى غاية الاهمية حيث ان العلماء قد اعترفوا بأن العلـوم المادية لا تعطى الا علمـا جزئيا من الحقائق .

اما الدين فهو السبيل الى معرفة (الذات الكلية) ، فالعبادة فيـه — وعلى وجـه اخص الصـلاة — هى المدخـل فى نظـر اقبـال الى ادراك تلك الذات الكليـة ادراكا قريبـا . ان حقـائق الدين فوق العلم ، ولا تستطيع العلوم المادية الوصول اليها .

ويكشف اقبـال من خطـأ التعريفـات للدين التى وضعها (يونج) ومضمونها فى الجملة هو أن الدين لا يصل بين ذات الانسان وبين اية حقيقة واقعية خارج نفسه ، بل هو مجرد تدبير بيولوجى حسن القصد أريد به اقامة حدود ذات طابع اخلاقى حول المجتمع الانسانى لكى تحمى البناء الاجتماعى من غرائز الذات التى لا يكبح لها بغير ذلك جمـاح ، وكأن يونج قد رأى فى المسيحية انها انتهت من رسالتها بسبب تصوره للحياة الدينية الرفيعة مجرد قهر النفس للبواعث الجنسية ، ولكن محمد اقبال يفند هذا الزعم الخاطىء لان قهر البواعث الجنسية ليست الا مرحلة تمهيدية من مراحل تطور الذات وارتقائها . وكما يؤكد ايضا ان علم النفس الحديث لم يمس بعـد للحيـاة الدينية حتى فى هوامشها ، وانه مازال بعيدا عمـا يسمى تنوع الرياضـة الدينيـة .

ويرى فيلسوفنا أن الدين ، وهو فى جوهره حال من احوال الحيـاة الواقعة ، هو الطريقة الوحيدة للبحث فى الحقيقة ، وبوصفه نوعا من رياضة عالية رفيعة ، يصحح أفكارنا فى فلسفة الالهيات لأن الادراك وحده لا يؤثر فى الحياة الا تأثيرا جزئيا ، أما العمل — وربما يقصد هنا العبـادة واخصها الصلاة — فيظهر فى السيطرة على الافعال السيكولوجيـة والفسيولوجيـة لتهيئة الذات لكى تكون صالحة للاتصال المباشر بالحقيقة القصـوى ، وهى وسيلة لادراك الحق ، يفتح لنا ابوابا جديدة من الشعور ، كما يفتح المجـال لامكان وجود تجربة تهب الحياة وتفيد العلم (فالسؤال عن ان الدين يمكن أن

يكون نوعا من تجربة اسمى وارفع سؤال مشروع تماما ويتطلب منا الانتباه الجدى .

وأيضــا فان مطمح الدين يسمو فوق مطلب الفلسفة ، فالفلسفة نظـريات اما الدين فتجربة حية ومشاركة واتصال وثيق ، وينبغى على الفكر لكى يحقق هذا الاتصال ان يسمو فوق ذاته ، وان يجد كماله فى حال من أحوال العقل يسميها الدين الصلاة ، والصلاة لفظ من آخر ما انفرجت عنه شـفتا نبى الاسلام عند وفاته .

تم بحمد الله وتوفيقه

المراجـــع

ـ القرآن الكريم

(أ)

ـ اقتضاء الصراط المستقيم ـ ابن تيميـة .

ـ ابن تيمية ـ المراغى (سلسلة أعلام المسلمين ط الحلبى) .

ـ آراء فلسفية فى ازمة العصر ـ ادريين كوخ مكتبـة الانجلـو المصر سنة ١٩٦٣م .

ـ أبو الحسن الاشعرى ـ د . حمـود غراب ط مجمع البحوث الاسلامية ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م .

ـ ايثار الحق على الخلق فى رد الخـلافات الى المذهب الحق ـ ابن الوزير اليمانى ط الآداب بمصر .

ـ أحمد ابن حنبل والمحنة ـ ولتربنون .

ـ الله والكون ـ د . محمد جمال الدين الفندى .

ـ الاسلام قوة الغد العالمية ترجمة الدكتور محمد شامة ـ بول شميتز .

ـ الاسلام يتحدى ـ وحيد الدين خان .

ـ الاسلام والغرب والمستقبل ـ ارنولد توينبى .

ـ الايمان ـ ابن تيمية ـ مكتبة انصار السنة المحمدية بالقاهرة .

(ب)

ـ البداية والنهاية ـ ابن كثير .

ـ البرهان فى معرفة عقائد الاديان ـ عباس بن منصور السكسكى الحنبلى دار التراث العربى ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م تحقيق : خليل احمد ابراهيم الحاج

ـ بغية المرتاد فى الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية ـ ابن تيمية .

ـ البرهان القاطع ـ ابن الوزير اليمانى .

— البرهان فى علوم القرآن — الزركشى — ط الحلبى سنة ١٩٥٧م .
— بين الدين والعلم — د . الغمراوى .

(ت)

— تاريخ الفكر الفلسفى فى الاسلام — د . محمد على ابو ريان .
— تاريخ الفلسفة اليونانية — يوم كرم .
— تاريخ الدولة العباسية — د . جمال الدين الشيال .
— تدوين العالم — الخطيب البغدادى .
— تأويل مختلف الحديث — ابن قتيبة .
— تاريخ الخلفاء — السيوطى .
— تجديد التفكير الدينى — محمد اقبال .
— تفسير سورة الاخلاص — ابن تيمية .
— تذكرة الحفاظ — الذهبى .
— التعريف لابن تيمية — محمد ابو زهرة من كتاب أسبوع الفقه الاسلامى .
— تيارات فى الفكر الاسلامى — د . محمد عمارة .
— تبيين كذب المفترى على الامام ابى الحسن الاشعرى — ابن عساكر .
— تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية — الشيخ مصطفى عبد الرازق ط لجنة التأليف والنشر والترجمة بالقاهرة ١٣٦٣هـ — ١٩٤٤م .
— تفسير الامام عبد الحميد بن باديس .
— التراث اليونانى فى الحضارة الا سلامية — د . عبد الرحمن بدوى .
— تلبيس ابليس — ابن الجوزى .
— التنبيه والرد على الاهواء والبدع — الملطى .
— تاريخ بغداد — الخطيب البغدادى .
— تاريخ الكامل — ابن الاثير .
— التنبيه والاشراف — المسعودى ط القاهرة (١٣٥٧هـ — ١٩٣٨م) — تصحيح ومراجعة عبد الله اسماعيل الصاوى .

(ج)

— جامع الرسائل الكبرى — ابن تيمية تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم — ط المدنى بالقاهرة سنة ١٩٦٩م .

— جلاء العينين فى محاكمة الاحمدين — ابن تيمية .

— جواب أهل العلم والايمان — ابن تيمية .

— الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح — ابن تيمية .

— جامع بيان العلم وفضله الحافظ ابن عبد البر القرطبى .

(ح)

— الحيدة — عبد العزيز المكى — مطابع الشرق الاوسط — الرياض .

— حضارة الاسلام — فؤاد محمد شبل .

— الحضارة — د . حسين مؤنس .

(د)

— دفاع عن العقيدة — محمد الغزالى دار الكتب الحديثة — القاهرة .

— دول الاسلام — الذهبى — ط حيدر آباد ١٣٢٦هـ .

(ر)

— الرد على المنطقيين — ابن تيمية ط لاهور (١٣٩٦هـ — ١٩٧٦م) .

— الروض الباسم فى الذب عن سنة ابى القاسم — ابن الوزير اليمانى .

— الرد على الزنادقة والجهمية — احمد ابن حنبل .

— رجال الفكر والدعوة فى الاسلام — ابو الحسن الندوى .

— رحلة ابن بطوطة — المطبعة الازهرية .

— رسالة الخلود أو (جاويد نامة) — محمد اقبال .

(س)

— سقوط العلمانية — انور الجندى .

— السلوك — ابن تيمية ط الرياض .

— الاستيعاب — ابن عبد البر .

— اسد الغابة فى معرفة الصحابة — ابن الاثير — ط الشعب .

(ش)

— شمس الله تسطع على الغرب — زيجفرد هونكة .

— شرح العقيدة الاصفهانية — ابن تيمية .

— شرح حديث النزول — ابن تيمية .

— شرح عقيدة السفارينى ط المنار سنة ١٣٢٣هـ بمصر .

— شرح أصحاب الحديث — الخطيب البغدادى ط دار احياء السنة النبوية انقرة ١٩٧٢م تحقيق د . محمد سعيد خطيب أوغلى .

— شرح الطحاوية — تحقيق الالبانى .

(ص)

— الصفدية — ابن تيمية — تحقيق د . محمد رشاد سالم — مطابع حنيفة — الرياض ١٣٩٦هـ — ١٩٧٦م .

— صلة الفكر الاسلامى بالاستعمار — د . محمد البهى .

— صون المنطق — السيوطى ط البحوث الاسلامية .

— الصراع بين الفكرة الاسلامية والفكرة الغربية — ابو الحسن الندوى — ط دار الندوة لبنان .

(ط)

— طبقات الشافعية — ابن السبكى .

— الطب فى محراب الايمان — د . خالص جلبى .

(ظ)

— ظاهرة الردة فى المجتمع الاسـلامى الاول — محمـد حسن بريغش — ط مؤسسة الرسالة — بيروت .

(ع)

— عقائد السلف — ابن قتيبة تحقيق د . النشار وعمار الطالبى — منشـأة المعارف بالاسكندرية ١٩٧١م .
— الاعتصـام — الشاطبى — ط دار الشعب .
— العقود الدرية — ابن عبد الهادى .
— عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين — ابن القيم — مطبعة الامام .
— عقائد المفكرين فى القرن العشرين — عباس العقاد دار الكتاب العربى — بيروت ١٩٧١م .

(غ)

— غاية المرام فى علـم الكلام — سيف الدين الآمدى — ط المجلس الاعلـى للشئون الاسلامية بالقـاهرة ١٣٩١ — ١٩٧١م تحقيـق : د . حسـن عبد اللطيف .
— غاية الامانى فى الرد على النبهانى — ابو المعالى السلامى .
— غياث الامم فى التياث الظلم (الامام الجوينى) ط دار الدعوة بالاسكندرية ١٣٩٩ — ١٩٧٩م تحقيق د . مصطفى حلمى و د . فؤاد عبد المنعم .

(ف)

— الفتاوى الكبرى — ابن تيمية تحقيق حسنين محمد مخلوف ط الرياض .
— فى الفلسـفة الاسلامية — د . مدكور .

— فى الاصول من الا ئمة الفحول — أبو الحسن الكرجى .
— الفهرست — ابن النديم ط فلوجل ليبيك ١٨٧١م .
— الفرق وطبقات المعتزلة — القاضى عبد الجبار — ط دار المطبوعات الجامعية تحقيق د . النشار وعصام الدين محمد على .
— الفرقان بين الحق والباطل — ابن تيمية .
— الفكر الاسلامى الحديث فى مواجهة الافكار الغربية — محمد المبارك .
— فلسفة الحضارة — البرت اشفتيسر ترجمة د . عبد الحمن بدوى .
— فى الاخلاق والاجتماع — د . أبراهيم مذكور ط الهيئة العامة للنشر .

(ق)

— القول الجلى فى ترجمة شيخ الاسلام — صفى الدين الحنفى .
— قواعد التحديث — القاسمى .
— قواعد المنهج السلفى فى الفكر الاسلامى — د . مصطفى حلمى ط دار الانصار بالقاهرة .
— القرآن الكريم والتوراة والانجيل والعلم — موريس بوكاى ط دار المعارف سنة ١٩٧٩ م .

(ك)

— كتاب السنة — أحمد ابن حنبل — المطبعة السلفية مكة المكرمة ١٣٤٩هـ .
— كشف اصطلاحات الفنون — التهانوى .
— الكون والثقوب السوداء — زهير الكرمى — سلسلة كتب عالم المعرفة بالكويت .
— الكون بين الدين والعلم — د . محمد جمال الدين الفندى .

(ل)

— لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم — شكيب أرسلان .

(م)

— مقالات الاسلاميين — ابو الحسن الاشعرى .

— المفردات فى غريب القرآن — الاصفهانى .

— مبادىء الاجتماع الدينى — روجيه باستيد — د . قاسم .

— ميزان الاعتدال فى نقض الرجال — الذهبى .

— معارج الوصول الى ان اصول الدين وفروعه قد بينهما الرسول — ابن تيمية — المكتبة العلمية بالمدينة المنورة .

— موافقة صحيح المعقول — ابن تيمية .

— الملل والنحل — الشهرستانى — ط بدران .

— منهاج السنة النبوية — ابن تيمية .

— منهاج السنة النبوية — ابن تيمية

— المغنى فى ابواب التوحيد والعدل — القاضى ابو الحسن عبد الجبار — وزارة الثقافة والارشاد .

— الموسوعة العلمية المختصرة — مكتبة الانجلو المصرية .

— المنتقى — الذهبى تعليق الاستاذ محب الدين الخطيب .

— محنة شيخ الاسلام فى سجنه — تحقيق الشيخ محمد حامد الفقى .

— مناهج البحث عند مفكرى الاسلام د . على سامى النشار .

— من حضارتنا — د . جورج عطية .

— مدخل الى القرآن الكريم — محمد عبد الله دراز ط دار القلم — الكويت ١٣٩١ هـ — ١٩٧١م .

— مقدمة ابن خلدون — ابن خلدون ط دار الفكر ١٣٩٩ هـ — ١٩٧٩ .

— مفاتيح العلوم — الخوارزمى ط المنيرية سنة ١٣٤٢هـ .

— مناقب الامام احمد بن حنبل — ابن الجوزى .

— محمد اقبال سيرته وفلسفته وشعره — عبد الوهاب عزام .
— مراتب الاجماع — ابن حزم .

(ن)

— نحن والحضـــارة — ابو الاعلى المودودى ، الانتصار والرد على ابن الراوندى الملحد — دار الكتب ١٣٤٤هـ — ١٩٢٥ م
— نظرات جديدة فى شعر اقبال — د . محمد اسماعيل الندوى .
— نشأة الفكر الفلسفى فى الاسلام — د . النشار
— نقد المنطق — ابن تيمية .
— نظريات شيخ الاسلام فى السياسة والاجتماع — المستشرق الفرنسى هنرى لاووست — ط دار الانصار بالقاهرة
— النبوات — ابن تيمية ط السلفية ١٣٨٦ هـ .
— نقد الدارمى على المريسى — الدارمى .
— الانسان ذلك المجهول — الكسيس كاريل — تعريب شفيق أسعد فريد مؤسسة المعارف بيروت .

(هـ)

— هل للانســان مستقبل — باتراند راسل — ترجمة عايد الرباط الدار القومية للطباعة والنشر .

(و)

— وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان — لابى العباس شمس الدين أحمد بن خلكان تحقيق محمد محيى الدين — مطبعة السعادة بالقاهرة سنة ١٩٤٨م
— الوحى المحمدى — محمد رشيد رضا

للمؤلف

١ ــ نظام الخلافة فى الفكر الاسلامى	دار الانصار ــ القاهرة
٢ ــ الخوارج ومسالة تكفير المسلم	دار الانصار ــ القاهرة
٣ ــ المشكلات التى تواجه الشباب المسلم وكيف نتوخاها	دار الانصار ــ القاهرة
٤ ــ قواعد المنهج السلفى	دار الانصار ــ القاهرة
٥ ــ نظرية شيخ الاسلام ابن تيمية فى السياسة (دراسة وتحقيق)	دار الانصار ــ القاهرة
٦ ــ غياث الامم لامام الحرمين (دراسة وتحقيق)	دار الدعوة بالاسكندرية
٧ ــ الزهاد الاوائل	دار الدعوة بالاسكندرية
٨ ــ ابن تيمية والتصوف	دار الدعوة بالاسكندرية
٩ ــ التصوف والاتجاه السلفى فى العصر الحديث	دار الدعوة بالاسكندرية

اعتــــذار :

وقعت اخطاء مطبعيـــة خارجـــة عن ارادتنـــا ولا تغيب عن فطنـــة الاخ القارىء ، ونعتذر ونرجو التصحيح .

الصفحة	السطر	الخطأ	التصحيح
١٦	الاخير	صلى الله	صلى الله عليه وسلم
٢٧	ــ	الفصل الثانى	الباب الثانى

رقم الايداع ١٩٨٢/٤٦٢٤

دار نشر الثقافة
طبع . نشر . توزيع
١٢ ش حسبو منشا ـــ محرم بك
ت : ٣٢١٩٨/٢٠٦٢٥

❀ هــذا الكتاب

[illegible] الكلام [illegible] بصياغة [illegible] المعتزلة والأشاعرة [illegible] المشوبة بكثير من الأفكار الغريبة الدخيلة وأثرها في انحدار [illegible] الاسلامية [illegible] يقتضي أن نرجع الى الأصول الأولى قبل كل شيء .

❀ وهذا ما دفع مؤلف الكتاب فاختار موضوعه لدراسة دور علماء الحديث والسنة في أصول الدين — علم الكلام — لابراز موقفهم ومناهجهم في النقاش والرد على المتكلمين .

❀ وأثبتت هذه الدراسة خطأ الظن بأن هؤلاء العلماء — وفي مقدمتهم الامام أحمد والدارمي والبخاري وابن قتيبة وغيرهم — علماء نقل دون دراية عقلية ، فالحقيقة أنهم كانوا أهل نظر أيضا .

وكان لهم منهجهم الاسلامي الأصيل في بحث أصول الدين والدفاع عنــه .



١ شارع منشا (محرم بك)
الاسكندرية ت (٢١٧٨٨)